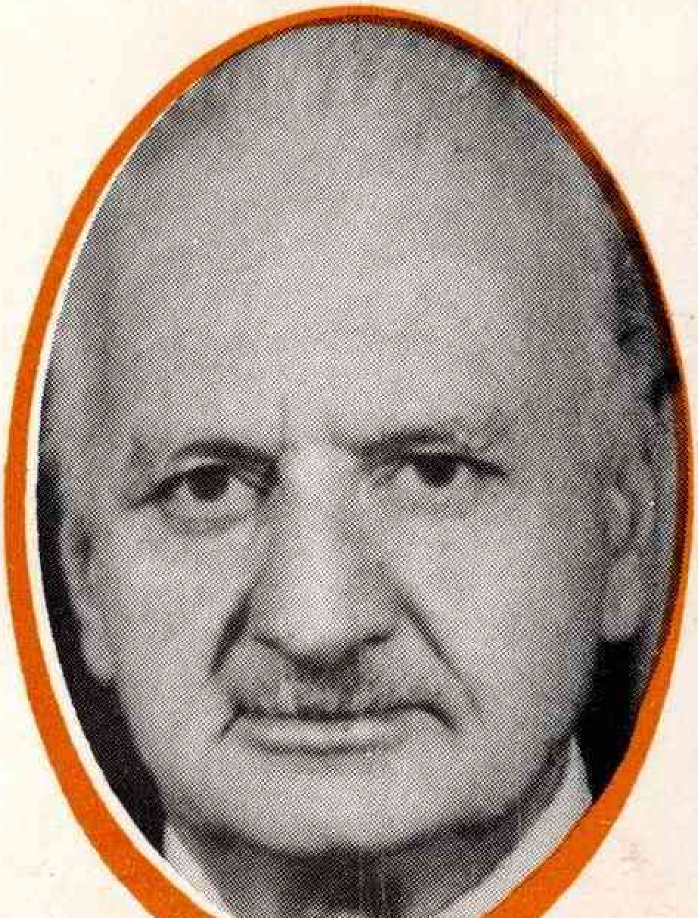
موسوعة المفكرين والأدباء العراقيين

الجزء التاسع عشر

علي جواد الطاهر



تأليف

حميد المطبعي

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد - ١٩٩٤

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

موسوعة المفكرين والادباء العراقيين

الجزء التاسع عشر

د. علي جواد الطاهر

تأليف

حميد المطبعي

الطبعة الأولى - ١٩٩٤ م

هذه الموسوعة

منذ ربع قرن انصب تفكيري في تأليف هذه الموسوعة ، وانقطعت الفكرة ثم بدأت الآن ، وهذه الموسوعة لها صفة هي غير صفة الموسوعات الصادرة في تراجم الاعلام ، وصفة هذه الموسوعة ، هي انها تلم بالأعلام الماما متكاملا ، في النفس ، وفي البنيـة ، وفي هذه العناصر التي تركّب الكاتب او المفكر تركيبا ، يراعى فيه ، التسلسل المنطقي لولادة الشخصيـة ، والتطور التاريخي لافكارها ، وكانت موسوعات هذا العصر ، او العصور السالفة لا تغطي الا الشكل الخارجي للأعلام ، كتبهم وشهادات ميلادهم او وفياتهم ، بمعنى ان الكتابة عن الشخصيات الثقافية في تلك الموسوعات لا تخرج عن التراجم التقليدية ، وكأن الكتّاب والمفكرين هم شخصيات نمطية ، ولدت وعاشت كأي سياق بشري آخر ، مع ان تاريخ التراث كان يحدثنا باسهاب عن أهمية ونبوغ واستثنائية قوافل الفكر في الحياة العربية ، وهذا التفرد الذي يتميز به المفكر العربي عبر عصوره ، جعلني افرد له في هذه الموسوعة المساحة المنطقية المتوازنة مع دوره في التاريخ ، فأتحرى وقد تحريت عن مكونات الكاتب النفسية وصلاته بالاخرين ، ودوافعه الغريزية للكتابة

والابـداع ، ثم قمت بمجادلة آرائـه وافكاره ، تبعـا لسياقـه التاريخي ، ووضعت هذا الجدل في خدمة هدف الموسوعة ، وهو ان يكـون القارىء في صميم المتـرجم له ، فيصل اليـه بـلا جسور ، ويتعرف الى رؤيته او فلسفته بحيوية حواسه ، وحتى لا يبقى بين القارىء وهذه الشخصية المترجم لها ، اية عقدة من عقد الفكر الغامضة .

لقد وجدت الموسوعات القديمة والموسوعات المعاصرة في تراجم الأعلام ، لا تقدم الا اعلانا عن الشخصية ، لا تشرح فيه فكرا ولا تفلسف فلسفة ، فهو مجرد اعلان عابر ، او طيف صامت لا يدور او ينفذ إلّا في المسام المظهرية للشخصية ، فهو إذن إعـلان مجحف بقيمة وعـظمة المفكـرين والكتّاب الذين أسسوا لنا مجتمع القيم ، وبنوا في محيطنا السلّم المثالي لمجتمع عربي ، مفكر ، عاقل ، مدرك ويعقل مطالبه الحضارية ، طبقاً لانجازات العقل التركيبي الذي تتصف به فلسفتنا في الحياة .

واختـرت ، ان تكـون هـذه المـوسـوعـة ، شـاملة في مقاصدها ، لأن مفكرنا شامل في افكاره ، وشامل في تصوراته واحـلامه واشـواقه ، وانـا لا بد من ان اكـون شامـلاً مـع الشخصية التي ابتغي ترجمتها ترجمة متكاملة ، فأوجه لهـا

نقدا يأخذ في سياقه العام ، الطابع الاثنوغـرافي ، وهو الذي يتصل بحياة الشخصية الاجتماعيـة ، وادخلها في الدراسـة الاثنـولوجية ، وهي الدراسـة المقارنـة البـاحثـة في عـلاقـة الشخصيـة مـع محيـطهـا البيئي او الحضـاري او السلوك الجمعي ، وكما هو ثابت ، فان القارىء العام بحاجة دائماً الى مدلول منطقي استدلالي لمعرفة ابعاد المفكر العربي ، ومستوى عـلاقته بـالحياة ، وفي شـؤونها العقليـة او الانثرولوجيـة ـ التاريخية .

وكنت في كل تراجمي لهؤلاء الأعلام ، متعاطفاً معهم ، الا في حالات ، ارى فيها الكاتب يشذ عن مقياس احصائي ، او يقف موقفاً متذبذباً بازاء قضية ما من القضايا التي تشغل ذهن الحقبة الزمنية التي نرتادها ، فاحاول فيها ، او اتوصل وهذه الشخصيـة التي ابحث فيهـا ، الى قنـاعـة مشتـركـة من الحسيـات العامة ، حتى نجعل هذا القارىء الذي يقرأ هذه الموسوعة ، متداخلا ، كاشفاً ، لا متفرجاً في سديم ، ومع هـذا ارضيت نزاهتي في أعلامنـا ، واديت الزكاة لتـاريخهم ، فنحن كلنا ، مدينون لأعلام العراق ، فيما ابدعوا من علم ، وفيما انتجوا من عقل ، وفيما ارادوا ان يكملوا الشوط الطويل الذي ابتدأت به

مدرسة بغداد في التاريخ ، وفي بناء التاريخ الانساني .

لم اتبع في هذه الموسوعة ، النهج الابجدي ، او الانتقائي لأعلام العراق، وانما نهجت فيها نهج البحث في الشخصيات البارزة في التاريخ المعاصر ، كلما توافرت في هذه الشخصية او تلك ، مصادري في دراستها والتبحر في مظانها . وكنت في هذا النهج ، ابتعد عن النمطية التي اتسمت بها الموسوعات القديمة والتراجم المعاصرة التي خلطت في المفكرين خلطاً ، وباعدت وقربت فيما بينهم تحت ثقل السياقة الأبجدية ، التقليدية ، الصارمة ..

وكنت من أوائل من ابتكر هذا النهج في تاريخ العمل الموسوعي العربي ، واول من ابتدع النواة العلمية - الموضوعية لمؤرخ المستقبل ، الذي سيجد إن طال بي الصبر في تراجم أعلامنا ، سفرا خالداً ، زاخرا بصور التاريخ والمواقف والاحداث ، يمكنه من ان يدرس فيه حياة مجتمع او حقبة تاريخ من هذا المجتمع ، او حالته العقلية التي « تبلورت » بجهد ابداعي تركيبي - تاريخي .

وآمل ان لا يكفرني مؤرخ المستقبل في شيء فعلته في هذه

الموسوعة ، فقد جهدت ما استطعت الى ذلك سبيلاً ، ثم تنزًّه بي الهدف .

حميـد المطبعـي

١٤١٠هـ - ١٩٩٤ م



المطبعي والدكتور علي جواد الطاهر

صلــبٌ
في رأيه
أنيــق
في لفظه ...!


ورقة الهوية
الصورة
اسم الطالب علي
اسم ابيه وشهرته
الامضاء

الصـــلة

ترجع صلتي بالدكتور الطاهر الى عام ١٩٦٧ .

وفي ذلك العام ارسلت اليه رسائل أحثـه فيها عـلى ان يواصل بحثه وكتابته الى القارىء ، وكـان يدرّس في جـامعة الرياض ، يدرّس جيلا وينتج جيلاً : (ومما اذكره جيدا من هذه الرسائـل التي احتفظ بهـا ، رسالة وصلت عـام ١٩٦٧ والمطبعي يشرف على اصدار « الكلمة » فاستغربت قليلا ولم استغرب كثيرا ، الرسالة مختصرة بـالطبع ولكنهـا معبرة في الثناء الذي حسبه مرسلها اني أهله ، وفي بيـان الجد الذي يحتـوي الشباب القـائمـين عـلى اصـدار مجلة « الكلمـة » وتحريرها وحرصهم على ان تصل الى الايدي التي تقرأ وتفهم ، وورد من العبارات الدالة على ذلك : اننا نتصبب عرقاً ...) ، فوعدنا بالكتابة .. (حتى اذا اردف المـطبعي الرسالة الاولى بهدية تنتظم ستة اعداد اطلعت جيدا عـلى حماسـة الشباب وثقتهم بأنفسهم في ان يأتوا بجديد مبدع ..) ونشرنا له مقالة بعنوان « واذ يولد جيـل .. » مبينا : (مـا لهذا الجيـل من محاسن ، وسميت الجيل ـ مؤقتاً ـ جيل الكلمة ، وهو الذي

عرف فيما بعد بجيل الستينات ..) .

ومن العبارات التي بعثناهـا اليه في ٤ / ٤ / ١٩٦٧ وهو في السعودية :

« يسر هيئة تحرير (الكلمة) ان ترسل لكم العددين الاول والثاني من (الكلمة) تقديرا لجهودكم في الحقل الثقافي .. وهـذا الحقل عـرفكم واحدا من كتـابنا المخلصـين الذين يعانون الحرف ويخلصون له بجد .. » .

وفي ٢٦ / ١٢ / ١٩٦٧ قلنا له في رسالة اخرى : « .... والكتابة عنك في العدد السادس دليل اخـلاصنا لك ، وحب ا لجهودك الفكري واعتزازنا بشخصك ... » .

ونحن جيل الكلمة عندما كتبنا لـــه الرســـائل ، فلأنما كنا نرى في الدكتور الطاهر ، قافلة وحده ، كتب قافلة وحده ، ومشى قافلة وحده ، وهذه القافلة غالية في ادبنا !

ومنذ ذلك التاريخ ، لم اترك الطاهر يوما الا واناقشه في مشروع ، او اجادله في رأي ، او اسأله عن مجهود ، فهو خُلق لكي يكون مشروعا في مقالة او مـدرسة في تعليم الآراء .. او مختبرا للجهد العقلي المتواصل ، هو ظاهرة بيننا فلم يتوقف ..

وقلمه ظاهرة ، نزف ثم نزف ، ويتمنى هو نفسه ان ينزف او يتمنى جيلنا ان ينزف حتى يطمئن الى سلامة رحلته المقدسة في الحياة !

وصدق في هذه الرحلة ، كان صادقا الى ابعد مدى في كل روائعه التي كتبها ، وصادقا في نيته ، فهو منذ كتب ، منذ قرأ ، منذ اراد ان ينشيء خطواته في هذه الرحلة تحالف مع أصدق خوالج النفس ، وتحالف في غوره ، اذ وجد لا صدق في الكتابة الا صدق النفس ، ووجد ان الكفاح في هذه النفس كفاح مرير ، فحارب الزلفى وحارب المتزلفين ، قلمه وجهه ، ووجهه قلمه ، باطن وظاهر هذا الذي امتزج فيه الطاهر ، وباطنه قام في أسمى غايات الانسان ، وظاهره قام في تعادل صريح مع هذه الغايات ، وعليّ اذن ان اظهر الطاهر واظهر رحلته واظهر تاريخه بما يناسب دورا أداه ، وبما يناسب تاريخا نسجه بروحه وبأظافره ، ولا اعتقد اني سأنتهي في هذه الرحلة عن قريب ، فهو ولد في اكثر من عقل ، عقل الادب وعقل النقد وعقل تحقيق الكتب وعقل المقالة وعقل البحث الاجتماعي وعقل اللغة ، فلا بد ان اسلك في كل عقل سلوكا ، فأفردت له منهجا خاصا ، وبوبت حياته فيما اريد ان ابوب تاريخا عقليا مهما

وكبيرا يضاف الى تاريخ العقل العراقي الذي ابدعه روادنا وسنوا فيه قوانين المعرفة العراقية (الانسانية) ، وهذا بعض وفاء منا ومنه الى تاريخنا العقلي !

هيئته

والطاهر ازاءنا .. شيخ تام الشيب ، ومعارفه يقولون ان هذا الشيب بدأ فيه مبكراً ، ثم دبَّ صلع يكاد يجتاح جبهته ويمضي قدما مع الايام ، وبشرته اقرب الى البياض ان لم تكن بيضاء ، وجسمه معتدل في الطول ، معتدل في البناء العام ، وأنفه ابرز ما في وجهه .. والطاهر لا يهمه ـ الى ذلك ـ مظهره الخارجي كثيرا من حيث الملبس ، فهو معتدل فيه او دون المعتدل ، وكأنه لا يستمد عناصر شخصيته من المظهر وتكلف الاناقة .. ولم تكن خلقته بشاغل ، فلم تورثه غربة ، ولم يستمد منها تمييزا ، فكما يقول : (له امثال في بيته واسرتيه وبلدته « الحلة ـ بابل » ، ومن هو أحسن في أحسنها وأسوأ في الأسوأ) .. والامر كله طبيعي في بيئة يقوِّم الناس فيها على اساس السلوك الحسن ، وما كان يصل اليه من ثناء في هذا



ايام شبابه ! في باريس - الشهور الاولى ١٩٤٩

الباب كفيل بأن يطمئن معه الى كيانه ، وان يدفعه نحو الاحسن ، وكأنه ـ من حيث لا يدري ـ يطمع بالثناء الاجزل ..!

وهذه فرصة لأن يقول :

(ان هذه البيئة لا تعرف التفاخر بالنسب وكأن أهلها من نسب واحد ، وانهم لكذلك ، ولا تعرف التفاخر بالنشب مع انها مالياً من طبقات ثلاث . ولكن الغني لا يتعالى والفقير لا يذل ، والوسط وسط لا يتعالى ولا يذل ..) .

لو اخترنا شبيها للدكتور الطاهر من القدامى الجاهليين لقلنا او لاخترنا النابغة ، ومن قدامى العهد العباسي لاخترنا الشريف الرضي ، لكنه هو يقول : (... ولعلني أشبه الطغرائي) الذي كتب في حياته وشعره ولا سيما « لاميته » كتابا اصدره بطبعة اولى عام ١٩٦٣ .. والطغرائي من مواليد ١٠٦١ م من ولد ابي الأسود الدؤلى ..

منظومته النفسية

ويقال ان الطاهر يرغب الى الانطواء ، فلا يألف هذا المجتمع الفة ، وقد أخطأوا في هذا الرأي ، انه مجرد انطباع

خارجي ، فأنا وجدته في هذا ، ووجدت نفسه غنية بجواهر قلما تتوفر عند ادباء آخرين : جوهر الدفاع عن القيم والفضائل ، وجوهر في ان يضيء الانسانية ، وفلسفته قامت في هذه الجواهر على انه (يمتّع ويفيد الآخرين) في الكتاب الذي يقرأه او يؤلفه او ينقده في الصحف ، ويبدو الطاهر هادئاً صبوراً ، وقد ينطوي على الانفعال اكثر مما يدعه ينفجر : (وأحسب في هذه الصفة ما يخدم كاتب المقالة على الاقل ، كما يخدمه اذا وقع بين افراد تافهين) .. لكنه لم يحقد يوماً على أحد ، وربما هو تمنى الحقد احياناً لحقدٍ وقع عليه لكنه لم يستجب : (ولا يقع الحقد من انسان لا تهمه تفاهات من يجور عليه) .. ذلك انه لم يحسد اناساً لا يحسدون على ما هم مجنونون به ، ولا يقع كذلك من انسان تتكاثر عليه العواطف الطيبة ممن يعرف ولا يعرف ، حتى يرى في تلك العواطف ربحاً كبيراً جره ضيم صغير ، وفي حياته لم يدركه الحسد « الغيرة بمفهومها الاجتماعي » : (... وكأني احس ان في نفسي ما يغنيني عن ذاك ، وما عند الاخرين من حق هو حقهم) .. فلِمَ حديث النفس بالاغتصاب ؟... (اما ما عندهم من باطل فلا غيرة مني

فيهم عليه) ..

* * *

وقلما يطيل الطاهر في النقاش ، ومرد هذا ثقته بنفسه ، اي بما تنتجه النفس من مزايا الادب والثقافة ، وثقتـه ذات دلالة اجتماعية ، بأن الحق لا يضيع والصحيـح لا يخفى ، فان كان المقابل على ضلال ولا يريد ان يدرك فدعه على ضلاله ليتلقى ما هو اهله ، وان كان مغالطا فلا اعرف بالحقيقة منه : (اما انا فان كنت على حق فلِمَ المبالغة في اقناع الاخرين ، وان كان الاخرون على حق فما اسرع ما اصدقهم ، ولا أغبى من مغالط ...) انها صوفية الاديب المجاهد فيما يريد الطاهر ان يقول ويقرر الحقائق وبذهن انساني .. اذن هو انساني ، وهل يعني ذلك انه تجاوز المحلية : (.... لا تفترق الانسانية عن المحلية ، فالانساني في نفسه وبيئته الضيقة انساني في العالم كله ....) .. ويصف ذهنه مرة اخرى : (.... وأحسب ان لي ذهناً لا بأس به ، بمعنى انه لا يقبل الاشياء كما هي او على علاتها ، وانه لا يجمد على ما قاله له الآخرون ، ولا يعيش على

ما قاله هؤلاء الآخرون ...) !

* * *

وقلت انه يبدو بوداعة ، وهكذا يبدو : (واذا حسبها الرائي مسالمة او استسلاماً فهو على ضلال .. لأن الوداعة ثقة والمسالمة خضوع) .. وربما كانت الوداعة من اعمال الذهن ،. وذهن الطاهر بُني بارادة صلبة ، وذهن بلا ارادة ضعف انساني ، بدليل ما امتنع عنه فيما وقع فيه آخرون من عادات ، وقال خذ دليلي : (اني اميل الى الزهد اذا كان في « الغنى » ما يمس الكرامة .....) .. وكنت اقرأ في مقالة كتبها احد الكتاب العرب ، ان الطاهر شجاع وفي مقدمة شجعان النقد : (فهي مسألة اخرى .. اذا كانت الشجاعة بالمعنى « العنتري » حيث مضى عهدها ، اما اذا كانت في ابداء الرأي ، واعلان الصواب ، وبيان الخطأ فلي منها شيء اوصله إليّ الآخرون ، ولكنه شيء وفي ميادين محدودة هي ميادين من الدراسة والتدريس والقراءة والكتابة والتأليف والنقد .. ولم اعدم من وصفني بالجريء .. انه شيء وكان أحسن وأنفع لو كان أكثر ...) .. وأشهد انه كتب وعاش في الشجاعة !

حــركتـــــه

وفيه حركة من الذهن تتسع لتشمل حركة في الرأي ، ولا ينبغي ان نقول ، ان هذه الحركة جاءته بعد تقاعده ، أو بعد ان صار الطاهر (معروفاً ومشهوراً) او بعد ان صار له تلامذة ينهلون من مدرسته او تقاليده في صناعة المقالة التي لا يضاهيه كاتب عراقي او عربي في صناعتها الا من رحل منهم الى دنياه الاخرى كطه حسين والزيات والرافعي ، اقول ، ان ابداعه في هذه الحركـة هو من تـراكم .. تراكم في النفس ، وتـراكم في العقل ، وموهبة في هذا التـراكم ، وكلما كثـر تراكمـه ازداد ابداعه ، وكلما ازداد ابداعه صار جهده جهدا عقليا ، وكلما اتسع جهده العقلي تشبث بذاته ، تشبثاً انسانياً ، حيث يفني ذاتــه في هــذا التشبث ، وحيث لا قيمــة في كتبـه إلاّ قيمــة الانسان ... وتنوعت حركته ، في كل شيء يتصل بالانسان ، في الليل يذهب الى المسرح ، على ان تكون مسرحيته جادة فيها الماضي بقدر الحاضر .. او يذهب الى فلم ، الى هذه السينما التي تنشّط ذهن الجمهور لا ان تتركه يعاني ازمة من ازمات العصر ، وفي النهار جزّأ ساعاته بين مجلة او مهرجان للثقافة .. او جزّأ برنامجه بين صديق قديم له او قاعة محشوة بكتب الماضي ..

يتنقل بين بين ، بين النفس وبين البيئة ، في مغالبة مع العمر وقل الزمن وقل الموت ، وقد عرض عليّ من المشروعات التي تنتظر كمالها .. ما يضيق به الباقي من العمر : (وكأني آسف ان اتركها حيث هي .. ويضطر الآخرون الى ان يضيفوا فيها جهداً جديداً) .. اما سبب هذه الحركة ، فهو ان الطاهر متعدد الاختصاصات ، ولكلٍّ اهميته في نفسه ، وهو يعتقد ان هذه الاختصاصات تجري في عقله مجرى متوازنا ، فالكتابة عن القصة هي بقدر الكتابة عن الشعر ، والمهم عنده ان الابداع ينبغي ان يشمل كل اختصاص من اختصاصاته ، ثم انه لا يكرر غيره ، ولا يعيد ما قاله الآخرون ، وانه ، وهذا مهم ، لا بد من ان « يميز » العمل الذي يتصدى له بميزة خاصة لا توجد في غيره ولم تتهيأ لغيره .. ويجري ذلك بعيداً عن الغرور ، وهنا الفضيلة !

وحركة الذهن لا تتوفر إلّا في قلة وُهبوا موهبة فطرية ، وهذا ما يفسر انسحاب اكثر الادباء والكتاب من دائرة ابداعهم ، او انهم يتوقفون بعد الكبر في عمرهم ، وقلةُ هؤلاء الذين كانوا نشطين في ابداعهم في شبابهم وظلوا مبدعين في كهولتهم او شيخوختهم ، وعندما يبدأ ماضي الطاهر وكأنه يعاد

بصيغة التحول والتغير والتطور ، عندما يبدأ هو يصمم لهذا التحول والتغير والتطور ، فان هذا يسجل لنا ظاهرة مثمرة في التقاليد الادبيـة : (انت تقول اني ظاهـرة في الاجيال لاني واصلت وأعطيت وما زلت .. وهذا يسرني ، وأقوله في نفسي ، وأطمع ان أبقى كذلك لخمس سنوات مقبلة في الأقل ، او اربع تصل بصاحبها الى السبعين ... وارجو ان يعفى ابن السبعين من الحساب) ... فأي حساب يعفى منه هذا الجيل ، ولماذا يعفى من الحساب في السبعين ، أي لغز في ذلك ؟... والطاهر يرجع اسباب (توقف) بعض الادباء والمبدعـين الى عوامـل اخرى غير التي ذكرتها : (... ولعلك استوحيت السؤال من واقع قريب في العراق ـ وربما في غيره ـ إذ رأيت ادباء طلعوا الى العالم نشطين رأياً وعملاً وتأليفاً ثم توقفوا ـ او فتروا ـ بعد قليـل ، وفي حـدود الخمســين ، ويمكن ان تعـد من هـؤلاء قصاصين وشعراء ودارسين ، وقد ترجع الاسباب الى عوامل شخصية او الى ظروف عامة كاسحة أقوى منهم تدفعهم بعيداً او تشعرهم بأن الدنيا لم تعد دنياهم ، وقد ينظرون في أنفسهم فيحسنـون النظر اذ يـرونها اعـطت اقصى مـا لديهـا ، وان الاستمرار يجور عـلى الماضي ولهم في ذلك عبـرة بمن يرونهم

يبقون في الميدان تشبثا بكل سبب ولو كان سخيفا ، وغير شريف ، دون ان يكون لعطائهم أية قيمة ..) .. وكانت حركته عن وعي في جدل الحياة !

الضـــــرورة

والطاهر له فلسفة فيما يكتب ، والكتّاب يتجهون في الكتابة مذاهب ، كلٌ له مذهبه ، النابع من البيئة او الدين او الحياة ذاتها ، فهو من الحياة ، من هذا الطراز الذي نبع في جانب من الحياة ويريد ان يخلص له ، اخلاص الغصن الى جذره ، فيثمر ثمراً حلواً ، ودائماً مع الاتجاه الذي يغذّي البشرية بالبقاء والبهجة ، والطاهر يسمي « البقاء » ـ « نفعاً » ، ويسمي « البهجة » « إمتاعاً » .. فهو اذن (ينفع الناس) و (يمتع الناس) ، ينفعهم في السياق الذي ينقذ الانسان من الشرور والانانية والتردي وكل ما يسيء الى (آدميته) ، ويمتعهم بأساليب الطرافة والظرافة ، فهو حينما يتتبع عثرات الكتاب (فيما يسميه ملاحظات ، يثير ذهن القارىء ويشحنه بالمفارقات والمفاجآت ، وكأنه يدخل سر المسرح الى اسلوبه اللفظي ، الى اسلوبه في التركيب اللغوي ،

فتقع فيه الاثارة ، ويحدث الامتاع ، لان الذهن تنبه الى شيء جديد ، وقع في حافز جديد ، والنفع والامتاع يتجهان الى (خدمة حقيقة) ، فيما هو عارفها ، ويكتب فيما هو يعرف ما يكتب جيدا ، وذلك في حدود المستطاع ، وقد يكون في المستطاع ما هو اكثر من الناتج ، ولكن الظروف الخارجية هي العامل في التقليل .. ويقول : (ولا أزج نفسي فيما لا اعرف او ما أحسبني غير قادر قدرة كرامة عليه ، خوفاً من ان اقع فيما ألام عليه ، واني لشديد الخوف من اللوم ، وفي هذه الشدة من الخوف بعض الضرر الذي يحول دون استثمار الموجود فعلا الذي يمكن ان تتحقق به خدمة أزيد ومتعة أكثر للقارىء والكاتب ..) .. ويسعى ـ بقصد وغير قصد ـ الى ان يكون في خدمة اقرب الناس اليه ، وربما فضل خدمة البعيد على خدمة القريب ، وكأنه بذلك يحدد خدمة الكتابة عموما : للبشرية جمعاء ، ان تكون انسانية ، مع الخير ضد الشر واصحاب الشر : (لكن في حدود ما أقدر ، والا فالسكوت خير ، وصحيح ان السكوت غير مرغوب فيه دائما ، وانه قد يعزى الى العجز او الضعف .. صحيح ولكنه ـ على أية حال ـ خير من كلام لا يعتقد به صاحبه ، وقد يضر اكثر مما ينفع ..) أتراه ينطلق من

ان الكتابة : ضرورة ، وان الدفاع عنها ضرورة ، والتمسك بأخلاقها ضرورة ، وقد رأيناه حقاً ، حقاً فعل وحقاً قرأ له القراء ، وانتشر فيه القراء !

جمهـــــوره

وهؤلاء القراء هم كثرة في جمهور الطاهر ، تفاعل فيهم وتفاعلوا فيه ، والجمهور العراقي ليس كجمهور بلد آخر ، جمهور حساس ، يراقب الكاتب ، ودائماً يدفع به الى الامام ، وحساسيته انه لا ينافق ، فالكاتب واحد في نظره ، قلم وسيف ، والشاعر واحد في نظره ، والناقد والمسرحي ، وكل من اتجه الى عالم الرؤى معبرا ، فان سقط القلم من هؤلاء فالسيف لا وزن له ، وان تهاوى السيف فالقلم قيمة جامدة ، وان هذا الجمهور الذي تربى في الرؤى الوطنية شديد مع كتابه وشديد مع اولئك الذين يسقطون في الضحالة ، فها هو في الامس كما هو في الحاضر وجد الطاهر هو الطاهر ، وجده بعين واحدة وبأذن واحدة وبقلب واحد ، وبقي يتكاثر ، الجمهور تكاثر والطاهر تكاثر ، ولولا هذا التكاثر لما وجدت كتب الطاهر هذا

الانتشار السريع ، ولما دخلت افكاره الى القلوب والعقول في آن واحد ، ولما انشدّت اليه دور النشر في بغداد - بيروت .. تطلب منه طبعات اخرى من كتبه ، ورأيت بعيني هذه الارقام المتصاعدة في مبيعات كتبه ، في دور النشر الاهلية او في دور النشر الرسمية ، ويبرهن هذا الطاهر ، ان كتابنا ما زال وسع عين القارىء ، وان قارىء الامس هو قارىء الحاضر ، يعرف كيف ينتقي ويدرك كيف يختار ، ثم يشخص ، ويشخص كاتبه الذي فيه ، جزءاً من احلامه وجزءاً من تاريخه : (ولم اجد فيهم منافقاً واحداً ، واني لسريع في اكتشاف المجامل فضلاً عن المنافق ، واني أطلب بيان العيوب أكثر مما اطلب بيان المحاسن . المحاسن اعرفها عادة ، وعتابي شديد على من ينتبه الى عيب فيسكت عن ابلاغه .. ثم ان الجمهور في ازدياد .. ومن كريم الى كريم .. وتحية لمن يتفضل بالتحية وهو يدري اني لا اعرفه شخصياً ، اما اولئك الذين يقرأوني ويكتمون فهم من جمهوري وان لم يريدوا ، وهؤلاء ليسوا قليلين ومنهم الزميل والصديق غير محتجن الضغينة لذات الضغينة ..) .. وطالما نافق بعض

الكتّاب القارىء ، فسحبوه الى دائرتهم بثمن ، وليس غير ثمن النفاق ، بينما اختار الطاهر قراءه بنقاء ودون ثمن ، الا ثمن البذل ، بذل فيهم جهداً ، وبذل في امتاعهم ، وحقق اخيرا هذه الصلة الدقيقة في حسن السمعة : (.... فاذا رأيت مادة لا تنفعه او تمتعه اضربت عنها ، ولربما لم افكر فيها سلفا) .... هذا وجه من البذل بذله في قناعة تامة ، وقناعته انه يقدم للقارىء ما يتسق ورؤاه ، ويرسم له الصوى ، يحترم نفسيته وعاطفته وعقليته ، ويقدر قدرته على الحساب والمحاسبة ، والحط والرفع ، والطاهر لا يتملّق القارىء لانه لا يتملق باطلاً ، كما انه لا يمكن ان يحدثه كاذباً : (وأرى هذا القارىء اكثر من مدى كتاباتي ....) ومن أجل هذا القارىء ، وسّع الطاهر علمه وثقافته ، وسع اجتهاده في أن لا يدخل في « الصراعات » الهامشية ، فكان اللقاء طبيعياً !

أحداث
في ما جرى
من سيرته

(ولادتي رسميا ١٩٢٢ ، وواقعا وبعد التحري ١٩١٩ ـ الحلة ـ محلة جبران ، من أسرة متوسطة الحال عربية ، كانت أحسن قليلاً قبل واقعة عاكف ، والبيت على العموم مثقف ، يقرأ كله ، ورجاله يقرؤون ويكتبون ، والأخ الاكبر ملم بالنحو وبالتاريخ وكثير القراءة ، يليه أخ ثان اصغر منه وأكبر مني ، وثلاث أخوات كلهن أكبر مني . الوالد حاج جواد محترم في محلته وبلدته ، والوالدة كذلك . الوالد « توتنچي » على مستوى الوسط وأكثر ، يحرص على حسن السمعة ويترفع عن كثير مما فيه ربح مالي على حساب المعنى ، المدينة الحلة ، مدينة عريقة في التاريخ وللادب والشعر خاصة مكانة مرموقة فيها ، ويعتز أهلها ـ عموما ـ بحسن السلوك من كرم وعدل ، وفي البيت عدد محدود من الكتب) ..

هذا نص من سيرته ، ويجدر بنا ان نلم بهذا النص ، وان نوسع في دلالته . لما له من صلة في حياة الكاتب ، فهو مبثوث في

افكاره وفي كتبه وفي مواقفه ، والكتّاب ـ عادة ـ لا يكتبون او يتخيلون الا وتجد جذورهم الاولى تلح على رؤاهم ، والطاهر من هؤلاء ... الذين تأثروا بالوسط ، فأي وسط عاش ، وأي أب ، وأي عمر ، وأي ملمح من ملامح هذا الوسط ساهم أكثر من غيره في صياغة فلسفته في الحياة ...

العمـــــــــر

والكتّاب يتحرجون حينما يتحـدثون عن (اعمـارهم) ومقاديرها ، والشعراء والفنانون والادباء ، وكل من يريد ان يكون (نجماً) في المجتمع ، وهذه (النجومية) تمنع بعضهم عن قول الحق في حقيقة العمر ، وكان بعضهم يصغر أسنانه ، ويعطيك نسباً متفاوتة ، هي غيرها في حقيقة الميلاد الرسمي ، والطاهر يحلل هذه الظاهرة .. ويجعلها « ظاهرة عراقيـة » :

...... (.. العمر عند الانسان « عموما » يعني الحياة ، يعني التشبث بالشباب والمعنى عند الكاتب هو هو وزيادة من ربط بينه وبين المجد ، او الزيادة في المجد بالابداع الاروع والنتاج لاكثر .. والانسان « عموما » لا يريد ان يموت او ان يقتنع



الثالث من الجالسين بين طلبة السنة الرابعة لكلية الآداب

بجامعة فؤاد في مصر سنة ١٩٤٨

بأنه يموت ، او انه قريب من النهاية ، والكاتب خصوصا ، ولا سيما حين يقترب فعلا من هذه النهاية ويرى ابداعه يجري نحو الهبوط . وما قيمته اذا فقد الابداع وعليه يقوم وجوده ، ولا يبعد - بعد هذا - ان يتمسك بالخلود الروحي ، ولا تعجب ان تجد منهم من يبلغ من الايمان بالحياة الآخرة مبلغاً لا تتصوره ، ويفوق حد العامة والمؤمنين المتدينين ، اما اذا لم يهيىء له فكره هذا الايمان ، ويرى الفناء في كل شيء فهو في هلع اكثر وحرص أشد ، ومن الناس ، وكثيرا ما يقترن التشبث بالعمر بالنساء ، من يستسيغ الكذب ، ومنهم من يبلغ حد السخف ، وقد رأيت من الرجال ، ومنهم يرون انفسهم ادباء وشعراء ، من يتعدى حدود السخف بعجائب وغرائب .. ويساعد كتّابنا - ولا سيما - الذين بلغوا الشيخوخة او الكهولة أن لم يكن لنا في العهد العثماني ومطلع الحكم الوطني سجلات رسمية علمية لتواريخ الميلاد ، ومن هنا تراهم يجدون المجال رحباً في تصغير اسنانهم كلما تقدموا في العمر ، ومنهم - ومن كثير من العراقيين - من صغّر سنه رسمياً ولاكثر من مرة . واذا كان عذر (الموظف) في ذلك ابعاد (التقاعد) عنه ، فلا عذر

لغيره غير التشبث بالحياة ، وعذر الادباء مـع انفسهم اطالة البقاء في الساحة وأرى في ذلك غاية السخف ، وغايـة الجهل وغاية « الطفولة » .. وهذه الظاهرة عراقية أكثر منها عالميـة للاسباب المذكورة ، وهي على اية حال مغالطة لزيادة النصيب من متع الحياة ! ..) .. والطاهـر لم يوضـح فيما قـاله من الاختـلاف في (عمره) بـين ١٩٢٢ وبـين ١٩١٩ لأي سبب كان ..! سببه اللجنة المختارة لتقدير الأسنان في أول تسجيل للنفوس في العراق . فقد كانت تنقص او تزيد متأثرة بما عاناه العراقيون من مصائب الجندية في العهد العثماني ..

انعكاسات الطفولة

وفي احاديثه عن طفولته ، ادركت انها اعتيادية ، وربما كانت اقرب الى الانطواء والابتعاد عن المشكلات ، مع ارتياح تام في البيت .. وهنا ناقشته في (انطواء الطفولة) ، لماذا انطوى ، وهل ان هذا الانطواء في طفولته يثير فيه سخطاً في الكبر ، وقد يتحول السخط الى حالة من حالات الغموض في أدبه ، ولا سيما في نقده لآثار المبدعين ، وانا وجدت نوعا من هذا (الغموض) المقصود في كتبه النقدية ، ثم قال ان طفولتي ابتعدت عن (المشاكل) ، وقد يولّد هذا الابتعاد (في الطفولة) نفور الطاهر في المجتمع ، هل نفر من المجتمع .. فكيف يحلل هذه الظواهر النفسية ..؟

أ - حياة الانطواء : - (وانا لا اعد نفسي انطوائياً بالمعنى الذي يقصد اليه علم النفس بحيث يبدو كبتا او خوفا او شعورا بنقص) .. وانما كان يريد به الطاهر ضرباً من تجنب الفضول وشيئا من محاذرة داع للخجل قد تجر اليه المجازفة .. (هذا ما قصدت به ... وهو ذو صلة بسلوك الوالد وسلوك الاسرة .. وربما اتصل بسلوك مدينة الحلة نفسها) ، ويأتي

على تفسير آخر : (هو الحرص على الكرامة وحب السمعة الحسنة وجزء من طمع - ظاهر او غير ظاهر - بكلمة من ثناء او بمحافظة على الثناء ..) .. وتفسير هذا الفضول في « كتاباته » يجده في هذا (الحذر من المجازفة بالرأي ، والاحتياط من الوقوع في « بدع » الاسلوب) ، وكيف يتجنب هذه البدع : (انا اقول الرأي وفي كياني ما سيترتب عليه من احكام الناس - وربما احكام التاريخ - واني اريده من الآراء الباقية بقدر ما اريده حذراً) .. ويعترف الطاهر بغموض ... (وقد يحدث بين هذا وهذا شيء قد تسميه غموضا وقد تسميه حاجة الى قراءة بين السطور .. وقد يكون بعضه - ولا سيما لدى التقدم في الكتابة - مقصوداً على وجه من دعوة القارىء الى التأمل او وجه من « جمال » الأداء .. ويأتي ذلك خصوصا في المقالات الانشائية ..) .... على انني لا أجد غموضا في كتاباته النقدية ممثلة فيما جاء بكتاب « في القصص العراقي المعاصر » و « محمود أحمد السيد » و « لامية الطغرائي » ، فما أرى دليلا على غموض نفسي او غير نفسي ، وانما الوضوح أولا .. وقلت له : في كتابك « مقالات - ١٩٦٢ » وفي كتابك « وراء

الافق الادبي ـ ١٩٧٧ » يظهر الغموض واضحاً فلماذا تضمر هـذا الغموض ؟ (وقـد يكـون ذلك حقيقـة لدى ضـرب من « الاناقة » او « اللياقة » في النص على « عيب » من العيوب التي يجب ان ينبه عليها وربما جاء كـذلك لدى الاقتراب من « عقيدة » لدى الكاتب اخشى عليه من اعلانها عنه صراحة ، او اخشى على نفسي من تقديم دليـل ينتفع بـه الخصوم) .. وللدكتور الطاهر حق في هذا الغموض !

ب ـ ابتعاده عن المشكلات في الطفولة .. (وذلك جزء من سلوك او شخصية او كيان ..) ويرجعه ايضا الى تربية الاسرة ، ربما هو ابتعاد الحلة كلها .. ويمكن ان يكون جماعها الاعتزاز بالنفس والترفع عمـا يوقعهـا مواقـع اللوم والذم : (وحين يكون كذلك ـ عن غير وعي ثم عن وعي ـ لا يعني قلة في الثقة) .. وهو ذو ثقة بنفسه لا توصف ، لكنها الثقة التي لا تبلغ بـه حدود الغـرور والتهور والمفـاخرة .. (والادعـاء في « الحلة » ـ وربمـا في كل مكـان ـ من أمقت مـا يـرمى بـه انسان) ، وما يريد ان يؤكده الطاهر ، انه ليس الابتعاد عن مشكلات الحياة ، انطواء نفسياً ، وانما هو الخجل ، والخجل

اتصال مباشر بالثقة بالنفس ، وبترفعها عن التوافه ، ومكاسب رخيصة او بدائية او حرام ، ومنذ طفولته كان الطاهر خجولا (ويفسره بعض الادباء بـأنه الانـطواء ذاته) بـدءاً بالبيت والاقارب وابناء المحلة ، وانتهاءً بدار المعلمين العالية .. واتحاد الادبـاء .. والنشر في المـجـلات والجـرائـد .. والاذاعـة والتلفزيون ، اذن هو « ابتعاد » وليس « انطواء » ، وانه فوق ذلك كثيراً ما ترك النفس : (تتصرف وكأنها تتصرف انعكاسياً طوعياً ، وانها لكذلك ، ثمرة لتفكير وسلوك صار عادة ونتيجة لخبرة سابقة أدت الى ما يرضي ..) .. انه يريد ان يبتعد عن مواطن اللوم ، وان يلومه غيره على حق او ان يلوم نفسه ، ولا بد من ان يكون له العذر المقبول عند غيره وعنـد التاريـخ : (ويصعب عليّ كثيراً ان اندم على فعل او قول ..) ويسره كثيرا كما هو معروف عن الطاهر ـ ان يكون له عذر تاريخي حتى اذا ضره موقتا ، ويقول تـطبيقاً في ذلك : (وكم اعلنت ـ بـوجه وآخر ـ عن ضرر لحقني هنا بسبب من موقف ورأي ، ولحقني هناك بسبب من مقالة او قول) .. وكان يعلن ان ذلك حق ، وهو مكسب وليس ضررا ، ومن حسبه عقوبة بمعنى العقوبة فهو

على خطأ او ضلال يتراوح بين الجهل وحسن النية ..

* * *

وهو عندما ابتعد عن مشكلات من الحياة (في طفولته او في شبابه) انما كان يبتعد عن المغالبـة الرخيصة والمنـافسة الباطلة والمفاخر الزائفة وذكر الاسرة لمناسبة وغير مناسبة ، وكأن هذا العالم غير كامن فيه .. (فلقد تركتها طائعا ، واني لأعرف الطريق اليها ، ولكني لا اريد الوصول الى مثلها ، وقليل لديَّ خير من كثيرها ...) وهذا ليس زهـداً مطلقـاً ، وليست قناعة غيبية ، وانما اختيار وثقة وفرح بالنتائج ، حتى ما لم يتحقق منها ..... (ففي المراحل السابقة كلها لي اصدقاء ، ولي مجابهات ولكن في قضايا تستحق المجابهة وضمن مجتمع ضيق جداً ، وربما عرفت ـ خلال ذلك ـ بالهزل والضحك والسخرية الى جوار العقل ..) .. وهذه هي ثقة الكاتب بنفسه ، ولولا هذه الثقة لمَا كانت له رسالة ، لما أوصل « رسـالته الادبيـة » الى الآخرين ، والطاهر الكاتب والطاهر الانسان وصل الى المـدن والقرى بدون اعلان ، دون ان تعلن عنه منظمة ثقافية ، انما كـانت كلماتـه اعلانـاً كبيراً عن الحـرية التي صنعهـا كاتب

بنفسه ، بجهد الوجدان الشعبي ، صنعها بلا قيد او تكلف ، فما أغنى الحرية في عقله ووجدانه ، وما أغنى الحياة في لسانه وكتبه !

* * *

وعلماء الجمال فهموا « الموهبة » على انها نتيجة حتمية لطبيعة الانسان ، وان لها مقدرة علـى فهم الواقع واستكنـاه حقائقه ، فهل قدمت لنا موهبة الطاهر واقعاً ؟.. نعم ، قدمته ، واقعاً يتهدم ، وواقعاً يضيء ، وكانت مقالاته تهدم وتضيء ، إذن صدق دوبر ليوبوف عندما قال : ان الاحساس الفوري للمبدع يرشده دائماً وبصدق الى الأشياء . وصدق الطاهر !

الفصل الثاني

نسبه
العميق
في
مدن التاريخ ...!



هويته في جامعة السوربون

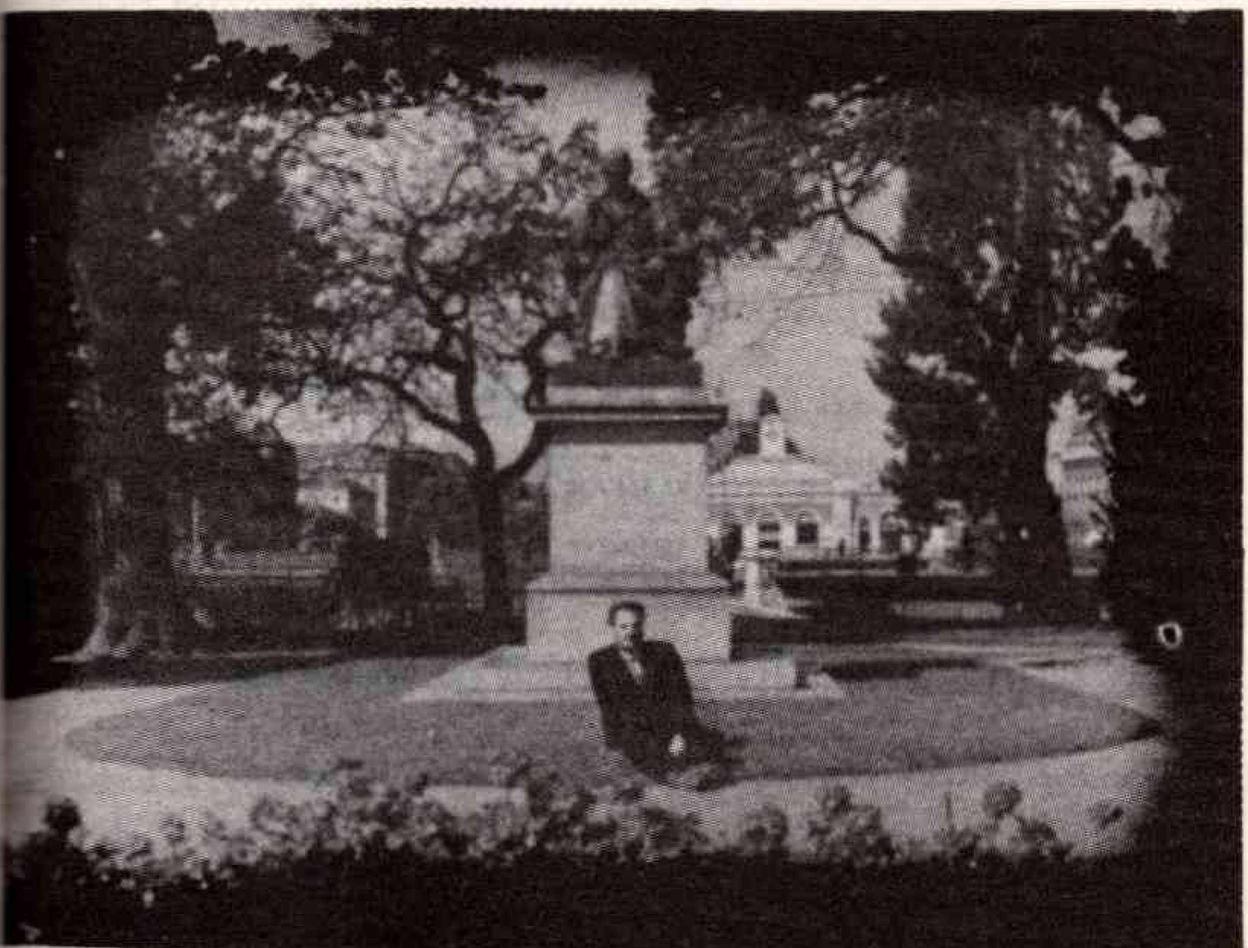
الذاكـــــرة

وأهم فضيلة في الكتّـاب : الذاكرة ، تمنحهم مـاضيـا وتذكرهم بماضٍ ، والكتّاب تـاريخهم الماضي ، ينشئـون فيه أخيلتهم ، ومنهـا يستمـدون غـزارتهم ، ومنهـا يعـظمـون عصرهم ، وذاكرة بلا تاريخ ، تجعل الكاتب بلا جدل ، تجعله يمتص ماضيه بعيدا عن عصره ، والطاهر ذاكرة تقوم في ذاكرة الماضي وفي ذاكرة عصوره ، وهذه السنون التي انصرمت من عمـره ، وهي كثيرة ، لم تضعف فيـه هذه الذاكـرة ، وانما تؤججها ، وكلما يمضي زمن فيها ، تتسع صورها وأخيلتها ، وهي قدرة عجيبة على استلهام وعـلى تذكـر ، وعلى محـاكمة الاشياء ، وزادها صورا ، ان الطاهر نفسه اديب ذو اعصاب مرهفة ، وذو احاسيس مبنية عـلى الوجدان الخـالص ، وذو تجربة في الوجدان الشعبي ، وقوة التخيل فيه جعلته يتجه الى الفنون كلها ، يكتب في الفهرست وطوّر الفهرست ، ويكتب في النقد فانشأ فيه مقاييسه الخاصة ، ويكتب في القصة فوضع للقصاصين حـالات جديـدة يطورون فيهـا ادواتهم وعقدهم وحبكاتهم ، اقول ، ان هذه الذاكرة التي تمتص المـاضي ولا

تتعبـه ولا تلغيه ، هي التي غـرست فيه (المـوسوعيـة) في العلوم ، فتخطى فيها الاختصاص الواحد ، الى الاختصاصات التي واءمت امزجته ، الى الاختصاصات التي ذهب فيها مذهباً روحياً ونفسياً ، وغريزياً ، ولقد دفعته هذه الذاكرة الى ان يلم بنفسه ، وبعقله ويحافظ على مبدأ محاسبة الذات ، فما عمله في ماضي ايامه من خير لا بد ان يبقى ، وما كتبه في ماضي كتاباته لا بد ان يبقى هو هو ، لا يتنازل عنه ولا يتنصل ، لا بد ان يبقى ماضيه ناصعا ، كان في الماضي يكتب ويثبت فيه ، لأنه كان يفكر ويكتب ، يكتب ثم يفكر ، لأن هذه الذاكرة رقيبه في الاختيار ، وهو شديد على نفسـه كما هـو شديـد على مـاضي الكتابـات وحاضرها ، وندرك ، الآن ، لمـاذا كثر قـراؤه ، وندرك لمـاذا اصبـح الطاهر مقـروءاً ، ولمـاذا يقـرأ له المـذيـع والمـدرس والميكانيكي وبائع الكتب وناشر الكتب ، والادباء بمدارسهم ، ويقرأون له بمتعة ، يؤنسهم بماضيهم ، فيؤثرون ماضيه ، ويشدهم الى العلى ، فيبجلون فيه قلم العلى ، كان ذاكرة ولم يزل ذاكرة ، فلا خانته ولم تخنه ، أنعرف : ان الذاكرة زهد وكبرياء وثبات في الرأي ؟!

المدينـــة

وقد عاشت مدينته في ذاكرته ، حية ، دفاقة ، استوحى ويستوحي من فولكلورها الطفولي ، مادته في الحيـاة ، ومزج فيهـا احلامـه في الطفولة ومـا زال ، او مزجت هـذه المدينـة (الحلة) في قلبه الشعر بنسب الارض ، وبقي لها وفيا ، كان وإياها يمزجان تاريخاً واحداً ، لا يتكلمان إلّا بلغـة واحدة : (البطولة) فالحلة بطلة .. بريفها ، بأنسابها ، بحلوها ومرها في معركة التـاريخ ، وريفهـا شهد ثـورة العشرين في واقعـة (الرارنجيـة) وشهد أصـالة البنادق وهي تـطارد لصوص البحار : الانكليز ، الذين ما زال رمادهم الاسود يتطاير في بقايا الاكواخ والسدود وقناطر العشائـر ، والحلة انتجت (مهدي البصير) الذي سكب شعره ودمعه للملايين الظامئة ، وانتجت صفي الدين الحلي ، وانتجت مئات الاقلام في مئات العقول في مئات المشاعل ، وقدرها كان هذا الخلق .. ومدينة كانت ترسل هذا الهتاف التاريخي ، فماذا تنتج من ابناء ، ولا سيما اذا كان الابناء ولدوا في جملة مواهب واحاسيس ، هو الطاهر الذي أسفر صبحه عن جملة احاسيس ، فذاب في تاريخ المـدينة ،



١٩٤٩ - جنيف ، عند تمثال جان جاك روسو

فخلص لها وخلصت له ، وأحبها بعمق !

* * *

(اجل واني لمحب للحلة) ..!

هذه عبارته ، وهو لم يقلها لما هو شائع ومعروف من حب الانسان لمكانه ، وانما أرجع تعلقه بالحلة الى : (شمائل ووداعة في أهلها وجمال وحسن في طبيعتها ولعلم وادب وشعر وتاريخ في تاريخها) .. وسمة اخرى في هذا التعلق : هي : (الاعتدال) .. وماذا يقصد الطاهر بالاعتدال ؟:

الاعتدال في امورها ..... ويشرح : (واذا لم يكن الاعتدال مطلوباً دائماً ، ممدوحاً دائماً فاعتدال ممدوح لانه يميل مع الحق .. واذا اتضح الحق مالت معه وبه نحو الثورة .... لو لم تكن الحلة بلدتي لأحببتها بهذا القدر لهذا الشأن) .. واذا قال الطاهر هذا القول ، وهو ابنها ، فلقد قاله كثيرون ممن اقاموا فيها قادمين من مدن اخرى ، وقاله رحالة ومؤرخون ، ويقول الطاهر : (... انها مدينة حضارية .. والحضارة منها في سلوك من رأيت من ابنائها بدءاً ببائع الشلغم والرمان .. ولم أرَ منهم اعرف بالحق وأميل للعدل ..

وأخوف من الحرام .. ويبقى الشاذ شاذاً في كل قاعدة) ... وهذه المزايا في مدينته ذكرتها كتب التاريخ ، وجاء في « خريدة القصر » : (ملوك العرب وامراؤها بنو مزيد الاسديون بالحلة السيفية على الفرات .. كانوا ملجأ اللاجئين وثمال الراجين وموئل المعتفين وكنف المستضعفين ، تشد اليهم رحال الامال وتنفق لديهم فضائل الرجال ويفوح في أرجائهم أرج الرجاء وتطيب بنداهم اندية الفضلاء ...) وأبعد من هذا ، ان تاريخ مدينته يصب في بابل وأكد ، وينفعل الطاهر في هذا الامتداد الحضاري انفعالاً جوهرياً : (انا من موئل الجذور) فكيف لا يعطي ثمرة لهذه الجذور ، فيرد لها الوفاء ، كانت كتبه هذا الوفاء ، وصدق الانبياء حينما قالوا ان الابن الوفي لمدينته ينبغي ان يبذل الدم واللسان والقلب ، فوفى باللسان والقلب ، ودمه .. هذا النزيف الذي يتوهج في (كتاباته) و (نفثاته) و (طاقاته) في استدلال الأشياء ، كما كان مؤسس الحلة (صدقة بن دبيس الأسدي) العربي الشهم الشجاع ، يعطي الارض ذاتاً ونخوة ومودة ، وقد أعطاها صدقة كل شيء منذ انتقل اليها من حلته في نواحي بابل وحلل آبائه سنة ٤٩٥ هـ .. وحيث يحل الامير .. فهي

حلته ، وذهب صدقة الاسدي الى الجنة ، وبقي الطاهر يغذي روحه وعوالمه حتى يدخل جنة ضميره ، بل تبقى الحلة محجة الهدى والحجا ، لأنها من نفح صـدقة بن دبيس المـزيدي : (.... ويستحيل على انسان طاهر ان يقرأ سيرته ولا يحبه ، ولو حقق طموحه في التغلب على السلطان السلجوقي لكان للعرب فيه شأن اي شأن ، ولكنها : لو ، فقط !) ، ويستمر تاريخها من مجد الى مجد ، وصدق صفي الدين ابنها عندما قال :

مـن لم تـر الحِـلة الفـيحـاء مـقـلتـه

فـانـه بـانـقـضـاء الدهـر مـغـبـون

مدن كبيرة ومدن

واقرأ في روايات الكتّاب العالميين ، وفي مسرحيـاتهم ، فـأجد ان كتّـابا يفتخـرون بمدنهم ، لانهـا المدن التـاريخية الكبيرة ، وأجد بعضهم يتوارون خجلاً ، لأنهم من مدن ضئيلة لا شـأن لها في الخـرط التاريخيـة ، فيتركـونها بـلا ذكر او وصف ... أو « محبة » .. وأدخلت الطاهر في هـذه الظاهرة حتى قال :

(وربما شعر ابناء المدن الضئيلة بنقص ...

وبدا على ابناء المدن الكبيرة غرور ..) !

وكيف يطبق هذه الظاهرة على مدينته (الحلة) ؟

: ... ان الحلة تغني ابناءها عن الشعور بالنقص وعن الغرور .. ومن هنا تسير حياتهم طبيعية دون شرخ او شق ، هكذا رأيت في الأقل .. لقد انتقلت الى بغداد ومن بغداد الى القاهرة الى باريس .. فما شعرت بأني دون ما رأيت ، وما أحسست بتغير كبير « أو صغير » كأن الحلة الفيحاء تعدّك لهذا نفسياً ومعنوياً ، ولا عبرة بعد ذلك بالشوارع العريضة المبلطة المشجرة المزدهرة ، وبالعمارات الانيقة الشاهقة !..)

وأسهب في مواهب المدن ، وأسهب في مواهب الحلة ، ولكأنما الحلة خلقت لتكون مدينة أدب وشعر ، وانك لتستنشق الشعر في كل مكان وقرب اي ساكن قل أو كثر ، افتقر واغتنى ، وليس هذا بالقليل في حياة الكاتب .. او بعثه على ان يكون كاتباً ،...: (واذا صار كاتباً رضي عما صار اليه .. وحاول الاحسن والاحسن .. وان البلدة لرقيب عليه كذلك ، رقابة التاريخ والاخلاق والسمعة ..) ، اي ان الطاهر اراد ان يكون ارتباط الاديب بمدينته ارتباطاً اخلاقياً وليس ادبياً حسب !

الـوالـــدان

واذا كانت المدينة لها حصة في بنية الكاتب ، وترى هذه الحصة واضحة في اعماله ، بشكل مباشر او غير مباشر ، بشكل جغـرافي او نفسي او روحـي ، فـان للأب ، وان للأم ، وان للأخـوة .. حصة اخـرى في بواطن الكـاتب ، وتظهـر بنسب متفاوتة ، لا يستطيع ان يكشفها ، الا من وُهب حاسة التحليل النفسي ، والقراء المدمنون على القراءة ، هم وحدهم ، القادرون على معرفة الباطن الحلمي للكاتب ، فهل كان التركيب الهرمي لأسرة الطاهر ، مؤثراً فيه ، وفي اي رمز من كتاباته :

: كلهم .... وكلاً بشكل خاص !

اولا ، لنتعرف الى تأثيرات الأب :

: (الأب .. بوقاره وتـرفعه عن الصغـائر وبعـده عن الفضول ، وصمته الناطق ، وشدته التي لا تعتمد على الضرب والسباب ، ولينه الذي لا يبدو عليه .. لا يغلبه حبه لأولاده على وقاره) ، وقلت للطاهر .. ألم يـظهر الضعف عـلى أبيك ..؟ قال : في موقفين ..

١ ـ يوم بكى وهو يودعني الى مصر (للدراسة) .

٢ ـ يوم فرح بعودتي من باريس (بعد تخرجه) وربما كان

لتقدمه في السن عامل في ذلك .... ثم أبوه : (يحترم نفسه واحترام الناس إياه) ويعدد هذه الفضائل النفسية في أبيه حيث تأثر بها الطاهر ..: (لا يكذب ولا يغش ولا يتاجر بدينه ، وما سمعته يوماً يحلف على شيء ، ولا يخالف عمله قوله ، ويثيره التناقض ويدهشه مع موقف صريح من جانب حق من الطرفين ، لا يسعى الى الجاه الرخيص الذي يلابسه الباطل .. عُرضت عليه « المختارية » فرفضها ..) !

اما امه فيؤثر حكمتها ، تعلم من حكمتها : (... وانها لكلمة تلخص عالماً واسعاً معترفاً به مع الحق ، مع الضعيف .. مع العدالة .. وهي في البيت مثل أعلى لدى البنين والبنات ولدى الكنائن « الحموات » كما هي في المحلة .. تحترم وتُحترم .. وتحل من المشكلات ما يستعصي على الرجال ..) ويندفع الطاهر بالوجدان اذ يصف أمه : (ذات عطف كبير .. وانه ليشمل ويشمل حتى الحيوان احياناً ..) وقد شهد علاقة الوالدين : (.. وكانا مثلا على الاحترام المتبادل وقيام كل بواجبه دون تدخل او تأفف .. وعاشا العمر الطويل دون كلمة من خلاف او نأمة من ضيق) ..

واخوانه ، ولا سيما الاكبر : (كان مثقفا مولعا بالتاريخ ،

وهـو العنصر المباشر في دخـولي المدرسـة بتعـاون مـع المعلم عبدالحسين أفندي « عبدالحسين الشيخ محمد » اخو الشيخ الدكتور محمد مهدي البصير ، وكان يسهّل لي الاطلاع على كتب قديمة وحديثة وجرائد ومجلات .. وللثاني وهو أكبر مني وله اهتمام متزايد بالقراءة والادب والادباء ، ولكني كنت قد تقدمت كثيـرا .. وثلاث اخـوات أكبر مني ، اصغـرهن أقـرب إليّ ، وتعلمت الكتـابة معي وتقـدمت في القراءة ، وكم قـرأت معي الدروس ، واستمعت الى روايات جرجي زيـدان ، وهي تبكي للمصاب الذي يلحق البطلة !....) .



في انسي حيث التقى جان جاك روسو بمدام فاران

نسب التأثير

تعلم من هذه الفضائل وقال هذة الفضائل ، لكن ما نسب تأثيرها فيه كاتبا ، وبعملية ايحائية طبّق هذه النسبة :

: (الحرص على ألّا أسيء الى سمعة أب او أم او أخ او أخت) !

وانعكاس هذا .. معنى هذا ..

: (التريث في المسيرة الادبية .. والتأمل في الكتابة) !

ولا بأس في ان يسعى الطاهر فيما يدخل السرور الى نفوسهم بما يسمعون او يقرؤون ، او هو القائل : (ونلتقي كلنا ـ بعد ذلك ـ في الاعتدال .. والبعد عن الفخر الزائف او الزائل ، دون جور على الثقة الهادئة بالنفس ...) !.. لكنه يكرر المقولة الاولى : (.. ويكاد الجوهر مما قلته يكون قاسما مشتركاً في الحلة .. او هكذا يبدو لي خلال مسيرتي وتجربتي ..) !

* * *

وطالما ثقّف الادباء ابناءهم على سيرتهم ، ولو قرأنا اعترافات الاولين لوجدنا هذا السعي في حمل الابناء على ان ينهجوا نهج

آبائهم في تذكـرة الادب والعلم والقراءة ، وكنت كلمـا اراجع مكتبة الطاهر في بيته أرى شمائل الأب في ابنائه ، وسألتـه ، مرة ، عن شأن ابنائه ومدى تأثرهم به ، قال : (ولا احسب ان يكون فيهم اديب ولكنهم مثقفون .. ولا استبعـد في ان يكون الاكبر كاتباً في مواد علمية ، وقد يبسّط تلك المادة للقراء يوما ، وكان يمكن ان يكون اديباً كاتباً لو سار الى ذلك في دراسته ، ولكنه لم يسر بحكم الجو السائد بين الشباب ، وبحكم مفهوم اجتماعي غير سليم للكتابة والكتاب لدى النظر في وسائل العيش ووسائل الغنى ..) .. وابنـاؤه ثلاثـة : رائد ولبيـد وأربد ، تخرج الاكبر في كلية الهندسة ، وتخرج الثاني في كلية الهندسة وهـو يدرس في قسم المـاجستير والثـالث في طريقه الى إنهـاء دراسته الثانـوية ، ويقـول الطاهر عن ابنـائه : (أحسب في سلوكهم لدى البعد عن الغرور والفخر الرخيص ، ولدى الثقة بالنفس في الحدود المطلوبة .. تأثيراً غير مباشر بنـا .. اقصد بأمهم وبي) ـ تزوج الطاهر ١٩٥٧ . الزوجة (فائقة حميد حسين) خريجة كلية الآداب (قسم اللغة العربية) عملت في التدريس الثانوي .

اليمين واليسار

والنباهة كانت فيه منذ تعلم التاريخ في مدينته ، وان هذا التاريخ كـان ينتشر امامـه ، في البيت او المدرسـة او مدارج الخرائب في بابل القديمة ، وبانتشاره ، انتشر ميله الى الوطن ، رأى في البداية ان الوطن تظاهرة في شارع او طلقة على قافلة انكليزية او شعر يلقى على منبر الشيخ البصير او الشيخ رؤوف الجبوري ، ثم رأى الوطن اخيرا ، مجموعة من الحسيات او مجموعة من الثوار يبنون مجتمعا تنعدم فيه الفوارق ، وقد شب الطاهر في محلة فيها مهنيون كثرة ، وفيها خطباء وساسـة ، بعضهم يوسوس في آذانهم الشيطان ، وبعض آثروا الشعب على المال الحرام ، وتمر محلته في عهود وعهود ، ويتطور فيها مفهوم الوطن ، تتطور المنظورات والكلمات والنظريات !

* * *

وأين الطاهر في هذه الرياح، اين هو في صراع الثلاثينـات، وكـان في بحر الثـلاثينات يكتب عمـوداً في نشـرة مـدرسيـة ويـلقـي خـطبـة في تـجـمـع طلابـي .. ويـهـتـف اذ يهتـف .. كـان شـارعـه ، وكـانت مـدينتـه ، كـلهـا ، تهتف بلسـان واحد : نعم للوطن .. لا للانكليـز ، فابتـدأت تتجمع في ذهنه صور وروايات ، وأخذ يروي لي مشاهده في هذه

الصور والروايات ، حتى قلت له : مدينتك أثرت فيك ادبياً ، لكنني لم اعرف كم هو تأثير الطبقة فيك ، وهل للحالة الطبقية للأب أو الأسرة ، صلة بأفكار الكاتب ، وبمعنى .. هل صحيح ما ذهب اليه كتّاب عالميون : من أن مدينة فقيرة تنتج كاتباً متطرفاً .. أو يسارياً ، وان مدينة مترفة تنتج كاتباً برجوازياً .. او يمينياً ، فأين هي (الحلة) من تيـارات اليمين واليسـار آنـذاك ، يـوم التهبت افكـارك ، وغذيت وغنيت ..؟.. ايـن انت ..؟.

● : لا شك في صلة الحالة الطبقية للأب والاسرة بـأفكار الكاتب ، ولا سيما في مجتمع مستقر ، ـ أو ساكن ، إن شئت ، اذا قصرنا الجواب على حال معينة من احوالنا ـ والا فالصلة قائمة كذلك على وجه آخر ـ في المجتمـع القلق او التقدمي او الثائر ـ.. فالولد ينشأ ويتخلق ـ عادة ـ بما يرى ويسمع من اشياء كثيرة في مقدمتها الدين والاخلاق والعادات والتقاليد ، وتكـاد الطبقـات الثـلاث (في الحلة ـ محلة جبـران ـ عكـد المفتي) تتقارب او تتساوى في التدين والحرص على السمعة الطيبة والبعد عن مهاوي الفساد والكذب والاعتداء ..

وكنت اعتقد ، ان الطاهر عندما يروى الحالة الطبقيـة

المتطورة في المدينة ، لكأنما يروي افكاره ومعتقداته ، واعتقدت بصحة ما يُروي من افكاره ، لكنه يعبر عن ذلك باسلوب الراوية التاريخي ، لا باسلوب المتكلم بالرأي المباشر ، ولنظل معه في هذه الروايـة : (في محلتنـا غني « هـو الحـاج مصـطفى الشهربلي » ولا اكثر منه كرما ورعاية للفقراء وخدمة للمناسبات الاجتماعية ، وانه ليلقى الاحترام على مستوى عال من الناس كلهم ،.. وفي محلتنـا فقراء لا يشكـون الفقر ، وقـد يتلقون مساعدة من هنا وهناك من جيرانهم الا انهم يفضلون الاعتماد على العمل والجهـد .. ويشتغل الاولاد صنـاعا عنـد الحلاق (المزيّن) والنجار ليكون فيما بعد تدريجاً حلاقاً او نجاراً .. ويغلب ان يتبع الولد ما كان عليه أبوه .. وفي محلتنا من يبلغ بالاريحية أقصاها ويضرب المثل في ذلك بخزعل الشـريفي .. لكن هل في ذلك يمين او يسار ، ينفي الطاهر هذا الأمر .. (اذ لا يمـين ولا يسار في البـداية) فـالناس سـواء في البعد عن السياسة ، وذلك استمرارا للعهد العثمـاني : (وربما بقيـة لذكرى أليمة ذهب ضحيتها عيون البلدة شنقا ، ومنهم من كان من وجـوه المحلة ، ويقص علينـا الوالد كيف خـدع القـائـد

العثماني الذي جاء لضرب الحلة ، وجوه البلدة اذ دعـاهم ، وهو واحد ممن حضر ، الى خارج البلدة بحجة من الحجج ثم طوقهم .. الخ ..) .. وهذا البعد عن السيـاسة الذي طبـع المدينة في تلك المرحلة ، كان يقابله البعد عن كـل خروج عن الدين والاخلاق والتقاليـد ، ثم انتقلت المرحلة الى مـا يصفه الطاهر بأثقال الانكليز .. او التحفز الى الثورة عليهم وعمـل الشيخ البصير وصحبه على التـوعية ، وأسمى هـذه المرحلة (وطنية بالمعنى الحديث ، مقترنة بالقـومية ..) داعيـة الى الاستقلال الوطني والوحدة العربية .

* * *

ويزداد هذا الشعور على مر الزمن .. تغذيه المدارس ، ويغذيه المعلمون الوطنيون ، ويدخل الطاهر في هذا الانصـهار ، فصـار اتجاهـه (وطنياً استقـلالياً) ، وفي بيتـه لم يسمـع اعتراضاً على « فيصل » او عـلى احياء ذكـرى التاسـع من شعبان يوم ثورة الشريف الحسين بن علي على العثمانيين ، لكنه كان يسمع الشكوى من الانكليز ، وتمثل في هذه الشكـوى ،

وانصبت شكواه على نوري السعيد .. اذن لا يمين ولا يسار وانمـا هي الوطنية ضمن الاحسـاس العربي العـام ، ويقول الطاهر : (ويدّعي هذه الوطنية الجميع ، ويتميز بها على وجه الصراحة قلة من الكهول .. وينساب نحـو ذلك الكثيرون من ابناء الطبقة المتـوسطة .. وشـرعوا يتقـدمون الى الدراسـة الثانوية ويذهب معهم من يذهب الى بغداد ليدرس الحقوق او الطب او التعليم وربمـا ذهب عدد من ابنـاء البلدة بعثة الى الخارج ، وكان اسم البصير مما يذكر يليه اسم يوسف عبود وربما ذكر طه الباقر ..!)

* * *

وينفعل الطاهر بأحداث مهمة في بلدته ، مواكب في ثورة العشرين ، مواكب في مجالس الشيوخ والرجـال .. ومجالس للشبيبـة الناهضـة ، ثم قامت قيـامة البلدة تستقبـل شيخاً عشائرياً ثائراً شهيراً في الديوانية هو الحاج عبدالواحد الحاج سكر قادماً من النجف يسعى في قضية ليست صغيرة ، لم يدرك كنهها الطاهر ولكنها فهمت على انها وطنية ضـد ظلم توقعـه الحكـومة عـلى ابنائهـا .. ويقـول الطاهـر : (وبلغ الشيـخ

عبدالواحد الحلة ترافقه « الهوسات » الوطنية ، واستضيف في بيت كبير ـ لا اتذكر صاحبه ـ ولكني اتذكر جيدا صورة لشيخ معمم يتحدث في حضرة الشيخ عبدالواحد وصوته غير جهير .. في معان وطنية جدا وفي الحقوق المغتصبة ، وعلمت انه الشيخ عبدالكريم الماشطة ..)

ومن هو الماشطة ؟.. وتروي وثائق العشرينات ، ان اسم الشيخ الماشطة يقترن في بلدة الحلة بالتحرر الفكري ، ودرس الفقه في النجف ، وتروى في تحرره الحكايات منها مناقشاته الحادة مع شيوخه العلماء في النجف لدرجة انهم ضاقوا به وقيل طردوه وقيل كفّروه ، ويقول الطاهر : (ولكن مكانته ـ مع مكانة اسرته ـ محترمة في الحلة ولم يبد تأثير لما عاناه في النجف في موقف الحلة منه ..) ويزيد في « الماشطة » : (انه كان يجتمع الى عدد من الكهول المتحررين ويقترن تحررهم ـ في اسماعنا ـ بالعمل الوطني والسعي الى النهضة ورعاية التعليم الحديث والعمل على نشره ....) .

وتطل الثلاثينات على ابواب الحلة ، ويتقدم التيار الوطني .. ولا من يمين او يسار في البلدة ، ويدرك الشاب

الطاهر هذه التفاعلات : (ادركتها .. لا يمين ولا يسار ، وانما وطني وغير وطني ..) والوطني في عرفه .. عربي عـلى سبيل تحصيل الحاصـل ، وغير العـربي عربي في دمـه ولكنه وراء اطماعه في الحكم وعن سبيل الانكليز والاحتفـاظ بمصالحـه الخاصة في املاكه الواسعة ، الآخذة في الاتساع .

ثم يروي الطاهر مشهدا في (الوطنية العامة) :

: وكانت الحلة تستقبل فيصلاً ثم غازيـا على انهمـا في مصلحة الوطن والامة .. وأحبت غازيا ـ شأنها في ذلك شأن الوطنيين كلهم ـ حباً خاصاً لما دل عليه من شجاعة ولمواقف له مع الانكليز .. وحزنت الحلة لموت فيصل وان كانت فهمت شأن غيره انه لم يكن موتاً وانما هو قتل و « أمر دبر بليل » وحزنت كذلك وعلى وجه أشد لموت غازي ـ وهي العارفة ـ غير القادرة على أكثر من المعرفة ـ بكذبة الارتطام بعمود الكهرباء .. اقول حزنت الحلة .. والوطنيون أولا .. والشباب .. وكان معلم قد طلب مني لدى استقبـال جـرى لغـازي ان اهتف : « يعيش امبراطور الأمة العربية » فهتفت كما هو طبيعي جدا : يا .. يعيش ..!

* * *

وتمضي به الثلاثينات واذا به يشاهد ياسين الهاشمي يستقبل في الحلة بفتور ، وكان يلقب ببسمارك العرب ، ورآه يلبس السدارة الچبن اعلاناً عن وطنيته ، ويشاهد صور جعفر ابي التمن ترفعها « الدكاكين » بتقدير خاص ، اسماء والقاب ورموز ، شاهدها .. عرف بعضها ولم يعرف بعضها ، لكنه ادرك الحس الوطني في هذه الرموز التي جعلت السيادة للوطنية في الحلة .. (واذا كان في هذه الرموز او تأييدها يسار ، فمعنى ذلك ان اليسار كائن في الحلة ، وانه يحرك ويستثير ويوجه .. وان جل دعاته ومتلقيه من الطبقة المتوسطة ...) .. ويقول الطاهر .. ضعني في هذا الاتجاه ، انا ورفاقي من الطلبة من حيث لا ندري ، وسيسير به نحو الأكثر والاوعى .. ويريد ان يفصح أكثر ، انه لم يكن هناك يمين او يسار في هذا الاتجاه الذي سارت فيه الحلة ابان الثلاثينات .. وانما كان وطني وغير وطني ، وغير الوطني في عرف تلك المرحلة ، من كان مع الحكومة ويرى المصلحة مع الانكليز ، والوطني مطالب بالحقوق والاستقلال والتقدم : (فاذا سميت هذا يسارا ، فهو يسار ، ولم يكن في الساحة من الاتجاهات المعارضة غيره .. وهو متجه ـ ولا شك ـ نحو اليسار الحقيقي ..) .. وهذا التطور

السياسي او الطبقي الذي يسرده الطاهر عن طريق الحدث او الرواية او المشاهدة ، كان يتفاعل فيه ، ويحوله الى صور ورؤى ، والى نماذج يتمثلها في كتاباته ، وانه لم ير أباً او أخاً كبيراً في أسرته يمنعه عن التوجه في هذا الاتجاه منذ طفولته ، لكنه اراه يصر على ان فعل القراءة فيه أقوى من فعل الطبقة والاسرة ، ويزداد قوة اذا انسجم ..!

معالم الشخصية

وشخصية الطاهر متميزة في تاريخنا المعاصر ، فهو يجمع بين خبرة الحياة وخبرة الادب ، بين خبرة النفس اذ يطل عليها رقيقاً ورقيباً وبين خبرة المحيط اذ يطل عليه حكيماً ، لبيباً ، عارفاً ، مستمعاً ، صامتاً ، متابعاً ، شاهداً بلا زور ، وبهذه الخبرة نفذ الى الكل .. ناقداً ، مذكّراً ، جامعاً ، متوحداً ، لا يلبس الأقنعة ، وقد عرفه الجمهور هكذا ، وعرفه الادباء هكذا ، ثم نعرفه هكذا في جماع حياته الثقافية على أقل تقدير .. وعندما استمع الى وصفي إياه بهذه الفضائل ، انحنى زاهداً ، وعرفت انه لا يحب المدح ولا يستكره على مدح ، فهو من هؤلاء

الذين تحدث عنهم ياقوت الحموي في معجم ادبائه .. الذين لا يركعون الى الدنيا ولا يشذون في قدر نفوسهم !

* * *

ومرة ، جئت الى بيته في الليل ، وكان يقرأ كتاباً من كتب المذكرات ، وتناقشنا فيه ، واذكر انني سألته عن اخطاء وردت فيه ، وتحول السؤال من الخاص الى العام ، وقلت : لماذا يقل الاعتراف بالاخطاء عند الكتّاب في مجتمعنا العربي ، ثم لماذا يبالغ الكتّاب - عادة - بأهمية ادوارهم ، قال : .. (الأمر طبيعي .. ولا سيما في البلاد المتخلفة .. وقد يأتي يوم يبدو فيه الأمر غير طبيعي ، قد ... ولن يكون ذلك قريباً ، اذا كان .....) !!

وتحدثت معه عن اخطائه .. كاتبا ، فلم يجبني ، لكنه مال الى الصمت الحذر ، ولكأنه أراد ان ينتدبني ، في هذا الصمت ، الى قول الحقيقة ، فقلت : انت بشر !... لكنني ملت اليه بسؤال آخر عن شهرته ، هل هو مطمئن الى شهرته في الجمهور .. وبلا تواضع بدأ يقص حاله في الشهرة :.. (لا يوجد انسان لا يحب الشهرة ، الشهرة بالقوة مرة ،

وبحسن الخلق مرة وبالعلم .. والادب .. والفن .. والابداع ..
وكأن الشهرة إطالة في العمر وزيادة في الوجود ، وكسب على المقدر .. وأشك في ان كاتباً يكتب ولا يفكر بالشهرة ، وبالحصول على قدر منها ، وبزيادة ما هو حاصل لديه ..
ويغالط من يدّعي الزهد المطلق بالشهرة .. ان الزهد المطلق يعني تمزيق الورق وتكسير القلم والركون الى السكون المطلق ، وهو الموت لدى الكاتب ولا يريد كاتب ان يموت ..) ولكن ماذا يقصد الطاهر بالشهرة عن طريق القوة : (قلت .. اقصد ان الشهرة يطلبها اي انسان ، والأولى ان يطلبها المبدع ، ولكن الناس - ومنهم الكتاب - يختلفون في طلبها ، فمنهم - وهذا كثير في الكتاب - من يطلبها رخيصة وبكل سبب وبالرخص .. والذل احيانا ..) .. والشهرة - في رأيه - على درجات ، ولم يأت بأمثلة ، بل قال : (منها ما يطلب بالتواضع والصمت والتظاهر بالزهد ، ومنها ما يجيء مكشوفاً صريحاً ، ويضيق الناس عادة بطالب الشهرة علنا .. ويطلب الشهرة احيانا كثيرة من لم تكن له مؤهلاتها ولكنه يطلبها لخيرها له ، جهلا مرة وتجاهلا مرة ، وتجاهلا يستحيل حقيقة مرة .. والرخص بطلب الشهرة يعزى الى ضعف بالأعصاب ينتهي الى الفخر

الساذج) .. وهذه الشهرة على اية حال مما يحفظ للكاتب شيئاً من التريث ، وشيئا من التفكير بالآخرين وبضرورة الصدق .. اي ان الطاهر يريدها شهرة عن جدارة ، شهرة طبيعية ومقابل عمل يعترف به الاخرون طواعية ، اما ان انساناً يفرض نفسه فرضاً ويسلك سبلاً ملتوية ويخالف العرف الصحيح .. ويغش ويعمل المستحيل فقد يشتهر ، بل يشتهر ولكن لا خير فيه ولا في شهرته ، وفي اوساطنا الثقافية بعض من هؤلاء يرفض الطاهر ان يسمى اسماً او ينعت اسماً !

هل طلب الشهرة اذن يأتي من عامل سيكولوجي ام من عامل غريزي ، والجواب بسيط في راي الدكتور الطاهر ، فالعامل السيكولوجي يتركز في انه حين يشتط صاحبه ويسخف يعني المرض ويمكن ان تبحث اسبابه في التربية والنشأة والمجتمع .. وطلب الشهرة نفسه يمكن ان يكون ميلاً طبيعياً (غريزياً) وهو بناء في الحياة إذا قام على اساس صحيح ، اما اذا لم يقم فهو مرض سيكولوجي ..

وخلاصة الشهرة في الطاهر : (لست مشهورا أو لا اراني مشهوراً فيما انا فيه .. وافضّل ان اكون معروفاً .. ولا ادّعي الترفع عن الشهرة ، فذلك خلاف طبيعة الاشياء ،

ولكني لا أريد ان انسب لنفسي ما ليس لها ، وأترك الحكم على مدى المتحقق من الشهرة او المعرفة للآخرين ..) .. والآخرون نحن ، نزكيه بالشهرة ونزكيه ، انه على حق في هذه الشهرة !

* * *

قال كلاماً ، وقال الطاهر شعراً ، هـل الانسان مـوفور المكاسب كما كان يعتقد الشاعر الالماني (هلدرلن) ؟ قد يكون ذلك صحيحـاً ، وآمنت الآن بـرأيـه ، آمنت .. ان الوجـود الانساني ، من حيث هو قائم على اساس ، ليس اكتسابا بل منحة وعطاء .. أهو الشاعر نفسه هو القائل :

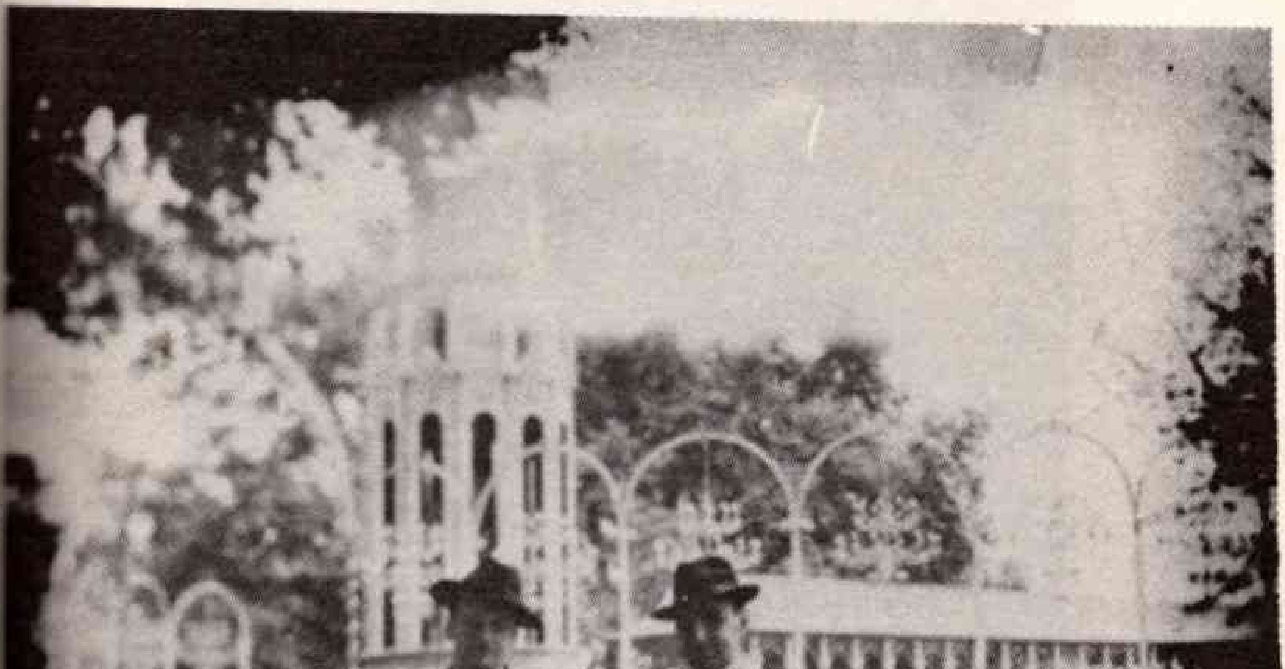
الروح الجريئة تطير طير العقاب
قبل هبوب العواصف ، منبئة بقدوم آلهتها !



طالبا ببلاريس

الفصل الثالث

رحلة الوطن
في
أعماقه ...!



مع الدكتور صلاح خالص في زيارة لجامعة انكليزية ١٩٥١

ذهن وموهبة

انا قلت هو ذهن ، ويدخل الى العالم بذهن يتصيّر ويتجدد ويذهب به التجدد الى اكتشاف عوالم جديدة في الأدب والافكار ، يتجاوز فيها حدود عوالمه القديمة ، والقديمة القريبة ، وقلت ، هو موهبة ، وموهبته ذات بنية تاريخية ، استمدت خصائصها من خمسين سنة ، حتى باتت خصائصه له ، يعرف بها ، ويُكنى بصفاتها ، ذهن وموهبة انشأت لنا الطاهر ، ممتحناً بخصائصه ، وممتحناً بجمهوره ، حتى بات هو وجمهوره ، بصفة واحدة ، ادباً متقدماً في الكتب والمقالات !

* * *

وما كان لهذه الموهبة ان تغذي جمهورا او تاريخا ، لولم ترتبط بماض ، وفي البداية ، كانت موهبته في المدارس ، كان ماضيه موهبةً متميزة ، والادباء الحقيقيون تولد مواهبهم في المراحل الاولى من الدراسة الابتدائية ، وبعضهم تبان مواهبهم في الكتاتيب ، ويصقلها معلمون في الدين والعربية ، وهؤلاء قلة ، نزلت فيهم الموهبة عن ميل نفسي ، او ميل غريزي ، هم

انفسهم لا يعرفون مصادرها ، بل لم يتتبعوا مداركها الاولى ، وشأن الطاهر شأن هذه القلة ، ختم القرآن في (الكتّاب) فصار ميله الى القراءة ، طبيعياً ، وفي المدرسة الابتدائية (الشرقية في الحلة) يلتقط معلم (المحفوظات) هذه الموهبة وينمّيها بالاناشيد ، ولقي رضا الجميع ، وجرؤ ، مرة ، على ان يلقي قصيدة من محفوظه الخارجي في اجتماع صباح الخميس ، وتفيد وثائقه ، انه وهو في الصف الثالث نظم قصيدة (عامية) .. ابن عشر سنوات يدرب لسانه في موهبة كبار السن ، وأخوه رآه يتمتم بشعر او بحكمة ، فيسر له كتبا في النحو وشاركه في قراءتها .

* * *

وإذا هو في (المتوسطة) يطالع كتباً جاءت من مصر او لبنان ، وينزل في مكتبة المدرسة ، ويذهب حالاً الى الفهرست ، وربما التهم الفهرست وعناوينه ، ويقف ذات يوم يقرأ (كلمة الخميس) بدافع من حماسة القراءة ، وبحركة من وجهه ويديه تشبع ميله الى الظهور امام الجماعة ، وعرفته المدرسة لبيباً ، في يده الكتب ، ويتحلق حوله النابهون ، ويختلي في زوايا

المدرسة يقرأ شعر الشعراء وقصص القصاص ، وقلما نزلت درجته في درس (الانشاء) عن ٢٥ / ٢٥ ، وتصدر مدرسته كتاباً عن الزهاوي فيشترك الطاهر الطالب فيه بمقالة ، ويرعى موهبته المدرس محمد احمد المهنا ، وهو أديب ينظر الى علمه وأدبه واطلاعه بدهشة واعجاب في مدينة الحلة ، ويرعى موهبة اسلوبه المدرس احمد توفيق الحلي الذي كان له دور مهم في صقل ذاكرات المواهب جميعا ، ويمضي الطاهر في الصف الثالث ، واذا هو يكتشف سلامة موسى ويتأثر به ، ويلقي به في الايمان بالعلم ولا سيما بكتابه (في الحياة والادب) الذي ورد هو وغيره الى الحلة في اواسط الثلاثينات ، ويقرأ قصص ذو النون ايوب في (رسل الثقافة) ثم دخل الفرع العلمي في الدراسة الثانوية بتأثير سلامة موسى رغم ميوله الادبية ، وشجعه في هذا الفصل على الادب حسن الامين (المدرس اللبناني) ومن ثانوية الحلة كتب مقالات ، وكلمات في وفاة الملك غازي ، وتفاعل في مجلتي الرسالة والثقافة المصريتين ، وتفاعل في كتاب (من حديث الشرق والغرب) للكاتب المصري محمد عوض محمد .. هنا في هذه المراحل الدراسية البكر تعلم ان

الموهبة رصد ومتابعة وتمثل ، رصد وتابع وتمثل ، ونضجت بداياته ، وأثبت ان جذره دُرب في المعاناة !

استنتاجات

قلت ، انه قرأ سلامة موسى والزهاوي وقرأ الموهبة في المدرسين ، وأنهى الثانوية وهو ابن حصيلة في الثقافة .. وبعد خمسين سنة هل تغير مزاجه الثقافي في سلامة موسى والزهاوي ، لا بد ان يتغير هذا المزاج ، ودخلت في مناقشته ، قال الطاهر ..

١ ـ الزهاوي ... وكان الزهاوي يبدو ولا سيما وهو في عام وفاته ، شاعراً كبيراً ، وان موته خسارة فادحة .. وينعكس ذلك على العامة ، وعلى الطلاب الصغار .. وكنت أنظر اليه خلال هذا المفهوم العام .. وكلما تقدم الوقت وتركز لي مفهوم في شرط الموسيقى في الشعر ليكون شعرا صار الزهاوي لدي مثلا على النثرية في الشعر ، وعلى ان شعره ليس شعرا ، وانما هو كلام اعتيادي يمكن ان يكون مقالة ـ ولو تعليمية ـ احسن منه نسجا وابعد تأثيرا .. الزهاوي في جملته ، والرصافي بعده .. « كذبة » كبيرة في عالم الشعر اذا أُريد للشعر ان يعد فنا .. وما بقي بعد ذلك تفصيلات أكثرها تاريخي .. (وأساسا ، فان

المقالة التي كتبها الطاهر عن الزهاوي في المتوسطة لا تتعدى عن نثر لأشعار الزهاوي ، ولم يكن واردا في ذهنه .. او تكوينه ، ان يتحدث عن شؤون الادب والشعر ، وكان موضوع المقالة (الزهاوي والمرأة) .. باختيار مباشر من مدرسه الاديب محمد احمد المهنا ..) !.. وانـا اؤيد الطاهـر ، في ان الزهاوي لم يحدث تأثيراً في حركة الشعر العراقي آنذاك ، اما كونه (كذبة كبيرة) في هذا الشعر ، فلربما لانصـاره رأي في هذا الحكم الذي اطلقه الطاهر ..!

٢ ـ سلامة موسى .. والظاهر من مناقشات الطاهر ، انه كان واقعاً تحت تأثير هذا الكاتب بتدرج وطواعية ، وكان مثله الكبير بين الكتاب العرب ، وما زالت كتبه في مكتبته الخاصة ، وقد جعلها للعبرة والتذكرة ، انها مشكلة ثقافة الثلاثينات ، وكان العراق في منعطف التحـول الكبير ، وكـان القراء العـراقيون تواقين لقراءة ما يرد لهم من ثقافة مصر ، اي شيء في الثقافة ، وأي شيء في الكتاب .. والطالب الطاهر كان من هؤلاء القراء الذين استوعبوا « ظاهرة » سلامة موسى ، وقد استوعبوه في اثارته لمشكلات علم النفس عند فرويد وأدلر ويانگ ، واثارته

لموضوعات العقل الباطن في امور الغريزة الجنسية وعقدة النقص والكبت والتسامي ، حتى كاد سلامة موسى ينفذ الى النفوس ، ويهيمن على المشاعر ، وتطبق النفوس والمشاعر آراءه ونظراته في الحياة ، يقول الطاهر بصدد ظاهرة سلامة موسى ، في جانبها الايجابي :

أ - دوره في التوعية الاجتماعية ، في بيان الفاسد من التقاليد والرجعي ، وربما نفذ في ذلك الى صميم ما نشأت عليه من عقائد وقواعد ، فهزها وزعزعها .. وبعثك الى بناء شخصيتك من جديد ..

ب - ثم هذه الدعوة الى اخذ المدنية مقارنة مع ما نحن عليه من تخلف ، ومن تأكيد وأصراره على اخذ العلم وتطبيقاته في الحياة والبعد عن الاوهام والاخيلة .. ينفذ بهذا الى اعماق نفس القارىء بما يبدو عليه من ايمان وعنف وجدية .. ولا يسع القارىء الا ان يصدقه وقد اجتمعت للرجل الى ايمانه ، خبرته وثقافته ومدنيته وسعة اطلاعه .

ج - ثم دعوته الى البساطة في « الاسلوب » الى الوضوح ، الى اللغة التي يفهمها الشعب مباشرة ويتأثر بها

بعيدا عن العناية الزائدة (والتزويق) والاطالة ـ وهو ما سماه الاسلوب التلغرافي ـ وانك تقبل منه شيئاً ان اعترضت منه على شيء ..

كل هذا وسلامة موسى ، كما في رأي الطاهـر ، ليس في الطبقة الاولى من الادباء الكبار الذين يذكـرهم القراء .. طه حسـين ، الزيات ، الرافعي ، المنفلوطي ، المـازني ، تـوفيق الحكيم ، ويشهـد الطاهر ، ان هـذا الكاتب قـد « خدمـه » كثيرا ، وانه لجدير بالاحترام لما أوصل ولما أثار ، وانه في عداد أساتذته (... ولم يكن وحيدا في تلاميذه في تلك المرحلة ..) !

* * *

لكن متى بدأت مكانة هذا الكاتب تتضاءل عند الطاهر .. انا فهمت لسببين ، الأول لاشتغال الطاهر وانصرافه الى مواد اساسية في حياته ومنها الدراسة ، ولاكتشافه كتّاباً اقرب الى نفسه ، ولأنه بدا وكأنه لا يتطور ، وكأنه (يعيـد ويصقل في آرائه) وعلى ما يروي الطاهر : (وانك لتقرأ في كتابه العاشر ما قرأته في كتابه الاول) .... اما السبب الثاني الذي دعا الطاهر الى ان يبتعد من سلامة موسى ، فهو (تناقضه) حينما التقى



في مصر عند الاهرام مع اصدقائه سنة ١٩٥٨

معه في القاهرة ، وظل يراقبه مباشرة : (فما رأيت فيه خارقاً في الفكر ، ورأيت فيه حذراً وتخوفاً .. ورأيت اكثر من هذا وهذا ، تناقضا بين القول والعمل ، وانه ليس في تصرفه المحلي الضيق كما بدا لقرائه في ذهنه العالمي وبرأيه الانساني ...) .. ويستدرك الطاهر : (كان سلامة موسى وحيدا في بابه ، واننا لمحتاجون الى كاتب يوسع الافق ويبسط العلم ويهز الذهن ويزعزع المتقرر ويستثير النشاط .. ويكوّن الشخصية) ، ثم يستدرك مرة اخرى : (... ولم يستطع ان يفعله آخرون يقتربون منه ، وأذكر نقولا حداد ، ولم أعاصر أثر شبلي شميل ، وأحسبه اقدر على الكتابة من شبلي شميل وأوسع أفقاً وان التقيا كثيراً عند نظرية التطور وداروين .. واتخذا من ذلك قاعدة حسباها القاعدة التي لا تعكرها الايام ..) .. ولقد ادركت ان للطاهر رأيا آخر في سلامة موسى حجبه عني لأسباب اجهلها ، هكذا ما كان يبدو إليّ في نقاشه !

وعندما قلت ، ان موهبة الطاهر ولدت في أيدي المدرسين في مراحل دراسته الاولى ، عقّب يفلسف الموهبة : (.. هي مسألة معقدة ، ومعقدة جدا في امر الانسان .. ومهما أقلّب الامر ايجاباً وسلباً ، سلباً وايجاباً ، عن ذاتية وموضوعية ،

وعن علم وغير علم انتهي الى انها كـائنة ، وكـائنة في خلقـة الانسان ، خلقة انسان بعينه دون آخرين . وما بقي تفصيلات تخضع للأخذ والرد ، وترجع الى عوامل خارجية من الظروف المحيطة خاصة وعامة .. ولنذكر انها لا تـورث .. ولا بد من الاعتراف في أثر للظروف فيها ، في تلوينها خاصة ، وفي مدى استثمـارها عمـومـا) ، ويقـر في هـذا الرأي ، ان المعلم .. والمـدرس كانـا واحدا من هـذه الظروف ، عـامـة كـانت ام خاصة ،.. (كان المعلمون في جـانبي عمومـا ..) .. وتبقى مسألة (الموهبة) لغزا محيراً ..!

التعاطف

ويطل عام ١٩٣٩ ، وقد عُيِّنَ الطاهر معلما مستخدما ، وقد شغلته التجربة القاسية التي لم تكن له يد فيها .. عُيِّنَ في قرية (العواشية) من الشطرة في الناصرية ، وهناك في الريف النقي امتد الى الاكواخ والمضائف ، وتصاهر في تقاليد الناس ، حتى قامت حركة مايس ، فكان مع أمثاله من عامة الناس في أعلى الحماسة ، وغدت القرية شعلة من الاستعـداد الوطني تُنفِّس عنه بالهوسات والتـظاهرات ، وتـذكّر في هـذه اللحظة

الشيخ رؤوف الجبوري يصيح في الناس شعراً وطنياً بصوته الجهوري :

وقصور على المظالم شيَّدت
هدمتها للانقلاب معاول

تذكّر هذا البيت الشعري وتذكّر (عكد المفتي) في الحلة ، وكان في كل هذا ، يتذكر انه تثقف في الكتب والقراءات ، وانه لابد ان يكون في الطليعة . في هذا التعاطف الوطني ، ونما فيه هذا التعاطف ، بقراءته سلامة موسى ، ولا سيما « مختاراته » و « اليوم والغد » .. (وعدت الى الحلة واذا الحال واحدة ، وطبيعي ان أكون مع من كان ضد الانكليز وضد خدم الانكليز) بمعنى ان الطاهر كان يقف مع الاكثرين ومع المثقفين ، كان بدون شك منتميا دون ان يدخل الى السياسة مباشرة ، ويسمّي انتماءه : التفجير ، تفجر بالاحداث وعبّر عنها بكلمات هنا وخطبة هناك ، وتفجّر لأن العام تفجر بأحداث وطنه .. (وهذا التفجر ليس سياسة وليس عملا سياسيا) .. ويريد ان يعبر ، ان تعاطفه بحركة مايس او بأصداء ثورة

العشرين ، لم يكن مبعثه حزب انتمى اليه ، فهو لم يدخل حزبا في العهد الملكي ، بل لم يدخل حزبا في اي عهد ، لا لأنه يعارض (الحزبية) في العمل السياسي ، وانما في الطاهر شيء من (الفردية والوحدانية) يمنعه ان يكون مشكّلا بعمل سري ، وبدلا عن ذلك التزم ، وحدد التزامه على وفق المبادىء الوطنية التي تلهب خيال المتنورين والمثقفين ، وقد انصرف بكليته الى هذا الاتجاه ، ودافع عنه ، وقدم النصح فيه ، بمقالاته ، وبمجادلاته ، بكل ما أوتي من قوة في الحجة والمنطق ، وبكل ما رزق من مواهب فطرية ، او بيئية او اخلاقية ، وكثير من النقاد من لم يفهم الطاهر في هذا الاتجاه ، بل وجدوه متعالياً ، وهو ليس بمتعال ، ووجدوه او ظنوه منعزلا وهو الدافىء ، وهو الذي راى في (المتعالين والمنعزلين) أداة تخريب في مجتمع متخلف ، الم تكن كتاباته دعوة صريحة الى الجهاد الاجتماعي ، هو اذن مجاهد اتخذ القلم وسيلة في هذا الجهاد ، لأنه كاتب ، واتخذ الجامعة منبراً في هذا الجهاد ، لانه استاذ يربي اجيال العلم ، ولقد عشق الوطن وعشق الموضوع والذات في هذا الوطن ، وكان يدرك ان للمثقف مهمة ، ومهمته ان يحول الوطن الى احاسيس يومية ، ويحول القراء الى عقول ، والعقول الى أدمغة

نابهة نابغة حساسة ، وكانت مهمته متعادلة في ذاته ، ومنذ عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٤١ بقي الطاهر « وطنيا » ضمن الاتجاه الوطني العام ، لا ينضوي في تيار ، ولا يرجح تيارا على تيار ، وانما كان متحدا في التيار الذي يرجح الوطن على نزواته ونزعاته وتصرفاته .. ويقول الطاهر : (كانت لي صداقات مع الذين يحملون الشعور الوطني العام او الخاص ما دام الكلام على الشعور .. نلتقي رأياً وفكراً وحديثاً ومجلساً .. والهم واحد وكأننا مسؤولون عن العالم كله قريبه وبعيده .. ويتضح هذا الشعور مع الزمن على شكل كره للانكليز وكل مستعمر .. ورؤية سوداء لأمم ترى نفسها متحضرة وهي تستغل موارد الآخرين وتعمل منهجياً على تجهيل الناس .. ثم ميل لأي دعوة يشمّ منها الخلاص ويبدو فيها أمل ويفهم منها التعاون لاحقاق الحق ونشر العدل وانصاف المظلوم ، وأكثر ما اتضح الظلم في النظام الذي يحكمه عبد الاله ونوري السعيد) !

ويتوضح لي ، ان الطاهر لم يشترك يوما في العمل السياسي من حيث هو عمل يقوم على تنظيم ومنهج والتزام ازاء منهج ، اي انه لم يشترك في عمل حزبي ، وكل ما له في الأمر مشاعر وطنية : (أعتقد انها صادقة وانها تنسجم الى أقصى

حدود الانسجام مـع مشاعـر ومصالح ابنـاء الشعب والامة الحقيقيين الذين يدركون بضميرهم ما يعجز احيانا عن ادراكه كبار الساسة) .. وكان قلبه مع الوطن حتى وهو خارج قطره ، فعندما قامت الوثبة في عام ١٩٤٨ وما أعقبها من انتفاضات شعبية ، نظّم الطاهر ورفاقه في مصر او في باريس ، ما يشبه المظاهرة ، وما يقوم على تجمع طلابي خطابي ، ولكن الأمر وقف عند حدود المحاولة ....: (وهكذا استمرت سيرتي .. واذا بدا عليها حينا زيادة او نقصان ، فلا يخرج ذلك عن دائـرتها ، والمسألة مسألة نقاط التقاء) ... وأنا ما كنت أجادل الطاهر في « سياسيته وحزبيته » لولا مـا وجدت من آراء متضـاربة في حقه ، وأذكر انني قبل سنوات كنا نتحادث عن الماضي ، وعن تجربة الماضي السياسية ، وأردت منه ان يدلل على « هويته » السيـاسية ، حتى سمعتـه يقول : (فمـاذا تسميني ؟.. لم أنسب نفسي الى الاشتـراكيـة وكنت احبهـا عـدالة ، ولا الى الليبرالية وربما كان فيَّ شيء منها في حدود الضيق بخطأ القريب عندما يقع ، والاعتراف بصـواب البعيد عنـدما يكـون ، اما الرجعية فاستثقلها ، ولا تعدم من وصفني بالتقدمية دون ان يزيد الوصف او ينقص فيما انا ومنه واليه ..) ... وربما كان

الطاهر ، في ماضي شخصيته ، ذا مزاج في العمل الوطني جعله يبتعد تدريجياً عن كل ما هو منهج في العمل السياسي ، وقد أسيء فهم « مزاجه » في شبابه كما أسيء فهم هذا المزاج في كهولته ، ولكن على كل حال ، ظل الطاهر ذلك الذهن الوطني وذلك الفعل الوطني وذلك الشـرف الوطني ، في كل مـرحلة من مـراحـل حياته ، وظل ذهنه متوقدا لا يسمح بخطأ في وطن ، لا يرثي ولا يمتـدح ، وانما سكب احـلامه في التـراث ، وأبـدع في هـذا التراث ، ومن يبدع في تراثه يبـدع في تاريـخ الوطن ، ونحن ينبغي ان نقوّم « ادباء الحساسية الشديدة » بفهم عميق حتى لا يقع عليهم عنت المتعنتين وصلف المتصلفين ، وهؤلاء الأعلام الذين استحقوا لقب « الحساسية » بجدارة كـان رائدهم في التاريخ : الحرية ، فيها قرأوا ، وفيها تعلموا ، وفيها أوصلوا كتاباتهم الى الجمهور ، وما أحبهم الجمهور إلّا في هذه الحرية ، وقد ولد الطاهر في الحرية !

دار المواهب

وهكذا شأنه وهو يجوس عتبة دار المعلمين العالية !

ولا بد له من التهيؤ ، لأنه سيختار منها ، هذه المرة ،

الفرع الادبي ، وعليه ان يؤدي مع المتقدمين من خريجي الفرع الادبي امتحاناً تحريرياً وشفهياً ، ثم امتحن ونجح ، وكان الاول على اقرانه من متقدمي (لواء الحلة) ، ورأى هذه الدار تصطرع بتيارات الفكر والسياسة ، فازداد وعيه واتسع أفقه ، وعلى مدى اربع سنوات بقي مجتهداً في درسه ، فحافظ على معدل واحد لسنواته (٨٧ / ١٠٠) .. وابتعد عن منافسة الآخرين ، او ان هذه المنافسة لم تكن يوماً شأناً من شؤونه او خلقه ، وطالما تحدث اولئك الذين درسوا او شاركوا الطاهر في درسه ودراسته ، عن (وعيه في الاجتهاد الخاص) ولمسوا عن قرب تدفق الموهبة فيه ، موهبة في الانشاء والبناء ، وموهبة في (استقلال الذات) ، وكان الطاهر يتفاعل مع آراء اساتذته في الدرس : محمد مهدي البصير ، طه الراوي ، مصطفى جواد ، وكان يجلّهم ويحترمهم : (هم مخلصون ، علماء ، وأفدت منهم الكثير ، وزاد إكباري لهم عندما رأيت غيرهم في مصر وغيرها) .. فأحب فيه الاساتذة ، الطالب الذي سيصبح أديباً بعد حين !

* * *

ولقد وجد دار المعلمين العالية ، دار مواهب ، وجدها حركة ادبية ، للشعر منها مكان مرموق ، وهناك في صفه شعراء ، جلسوا معا في الساحة او في مكتبة الدار يكتبون شعرا وينثرون شعرا ، هو ايضا نظم شعرا يسميه (مقطوعات) لم يطّلع عليها إلاّ نخبته ، ومن بين هؤلاء الدكتور عبد الجبار المطلبي الذي قال عنه الطاهر : (انه مال الى الصمت) والدكتورة عاتكة الخزرجي التي قال عنها : (انها استمرت في النشر واصدار الدواوين على ما هو معروف) ومحمد الجبوري : (الذي انصرف للدرس التربوي والتخصص ولعله انقطع عن الشعر او انه لم يعد يقوله الا لنفسه ولمن حوله) .. ومن الشعراء الذين أدركهم قبله او معه او بعده : نازك الملائكة ، وبدر شاكر السياب وسليمان العيسى ، وآخرون أقل شأناً ، أمسك الطاهر عن رأي بحقهم ، وكان ميله لطه حسين والزيات يزداد ، ولم يجد ميلاً نحو العقاد ، لكن لماذا مال الى هؤلاء ولم يمل الى غيرهم : (كنت أجد عند طه حسين والزيات الابداع الفني ، الطراوة ، الشاعرية ، الجدة على النثر العربي ..) وهل بقي الطاهر مع طه حسين والزيات : (ما زلت مع طه حسين ، وأكرر اني اميل اليه منشئاً وقلّما حفلت بآرائه

في تاريخ الأدب او بحثه ، وما زلت حيث كنت .. وربما ازددت على الزمن ..) اما الزيات : (فقد أعدت قراءته .. فرأيت على كثير من مقالاته طابع التقادم ، ولكنه يبقى الزيـات ، ويبقى جيده جيدا ..) ومشكلته مع العقـاد ، هي ان هذا الكـاتب المدرسة ، في رأي الطاهر ، ثقيل ، وربما فرض على قارئه تعاليه او تعالمه : (وأعدت قراءته متأخراً فرأيته متخلفاً ، وان الذي كان يدل به على انه جديد ، غربي ، ليس للعـرب مثله .. من أوليات الاشياء وانه يتصرف بالقليل ويـدّعي الكثير ويسمـح لنفسه بما لا يجدر بأديب ان يسمح من التصرف والادعـاء وربما الشعوذة !..) .. ولم يُتح للطاهر ان يكتب شيئاً مهماً في هذه الكلية إلا ما أذاعه عن شاعر وغزله في الاذاعة ، وما كتبه من شعر لم يبلغ المتوسط او يتعداه ولم يجد في امره عـلى ما أظن ، وكنت أتساءل والطاهر عن الدافع الذي يدفع غالبيـة الادباء في مراحل مواهبهم الباكرة ، الى نظم الشعر ، ويقولون الشعر ويتركونه ، لينظموا القصص والنقد والبحوث وما الى ذلك من المواهب النثرية : (لأنه النوع الادبي الذي يكاد يكون وحيدا للابداع ازاءهم .. يملأ دنياهم ويعكس مقام الشعراء العـرب عـلى مـر العصـور من امـرىء القيس .. المتنبي ..

شـوقي ..... وفشلت في نظم الشعـر ، ولم « أفشـل » لأني استطيع ان استمر وان « أنظم » حتى في هذا الوقت ، ولكني صعب جداً في محاسبة الغير فكيف مع نفسي ، ثم اني لم أتفرغ للمسـألة .. وقد يكـون رصيدي من المـوهبة ضئيـلاً خضع لمؤثرات الدرس والبحث والتحصيل .. اكثر مما فرض نفسه عليها وهيأ لصاحبه الجرأة اللازمة للتحدي من كل نوع ..) ..
وفي الطاهر نبع من الشعر تطوف فوقه الرموز والاشارات !

* * *

ولم يزل سلامة موسى يلقي بأثره عـلى الطاهر في هـذه الدار ، وكـان أثره واضحـا ، في ان الطاهر قـرن اهتمـامـه بـالادب ، الاهتمام بعلم النفس وبكتب المستقبـل البشري ، وكان يشعر واعياً وغير واع انه اديب او يجب ان يكون أديبا ، ويملك الادب عليه عقله .. ولمصر ولمجلة (الرسالة) خاصة ، الاثر الكبير في هذا الهوى وهذا الوعي الادبي ، كأن الموهبة التي ترعرعت فيه ، اتضحت هنا في دار المعلمين العالية ، بعد ان امتحنت في بيت الاسرة والمدارس وبطموح نحو الدكتوراه ، وبشعور غريزي ـ طبيعي وجده يعتمـل في داخله ، حتى بدا

وكأنه كان مطمئناً الى الخلود : (.. ولكن هذا الاطمئنان شرع يتزعزع في السنتين الاخيرتين من الدراسة في هـذه الدار ولا سيمـا لدن مـرض وضعف صحي شـرع يتمكن منـه بـدءاً بالمعدة ..) ... ولعل ذلك قد أدى الى مسحة من التشاؤم ما انفكت تزداد وتظهر على وجهه ، وكأنه كان يريد خلق العالم على الصورة الحسنى ..!.. وإذا كان الطاهر في هذه الدار قد فقد « صفـة » الاديب فيـه بسبب البحث والتعمق والاجتهـاد في الدراسة ، فانه ، حتماً ، لم يفقد حاسة « التذوق الجمالي » وحاسة « النظر الدقيق في الانماط الادبية » وحاسة ان يكون استشرافياً في اختيار الأجمل والابهى في الادب ، وذا قدرة على تذوق الشعر الجميـل والنثر الجميـل والحكم الصحيح عـلى الجميل ، والسخرية المرة من الرديء ، وكان يهيىء نفسه لأن يكون شيئاً في المستقبل !

* * *

وتخرج في دار المعلمين العالية .. وكان يتطلب منه كتابة رسالتين ، واحدة في الأدب والثانية في التربيـة ، وقد اختـار للتربية ـ دون تردد ـ مسكويه .. أما في الأدب فتردد كثيرا .. مرة يختار موضوعا واسعا جدا مثل : الرثاء في الشعر العربي

او الفلسفة الشعرية فلا يقبله منه استاذه المشرف « الدكتور محمد مهدي البصير » ، ومرة ... موضوعا محددا مثل العباس بن الأحنف ، ولم يقبله البصير كذلك .. واستقر اخيرا على « الطغرائي » ، وما قرأ فصولا منه حتى رجا له استاذه المشرف ان يكون نواة للدكتوراه .. وفي الرسالتين طغى عليه او على اسلوبه طه حسين والزيات .. وشيء طبيعي يحدث هذا التأثير في تلك المرحلة !... ويقول الطاهر : (.. ولعلي لم أكتشف نفسي أديباً في دار المعلمين العالية ، قدر ما اكتشفت حبي للأدب وطموحي الى ان اكون أديباً .. ثم اكتشفت قدرتي على البحث بسبب ما كنت أرجع اليه من مصادر ومراجع) !

علّم جيلاً

ولم تسعفه حاله ان يذهب في بعثة الى الخارج ، ففي عام ١٩٤٥ يصدر أمر تعيينه في مدينته (الحلة) مدرساً في إحدى مدارسها ، وقيل له : انه سيدرّس العربية والتاريخ ، ودرّس كذلك في مدارس البنات ، وانتهز الفرصة ، ولا بد له ان يهيىء جيلاً ، في تفكير جديد ، وفي ذاكرة جديدة ، فأنشأ للتلاميذ قواعد هي غير القواعد التي تعطى لدرس « الانشاء » دلّ على

المنهــج ، ودلّ عــلى الطريق الى المنهــج ، وأعــطى قــواعــد (ساحرة) في حفظ (المحفوظات) وبسّط لهم (النحو) بما تيسر له من اجتهاد في النحو وطريقة إيصاله ، وبين الانشاء والنحــو كان يــرشد الى التــربية ، يعلّم التــلاميذ كيف تبــدأ الشخصية وكيف تنتهي ، مثلما علمهم في مادة (التاريخ) ، بأنه ليس سجلاً مجرداً وانما التاريخ : حضارة .. ومناقشة ، اراد ان يزرع في العقول : الاستجابة الى الحياة ، فكان ثمر الزرع حلواً ، وبين حين وحين ينتقي عقولاً لتخطب في الساحة ، علّمهم الجــرأة في أن يخطبــوا امام النــاس ، وجــاء بهم الى المكتبة ، أسس مكتبة فيها الروائع ، وجعلهم يكتبون (جريدة جدارية) وبعضهم قال الشعر امامه علناً ففرح في ذاته ، وتيقن ان فكره بدأ يثمر عقولاً ، بل قلوباً ، هذا هو المهم عنده ، والمهم الاكثر ، انه تحسس ان جيلاً بدأ يتململ بين يــديه ، فـآمن بقراءاته وآمن ان البصير وطه الراوي ومصطفى جواد لم تمت اطيافهم في اعماقــه ، هؤلاء الرواد الذين قــالوا يومــا ما الى الطاهر : انك ستكون شيئاً في شجرة المعرفة ، اما في مدارس البنات فكان عقله حياً ، حياً بــين عقولهن ، وقــد ادركن منذ البداية أن صوت الطاهر صوت جديد ذو نبرة للعلم جديدة ،

فعملن معه بجهد ، حتى أسسن مجلة باسم (استفيقي) ، صدر منها عددان ، وأنشأن مكتبة خاصة ضمن مكتبة المدرسة باسم (مكتبة المرأة) ، كان مبشرا !

* * *

وصوته قد انتشر في المدارس ، ويجلس في ساعات التأمل لينظم أبياتاً في الشعر وقرأها لزملاء وللاستاذ احمد حامد الصراف ، ويعتبر هذه الابيات : (استمراراً للخيبة بالخلود) ، وربما كانت شكوى من الحالة الصحية التي أقلقت جسده الحي ، ويمضي في هذا التأمل ، فيؤلف طبقاً لمنهج ادب الصف الثالث ، كتاباً لم يتهيأ له ان يطبع .. ونشط فيه التأمل ، وخرج من دائرة الدرس ، الى الصحافة ، فنشر في مجلة (البطحاء) التي صدرت في (الناصرية) نشر فيها أدباً ومقالات ، ثم نشر في مجلة (الرابطة) في بغداد .. ونشر في جريدة (الفرات) التي صدرت في الحلة ، وكان لنشره في هذه الجريدة أثر في أوساط المثقفين في الحلة ، فبعد ان نشر مقالاً بعنوان (فولّوا وجوهكم نحو الطبقة النامية) تنبه اليه الشباب وقال قائلهم : هذا صوت استاذ نحترمه ، وحينما نشر مقاله

الثاني بعنوان (هذا هو الوعي وهذا فعله) تنفس السياسيون الوطنيون الصعداء ، اذ ان الطاهر في هذا المقال سجل شعور (الحلة) الغاضب على طبيب ثري لم يكن مرتضى من الجمهور ، وقد أحدث المقال اهتزازاً في كيان الفئة التي تتصدر ادارة البلدة ، وكان الطاهر ينشر هذه المقالات والحلة في بركان .. بركان الشعور الوطني الذي تفجر بعد الحرب العالمية الثانية ، وتأثر بهذا البركان وساهم في البركان وأيد البركان وذكّى فيه جمرة الحب وجمرة الكاتب الشريف .

* * *

ولم يكتب باسمه الصريح ، بل كتب بقناع ، باسم مستعار مثل « حمدان » أما لماذا حمدان فهذا أظنه من وحي دراسته عن القرامطة على الدكتور عبد العزيز الدوري ايام تتلمذ عليه في التاريخ الاسلامي ، وعلى ذكر التوقيع المستعار يذكر الدكتور الطاهر ان الفئة التي اهتزت للمقالة : (ضربت اخماساً واسداساً فيمن يكون صاحب التوقيع ، وذهب ذهن اكثرهم الى أبرز اسم من معارضي الحكم في الحلة فردهم احدهم بان هذا غير ذاك ، فابحثوا عن اسم جديد ، وكنا جالسين

قريبين منهم في نادي الموظفين ضحىً) ولم يكن وراء هذا الذي حدث إلّا الشعور الوطني الخالص ، هو الشعور بالمسؤولية ازاء الوطن ضد فساد الحكم وظلوعه في ركاب الاستعمار ، ولولا فساد الحكم ووضوح الباطل .. والحق .. لما كان لمن وراء الشعور المذكور تأثير يذكر .. ويقول الدكتور الطاهر : (واذا كنت مع هذا الشعور متقبلاً إياه ، باثّاً له ، قارئاً كاتباً مناقشاً .. فهو لعامل فساد الحكم والاحساس بالواجب الوطني دون انتماء لحزب او تفكير بحزب ، ومثلي اصدقائي المثقفون بين المعلمين والمدرسين ورواد المقهى والمكتبة العامة وقراء الفكر الذي لم يكن غيره يعد جديداً ويرى منقذاً) .. وكان الطاهر من هذا الفكر المنقذ !

* * *

سنتان كان فيهما الطاهر مدرسا في الحلة (١٩٤٥ ـ ١٩٤٧) يغذي فكراً ، ويغذي ضميرا ، ولعل اولئك الذين تخرجوا على عقله ولسانه وعواطفه ، يذكرون له تاريخا في فكر وفي ضمير ، وان هذا الضمير وهذا التاريخ ما كانا يصدران ،

إلّا عن وعي وايمان بالحياة ، وعن مهمة ثورية ترى الاكثرية بعين ثاقبة ، وتجد ان الثقافة لا بد ان تنحاز الى (امام) والى ملايين ، الى الشرارة !

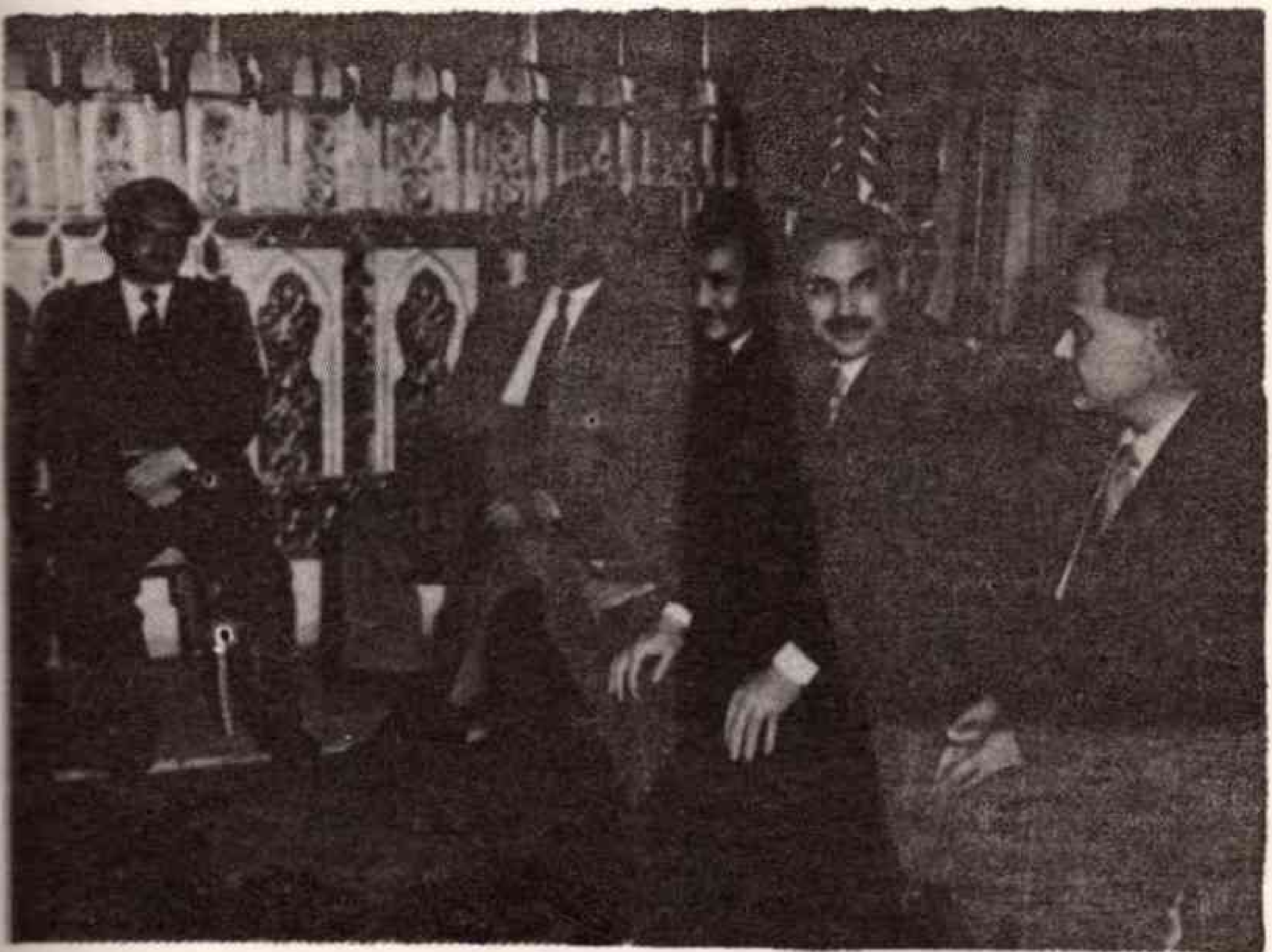
سنتان .. وحيث يغادر في بعثة الى مصر وفرنسا ، الى عالم الرؤى الجديد !



جمال الالوسي　　ابراهيم الوائلي　　الطاهر

الفصل الرابع

ينقـــد
ويتحسس الأشياء
بـــدون
رقيب او رقابة ..!



العلم في مصر

.. وقرر ان يستثمر الموهبة ، فغادر الى مصر ، وقال على ابواب (الحلة) في عام ١٩٤٧ .. وهناك في مصر سأعادل (الليسانس) كوسيلة ، وسأعادل موهبتي كغاية ، وخاطبه زميله : كن بيننا دائماً ، الكتاب والوطن ، فأنت رسمت لنا مستقبل الادب ، وكن بينهم أديباً كبيراً .. وفي لحظات رحلته او تأمله فرح بقول زميله ، وكأنه يفرح لدى انجاز عمل ، يسهم في خدمة عامة كالمساعدة على علم او انجاز بحث ، والاعانة على وضع الصحيح مكان الخطأ ، وعلى احتواء موهبة ، تؤدي مجموعها اذا التقت بأمثالها الى شيء من خدمة وطن ورفع امة وسمو بشرية ، وليس سهلا عليه ان يصمت اذا كان أضعف من ان يقول ..

* * *

لم يذهب الى مصر لكي يتحدث عن نجاح في الليسانس او يظفر براتب أعلى او في هذا الراتب يمتلك بيتاً ، فتلك امور قد تفرح اناساً ويطيرون لها من الفرح ، ولكنها لم تفرح الطاهر ، ولم تحاول ان تزحزحه ، وكأنها ـ لديه ـ لم تحدث ، وانما كان ذهابه الى مصر لمعرفة اي علم يأخذ وأي ادب يتلقاه ، اي علم

سيؤدي به الى علم أعلم ، وأي أدب ينمي فيه الموهبة الاولى ، حتى اذا وصل مصر مضى على ان العلم افضل من (الوظيفة) وبدأ يتعلم لسنة ونصف : ان الحكمة تؤخذ وتعطى بالتطور ، وان عليه ان يتطور ، وكان سلامة موسى يعلمه هذا القانون !.. ويعلمه القاعدة المنطقية التي تقول : التفاؤل يدعو الى العمل !

ونزل الى ادب مصر ، والى جامعتها ، وفي هذه الجامعة لم يجد ضالته في الاساتذة الكبار ، اذ كان أغلبهم قد توفوا ، عدا امين الخولي ، وكان احمد امين في شيخوخته ، وسهير القلماوي وشوقي ضيف في شبابهما ، وكان عزاؤه في هذه المكتبات الثرية كمكتبة دار الكتب الوطنية ، وفي هذه المخطوطات التي يواجهها لأول مـرة ، أنفس الكتب وأنفسَ المخطوطات ، كـان يغترف ويدقق ، ورأى مصر انها باطن عميق للمخطوطات العـربية ، وشيئاً فشيئاً يقترب الى مجالس الادباء اللامعين ، ويزور العقاد ويراه : متكبراً .. مغروراً .. اذ يرى نفسه ولا غيره ، ويزور تيمور فيجده : غاية في اللطف والخلق الكريم وسمو المعاملة ، ويصعب ـ ان لم يكن مستحيلاً ـ ان تجد دمثاً مثله ، ويزور توفيق الحكيم وقد تزوج حديثا ويخشى التصريح بما كان يملأ به الجرائد والمجلات من عداوة المرأة ، ويزور سلامة موسى وقد

بدا متناقضاً بين ما يعلن وما يبطن ، وزار الزيات وفريد رفاعي ، ولم يستطع ان يزور طه حسين ولكنه استمع اليه في محاضرات ، ولمح زكي مبارك ، وأظن انه كان يلمحه في (باره) المعتاد !

* * *

واذ اقترب من مجتمع الادباء الكبار ، وقع على امر مذهل .. هو ان الادباء المصريين اللامعين لم يعرفوا اي شيء عن الادب العراقي يومئذ ، واذا كان اديباً كبيراً كالزيات عاش في العراق وألّف تاريخ الادب العربي لم يكن يعرف ان « البصير » شاعر ، فلك ان تتصور الآخرين ، ولكن طه حسين كان معجباً بالجواهري في حدود علم الطاهر مما ورد في مجلة « الكاتب المصري » .. وما عرف من عناية طه حسين به لدن اقامته في القاهرة ... والطاهر دلف الى تاريخ مصر الادبي في عصر النهضة وحتى النصف الاول من القرن العشرين ، ودرس هذا التاريخ ، فأعطاه حقه ، وأثنى عليه : (... فهذه جامعتها ، وهذه صحافتها ، وهؤلاء أعلامها .. وكتبهم .. ونحن تلاميذهم مباشرة وغير مباشرة ، ومثلنا ابناء الاقطار

الاخرى) .. وكان السبب في كل ذلك ، التبكير في النهضة وايقاظ نابليون وبعثات محمد علي باشا ، واخلاص العائدين من البعثة وفي مقدمتهم الشيخ الطهطاوي .. وانتقال الشاميين (اللبنانيين) الى مصر .. واثناء اقامته في مصر زامل الطاهر احمد كمال زكي وشكري فيصل ! وذهب الى المسرح وشاهد عشرات المسرحيات، وانتقد بعضها، وكتب تعليقاً على بعضها في مجلة (الرسالة) ذاكراً سلب التمثيل، وقد نسي اسم المسرحية التي انتقدها : (ولا أهمية للكلمة التي كتبتها ..) .. وكانت (الرسالة) بدأت تضعف ،.. وضعفت قبل ذلك ، ومثلها مجلة (الثقافة) .. ثم أسهم في مسابقة أعلنتها احدى الجرائد « لعلها المصري او غيرها من صحف الوفد » حازت فيها كلمته الدرجة الثانية .. وموضوعها الاساسي : فلسطين ، واذا كان قد اشترك في هذه المسابقة فلأنه وجد فيها نفعاً ادبياً ، لكنه لا يفضلها قلبياً :.. (صحيح انها تشجع ، ولكن الاصح ان نبحث عن طرق اخرى للتشجيع .. واذا كان الرأي هكذا فهم السبب في عزوفي عن الاشتراك في المسابقات .. زد على سوء ظني بضمائر المحكمين ..) ..!

وتفاعل في مصر ، في العلم خاصة ، وتفاعل في كتبها ، في التراث خاصة ، وتفاعل في الاحداث التي خيمت ، وفي أحداث فلسطين خاصة ، وكان لحرب ١٩٤٨ أثرها البليغ في نفسيته ، لدرجة من درجات الكآبة .. على هذا الباطل العالمي ، والخيانة في الحاكمين العرب .. اما الشعور المصري ازاء هـذه المحنة فيصفه الطاهر بأنه : (... متوتر جيد ، وابن الشارع متحمس ولكنه لا يثق بالحكومة وبفاروق خاصة .. وعنيت الجرائد على اختلافها بأخبار الحرب لحظة لحظة ، ولكنها البراعة الصحفية أكثر منها شيئاً آخر ..) .. وأزيد ، انه شاع في تلك الفترة بين الناس خبر الاسلحة الفاسدة التي جُهِّز بها الجيش المصري .. كما عرفت خيانات القادة .. وتواطؤهم .....!

زادت « فلسطين » في عوامل تشاؤمه القديم .

بيئتان

وتوثقت فيه الرغبة بأن يوسّع علمه ومداركه ، فذهب يطلب هذا العلم من باريس ، وشدّ الرحال عام ١٩٤٨ الى بلاد الافرنج ، وكانت باريس مهبط علوم العصر ، منها ينطلق الفكر

الاكاديمي ، ومنها تصدر روائع الفكر العالمي ، وبسرعة ذهب الطاهر الى هذه البيئة ، ولم يتصاغر ، ولم يتكبر ، محتفظ بتوازنه في تكوين شخصيته ، مستوعبا قدر ما كان لبيئته وامتا من كتب وعقل وحضارة .. وحق . ولم يتـرهبن ولم يتضاءل احساسه ، بل وقف على باب جامعة السوربون يقول : أعرف ما آخذ وما أدع ، وكأنه اراد ان يعلن امام نفسه : لي تاريخ ولهم تاريخ ، وهذا التاريخ العربي الاسلامي الذي نسج الطاهر وبلوره في صيغة الشاب القادم من الشرق كفيـل بأن يجعله يواجه اضواء الحضارة الجديدة بثقة ولا أقول غروراً ، وبوعي قومي ولا أقول تعصباً ، فأقبـل الى علم باريس وأسـاتذتهـ ومكتباتها ، دون ان يضيع فيها ، ودون ان يشتط به المنهج دون ان يتفرنس او يتقوقع او ينبهر رغم سحر انبهار البيئـة الجـديدة ، والى ١٩٥٢ .. أمضى الطاهـر حقبة نفسيـة عـلى مسرح باريس الكبير ، فقرأ فيه كتاب الادب الفرنسي بفصوله في الشعر والقصة والرواية والمسرح والنقد وقرأ .. لاولئك الذين كان يسمع عنهم في العـراق ومصر ، وفيهم جان جـاك روسو وشارل پكي ودوده ، وغيرهم كثيرون ممن وردت اسماؤهم في

لمجلات الفرنسية والجرائد كجريدة (لموند) التي كان يتابع
نيها صفحة الثلاثاء التي يتولى مهمة النقد فيها أميل أنريو ،
وقد أفاد منه كثيراً بل اعجب به اعجابا ، ثم يطالع (الأخبار
الادبية) وهي الجريدة الاسبوعية للآداب الفرنسية ، وكان
يطالع ويحافظ على بديعه ، ويستلهم هذا البديع استلهاماً ،
يستلهم لغته ونحوه وصرفه وما جاءت به العربية التي أتقنها
واستوعبها في الحلة وبغداد والقاهرة استيعاباً جميلاً
ومتفاعلا ، ويخرج من الجرائد وتأخذه (موسوعيته) الى
معارض الفن والفرق المسرحية ومتاحف الآثار ونوادي الشعر
والادب والسياحات الادبية ، وهنا .. في هذه الاندية يتنوع
ذوقه ، ويزداد ثقة بأن الاديب كلما وسع ذاكرته صار يدرك
(الاختصاص الخاص) من زوايا عديدة ، واكتشف ان النفاذ
الى علوم الادب كلها ، يتيح له ان يبصر الاشياء الحقيقية
الصغيرة التي تغيب عادة في الفن الواحد او الاختصاص
الواحد ، وكانت هذه (الحقبة النفسية) التي قضاها في
باريس تعلمه شيئاً مهماً ، وهو : ان الاديب اذا اراد ان يتجاوز
بشهرته وبفنه ، حدوده الاقليمية ، لا بد ان يستند الى
الاصالة ، والاصالة بمفهومه تعني (المحلية) وما هؤلاء

الادباء الفرنسيون (المشهورون) خارج حدودهم إلّا إذا كانوا صادقين بمحليتهم ، فصوروا قومهم ببراعة وصوروا وجداناتهم ، صوروا اللغة والطبقات والعادات والتقاليد ونقلوها من مستوى الى مستوى ، من مستوى (المادة الخام) الى مستوى (الجوهر الشفاف) فاستحقوا القراءة !

* * *

وفي مقاعد الجامعة كان يناقش استاذه : لِمَ هذا ولِم ذاك .. ولماذا .. أي أن ذهنه كان في جدل مستمر نحو الأعلى ، وأعجب بالاستاذ « پيير مورو » لما يقدم من علم وينير من فكر ، لأن الاستاذ في فرنسا يريد ذهناً مناقشاً لا طالباً مجرداً ، يريد حركة في الذهن بعيدة عن الألقاب ، ولأن الطاهر في الاساس كان ذهناً نشيطاً تزدحم فيه الحركة ، وهو في جدل مع نفسه ومع الآخرين ، وفي الجامعة تساءل الطاهر : اين هي أصول (منهج البحث العلمي) وفي لحظة درس هذه الاصول على المسيو بلاشير ، درس فن البحث وطرقه ومسالكه ، وبلاشير يعرفه أدباء العربية ، بأنه ألف كتاباً في المتنبي ، وترجم القرآن

الكريم ، وغير هذا غير قليل .... وسألت الطاهر عن الاختلاف بين استاذ جامعاتنا العربية وبين الاستاذ الفرنسي ، فنقل هذه الصورة : (الاستاذ الفرنسي متخصص في علمه والمادة التي يدرّسها ، ويجتهد طويلاً في تحضير موضوعه الذي يقرر تدريسه على وجه منهجي رصين ..) ونقل لي صورة اخرى عن طريقة التدريس الاكاديمي في السوربون : (هناك طريقة متبعة وهي ان يلقي الاستاذ محاضرته على مدرج كبير قد يحضره (٥٠٠) طالب وطالبة او أكثر .. يلقيها إلقاءً بعد ان أحسن تحضيرها ، وهو يستعين بجزازات معه .. ثم يتوزع الطلبة بأعداد محدودة ليوجههم الى البحث او يشرح لهم ما غمض ... مدرسون او معيدون ..) ..!!

* * *

لكن الطاهر لم يجد فرقاً يذكر بين الانسان الاوربي (الفرنسي) والانسان العربي .. واذا تهيأت الثقافة زال الفرق ، وربما تفوّق مثقف عربي على مثقف فرنسي .. اما الاديب الفرنسي فيحسبه الطاهر اكثر اعتزازاً بشخصيته وحريته ورأيه .. ثم انه يستطيع ان يعتمد في عيشه ـ وعيشه

السعيد احياناً ـ على قلمه .. وقد لاحظ في باريس ، ان الادباء الفرنسيين لم يكونوا يقرؤون الادباء العرب ، وكيف يقرؤونهم وهم لا يعرفون اللغة العربية .. الا طه حسين في كتابه (الأيام) الذي ترجم وتعددت طبعاته ، ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم ، لكن كتبهم ليست ذات مكانة تذكر ، اي انها لم تدخل في الرأي الادبي العام .. اما نشاط الطاهر ذاته في التأليف فقد شغل بالتعلم والاطلاع واعداد رسالتين علميتين ، وربما كتب مقالات يختلس لها من وقته ويبعثها الى مجلة (الغري) النجفية ، في السنة الاولى من وجوده هناك .. واحدة عن « صراع » المجموعة القصصية الاولى لشاكر خصباك ، وثانية عن « عصر القرآن » من مؤلفات الدكتور البصير ، وبعث الى (الغري) بمقالة عن « عهد جديد » المجموعة القصصية الثانية لشاكر خصباك ، ولكن المجلة لم تنشرها ، لربما كانت من الطول بحيث تستغرق عدداً كاملاً .

رسالتان

وفي هذه الخمس سنوات التي عانى فيها الطاهر معاناة العلم في باريس ، كانت الحصيلة : دكتوراه الدولة ، ويقتضي

هذا النوع من الدكتوراه .. رسالتين ، ويفضل في الثانية منهما ان تكون تحقيقاً .. (وليس في نظام فرنسا في الدراسة للدكتوراه مرحلة تسمى « الماجستير » ..) ، اما رسالته الاولى ، فهي : « الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي » وسألته عن رأيه فيها الان قال : (انا مرتاح منها ، اخترتها مرتاحاً وبقيت الى الان أشعر اني قمت بعمل يجب ان يعمل ، اذ اخترت الموضوع ودرسته ، وحين اعدت الطبعة العربية (ثانية سنة ١٩٨٥) لم أجد مهماً أضيفه الى الطبعة الاولى .. ولم أغير رأيي في أي شيء على طول ملازمتي الموضوع قراءة وكتابة وتدريساً .. واما رسالته الثانية للدكتوراه فهي تحقيق « درة التاج في شعر ابن الحجاج » ويفيد الدكتور الطاهر ان الاستاذ قد فرضها عليه فرضاً ، ومع هذا ، فقد أفاد منها كثيرا ، اذ اطلعته على عالم خاص من الشعر العربي لا تسمح الدراسة المنهجية بالاطلاع عليه .. وعلى شاعر عجيب غريب بين شعراء العرب (هو ابن الحجاج) وما مثله من شعر يترجم بعض فصول عصره .. ولكن الذي يقال في هذه الرسالة : (انها لم تجد ولن تجد الناشر لما اتصف

به شعرها من سخف ، وفي السخف مجون ، وان عرض بقصد الضحك والاضحاك .. كان العصر العباسي يقبله ، وبلغ سعر ديوان ابن الحجاج فيه (٧٥) دينارا ، وتناسخه الناسخون وارتزقوا به ، حتى ان محدثاً نسخه عشر مـرات) .. ورأي الطاهر في هذه الرسالة ، الآن ،.. (المهم اني لم أغير رأيي فيها ولست نادماً على ما اكتسبت بها من علم ، ولكنها لم تنشر ولن تنشر بسبب من « حياء » يسود الفكر العلمي العربي المعاصر) وربما كان استاذه يشجعه على كتابة هذه الرسالة ، اذ ان في الادب الفرنسي مناظراً لسخف ابن الحجـاج وذلك في قصص « رابليه » وهي تطبع ويعاد طبعها وتدرس !..

هذا هو ابن الحجاج ، لكن ما قصة درة التاج هـذه ، يقول الطاهر : (هي مختار من « أسخف » السخف من شعر ابن الحجاج ، اختارها شاعر اديب بعد قرن من زمانه .. هو بديع الزمان الاسطرلابي) ، وللافادة فان القرن الرابع يبقى مجهولاً او ناقص الصورة ما لم يطّلع الباحث فيه ، مؤرخا كان ام اديباً ، على شعر ابن الحجاج .

وبالاضافة الى حصوله الدكتوراه ، فان شهادة قد نالها

بجدارة ، وهي « دبلوم الحضارة الفرنسية » ، وهذا الدبلوم يعادل الدكتوراه وأزيـــد ، لانه وضـع الطاهر عـلى الطريق العلمي للادب الفرنسي ودراسته ، وهيّأ له الاطلاع الرصين على الاصول الحقيقية للاعلام الفرنسيين ، كانت رحلته في باريس رحلة وازن فيها بين ذاته والعالم ، بين تراث وتراث ، فأدهشته التجربة !

الطالـب الاديـب

عاد الان الى دار المواهب (دار المعلمين العاليـة) لا ليجلس في مقعد الدراسة ، بل يعتلي منصة ويعلم المنهج ، هو استاذ يبني ويصوغ قيما ، ويقوّم فئات تتعطش الى الموهبة ، وفضيلته في هذه (الاستاذية) انه ليس (استاذاً رقماً) وانما المربي اجيالا ، واكثر من هذا ، انه يحول الطالب من رقم الى كائن ، يدرّسه ويرشده ويتابعه ، حتى يدرك مداه ، وعلى قدر الموهبة التي فيه ، هذه هي فضيلة الطاهر في حياته الجامعية .. يريد الطالب ان يكون اديبا !

* * *

وأسس لهذه الفكرة : (جماعة الانشاء الادبي) وهي جمعية وهمية بمعنى انها ليست كباقي الجمعيات لها رئيس ا سكرتير واعضاء .. وسماها الانشاء الادبي وكان يقصد بالانشاء ما هو معروف من امر الشعر والقصة والمقالة .. وكان يدرس فيما يدرس « الانشاء » وانه حين يدرس ينفذ الى شخصيات الطلبة ، ليعرف قدرات كل منهم ، ويرتاح كثير لمخايل النبوغ ، وقد رأى منها ما يشجع على ان يبرز هذه الكفايات خارج جدران « الصف » ويفيد من كان يدرس على يديه في بداية الخمسينات ، ان الطاهر كان يختار عددا من الطلبة الموهوبين ومعهم قصائدهم وقصصهم او مقالاتهم لتلقى في جمهور واسع .. يملأ قاعة دار المعلمين العالية ويفيض .. ويختار عريفا للحفل اديبا ذا صوت منهم ، حتى يشرع هو يقدم لكل متكلم ويعقب على كل كلام تعليقا نقديا موجزا يخدم الطالب ويرتاح اليه الجمهور .. وكان يطعم كل امسية بشاعر متخرج في الدار : بدر السياب ، لميعة عباس عمارة ، عبدالجبار المطلبي ، ويفيد المنصفون او المعارضون لفكر الطاهر ، ان العمادة كانت تتهيب من تطور هذه الجمعية ، وتلوم الطاهر بل كاد يتلقى (تأذياً) غير منظور

من زملائه .. ولأن هذه الاماسي اخـذت تتسع عـلى وجه من الخطورة ، وزادت هذه حين دخلها السيـاب ، ومن الاسباب الاخرى .. يقول الطاهر : (اني كنت اتصرف تصرفاً فردياً « وهذا عجيب » فلا أخبر عميداً او قسماً ولا أدعو احداً منهم لظني انهم لا يرتاحون الى مثل هذه التظاهرة الادبية .. جموداً في الذوق او حسداً او قعوداً عن العمل ..) .. وقد تخرج على يـديه في الدورة الاولى من هم في مصـاف الادبـاء : سعدي يوسف ، محمد جميل شلش ، جميل نصيف التكريتي ، ناظم توفيق ، زكي الجابـر .. وتليهم دورة وفيها الشـاعر يـوسف الصائغ وتليه دورة وفيها : جلال الخياط وعناد غزوان وهادي الحمداني .. وهكذا في كل دورة اديب وشاعر .. ولكن بحسب اجتهادنا صار الأمر في تضاؤل حتى كاد الروض ان يصوح وصوح فعلا ، ويقول الطاهر : (استحال التدريس ضرباً من « مكافحة الامية » ..) ، وكان يشجـع الطلبة عـلى الابداع والشخصية ويثري ملكـاتهم ، سواء كـان محاضـرا في كلية الاداب ام مدرساً في دار المعلمين العالية .. سواء درس النقد الادبي ام تـاريخ الادب (العصـور المتأخـرة) ام المطالعـة

(البيان والتبيين والامالي والحماسة) .. والانشاء والمعلقات والادب الاندلسي !

* * *

وفي محاضراته كان يبدو للطلبة جديدا مجددا (وكل اجيالهم تحدثوا بأمانة) .. بما في ذلك اسئلة الامتحان والجد في تصحيح الدفاتر ، وزامل من اساتذته الذين درسوه في هذه الدار الدكتور البصير ومصطفى جواد : (وبقيت تلميذا لهما ولم أرني يوما زميلا .. والى الآن .. والباقون كثيرون .. ولقيت على يد بعضهم من المرارة ما لا يذكر !!) .. وعلى ما ينقل لي احد الاساتذة الذي كان يومئذ طالبا في حضرة الطاهر .. ان الطاهر ، كان يعد المحاضرة اعدادا مخلصا ، وكان يؤيد المحاضرة بمصادرها ، ويستثير الاسئلة والنقاش ، وربما اعتمد في بعض الموضوعات على النقاش وحده ، مع احترام رأي الطلبة ، وكان يطلب من الطالب سعة الأفق والشخصية والمطالعة الخارجية وعدم الاكتفاء بمادة الدرس المحدودة .. وكان في الامتحان يأتي بالاسئلة التي تستثير الشخصية ، بعيدة جدا عن « الدرخ » وربما كانت بعيدة عن المادة المدرّسة

نفسها ، وكان يعطي الدرجة .. على ما في الدفتر من شخصية ، وهي عنده دلالة على الأفق والاطلاع والتصرف .. وينقل الطاهر انطباعه عما كان قد وجده في الدراسة الفرنسية ، وهل في ذلك اختلاف عما هو موجود في جامعاتنا : (يختلف بالطبع .. فهناك يدرسون ، ونحن نعلِّم .. هناك الافق الواسع وهنا الافق الضيق ، هناك الاستاذ سيد الموقف ، وهنا التلميذ الذي يطلب النجاح بكل سبب وبأيسر سبب .. ثم المناهج : اننا ندرس في الجامعة تاريخ الادب بعصوره ، والفرنسيون ينتهون من هذه المرحلة بالدراسة الثانوية ، ومن ثم في الجامعة يختارون موضوعات صغيرة يعمقونها : ديوان ، مسرحية ، كتاب ، مرحلة من حياة اديب .. وأسئلتهم في الامتحان تستثير الفكر والشخصية) .. وربما طبق الطاهر الطريقة الفرنسية في الاسئلة .. وفي توجيه الطلبة الى منهج البحث ، وهو يعترف بذلك ويقول : لا ضرر !.. وفي هذه الحقبة الممتدة من عام ١٩٥٢ ـ ١٩٦٣ ألّف الطاهر كتباً مهمة في تاريخ الادب العراقي سنعطيها حقاً في فصلٍ قابل !

الــى الســـعودية

وشاءت الصدف ان ينقل علمه الى السعودية ، الى جامعة الملك سعود (جامعة الرياض) وهناك يبدأ جولة جديدة في نشر آرائه وافكاره ، وهناك ايضا تعلقت بآرائه وافكاره أجيال عربية تــرى في العلم مادة التــطور . ونجح .. بــالقيــاس الى رضــا الجميع ، وبالقياس الى ثمرات الروح التي انتشرت في اكثر من حقل اجتماعي .. وبالقياس الى شهادات التقدير التي منحت اليه ، وكان كل هذا الفخر الذي احتازه الطاهر ، تأكيداً على ان في الطاهر ذاتا علمية تفيض دون عناء وتفيض دون منة !

* * *

وخلال خمس سنوات ونصف السنة ، وهي مدة إقامته في السعودية انتج الطاهر وصنف كتباً ، وصنف مشاريع لكتب في الادب وتاريخه ، وتهيأت له فرصة ان ينشر بحوثاً ومقالات في مجلات الاديب والاداب ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، وأعد بدايات لعدد من المؤلفات ، كما جمع مادة غزيرة لمشروع (معجم المطبوعات العربية / السعودية) وهو تصرف شخصي بعلم تصنيف الكتب ، وكــان في كل عــطلة صيف يرحــل من

السعودية رحلة الكتب والعلم الى لبنان وما تحتوي لبنان من عوالم الادب والمصادر ، وفي كل رحلة يؤلف عـالماً جـديداً في حياته ، ويمتد الى قلوب الادباء العـرب والى دور النشر ، الى المعرفة الكلية ..!

* * *

ولقد وجد في السعودية ادبا في شعر ومقـالة وبدايـات قصص .. وسارت كلها مع النقد والبحث والتأليف قدمـا مع الايام .. وفيها الجديد والجيد ، وكان هذا الجديد والجيد يدور في حركة ادبية حية نشطة ، نجدها الآن وقد اثمرت وشرعت تفرض نفسها بما لها من مـؤثرات .. في مـؤتمرات ونـدوات ومجـلات ، ويقـول الطاهـر : (... والمـؤسف اننـا خـارج السعودية لم نكن نعرف عن هذه الحـركة شيئاً يذكـر » او لا يـذكـر » ..) وهي مـرحلة خصبـة عـاشهـا مـع الادب السعودي ، ومع اساتذة في جامعة الريـاض ، منهم الدكتور منصـور ابـراهيم الحـازمي والدكتـور احمـد محمـد الضبـ والدكتور الفده والدكتور محمد الشامخ : (وانعم بهم جميعاً علماً وادباً وافقاً وخلقاً) .. ويظهر من خـلال الرسائـل التي

ارسلت اليه من السعودية ، ان الطاهر اقترب اقتراباً صميمياً الى بعض الادباء ، ومنهم : حسن عبدالله القرشي وعبدالله بن ادريس .. ولكن اقامته تلك هيأت له صداقة متأخرة بأديبين جليلين هما : الشيخ حمد الجاسر والشيخ عبدالعزيز الرفاعي .. ورسائلهم لا تنقطع وليس اكثر منها او أحب اليه منها ، وقد قرأت بعضها منها في بيته .. واذا اردنا ان نؤرخ للطاهر في السعودية ، فان أجل ما نؤرخه هو اطلاعه على الادب السعودي وتبحره في تياراته .. وانصرافه الى البحث والتأليف والكتابة (الخصبة باثراء) وولوجه النشر في الدوريات العربية !.. ولو سألنا الطاهر عن المرحلة التي آثرها في حياة التعليم والتدريس ، فماذا يفضل : (طبيعي ان تكون مرحلة التدريس الجامعي .. ولكن هذه امتداد لما سبقها ، ولو بقيت مدرساً لزاولت الكتابة وواصلتها ، ولكني أبقى محدود الأفق ، ضيق المدى ، أمضي الجهد والوقت فيما هو اقل قيمة ، وأحسبني أزاول المهم .. والمراحل كلها تسهم في تكوين الانسان .. والاديب .. ولكن لولا باريس لما كان شيء من هذا الذي تراه أهلا) ..

* * *

وتقاعد قبل سنوات .. مخلصا من « عذاب » طويل ، ففرح بالتقاعد ، ولم يشعر انه خسر شيئاً خلفه في الجامعة ، بل كان شعوره شعور غبطة ، لأن ادباً سيربحه ، ولأنه ربح الادب ، ولم يترك في هذه الجامعة العراقية إلّا الاخلاص والجد والسمعة والفكر والحرص على الوطن والحقيقة بعيدا عن أية منفعة ذاتية وارتباط مريب .. وشعور غبطة لأن التقاعد لا يحول - ولم يحل - دون التفرغ للتأليف والكتابة واتمام مشروعات ادبية ما كان لها ان تتم لو بقي في ذلك الجو الجامعي المشحون بالاتكالية !

الغـــرور

ومنذ نشأ الطاهر .. كان معلماً وكاتبا ، وقد درسنا حياته ، وهو المعلم ، وهو المدرس وهو المدرس الجامعي ، فكانت حياة تحفل بالاستقامة ، يستقيم في عدل ، ويستقيم في نزاهة ، ثم يستقيم في ثلاثين جيلا .. دربهم على الحكمة .. على ان لا يكونوا « مغرورين » .. ودربهم على المثل الصالح .. على ان لا يغتروا بأنفسهم ، وآفة العلم : الغرور ، لكن ماذا لو كان الطاهر كاتباً ، وهو الكاتب ، هل كان متأثراً بالغرور ، اي

متأثراً بهذه الامراض التي اصابت غالبية الكتّاب ، وهي امراض الذات والنفس والتضخم والتعالي و « التميز » من المجتمع .. قال الطاهر : (لنبحث في هذه البيئة) ويعني بها البيئة التي تنتج كتابا مرضى ، يعانون فيها : نقصاً في ارادة ، وانفصاماً في شخصية ، وخوفاً من شيء مجهول .. أو ..

* * *

ومن الطبيعي ان تتنوع الامراض بتنوع امزجة الكتاب ومجتمعاتهم ، والنهج الذي ربوا عليه ، فمن هؤلاء : (من يحب المال حباً جماً) .. ومنهم من لا يملك المبدأ والموقف والشخصية ، ومنهم من يمالىء ، ومنهم من يخدم باطلاً يظهره بمظهرالحق، وهؤلاء كثيرون في مجتمعنا العربي ، لكن الكاتب الحق ، الموهوب فعلا في ذهن الطاهر .. هو : (أقدر على تذويب امراضه ، واقدر على الترفع عن الدنايا .. حتى ليضحي كثيرا ، وربما بحياته في سبيل رأي او مبدأ .. وهذا حدث في التاريخ كما هو معلوم ....!) .. والغرور جزء لا يتجزأ من الانسان ، بحكم الحياة اليومية ، الاجتماعية ، وربما الطبيعية ، ويأتي ـ مرة ـ بسبب من قوة صاحبه وشعوره

الخاص بهذا التفوق ، ويأتي - مرة - بسبب من ضعف يداوره صاحبه بالغرور الظاهر على غير اساس .. وقد ينجح هذا كما ينجح ذلك ، فيصلان الى امتيازات على الارض ، اما هذا الغرور في الادباء - والمبدعين - فهو في تحليل الدكتور الطاهر : (.. أخص وأعم اذ يرون أنفسهم « يخلقون » أشياء لا يستطيع الآخرون مثلها او ما يقرب منها ، ويرون الناس يدهشون لعلمهم، ويعجبون به .. ويزيدون من احترامهم وتقديرهم .. فيزيدون بذلك في أسباب الغرور) ولا تجد كاتباً بدون غرور ، مع اختلاف في درجة اظهار هذا الغرور ، وانه لدى الادب الوجداني أظهر ، اما في الموضوعي فقد يلبسه الكاتب شخصاً يماثله في الشعر او في اي لون ، ويقول الطاهر : (وربما جاء غرور الكاتب الصغير على وجه أوضح من غرور الكاتب الكبير ، يجيء ليغطي نقصه ، ومن ثم يفضحه الفرق بين غروره العالي ونتاجه الواطىء ..) .. ومن يدري فقد يؤدي غمط الحق الى ضرب من الغرور ، يبدأ بالشكوى ويتدرج الى الفخر ، والفخر ضرب من الغرور .. ويخرج الطاهر بنتيجة : (ان الناس تجمع على ذم الغرور .. ولكنهم لا يتخلصون منه بوجه وآخر ، ويلجأون في سبيل ذلك الى

التــواضــع ، والتــواضــع درجــات ، ولكنــه يخفى وراءه غرورا ..) .. ويخرج بنتيجـة اخرى :.. (.. ان اصحـاب المواهب الكبيرة مغرورون ـ دروا ام لم يدروا ـ بحكم مواهبهم التي تشعرهم بتفرد خاص .. وقد تشعرهم بأنهم يعيشون دون التمتـع بحقوقهم في الحيـاة والمجتمع ، ويـظهر هـذا الغرور صريحا ، واذا لم يظهر صبريحا فهـو كامن في نفس صـاحبه يتمكن منها وقد يتحول الى فخر او شكوى او هجاء ..) وأكبر بلية الغرور بلية اصحاب المواهب الصغيرة او الذين يتخيلون لأنفسهم المـواهب ، فيملأون الارض ضجـة .. اما الدكتـور الطاهر فيحدد موقعه في هذا الغرور : (اعرف حدود الغرور واعرف حدود التواضع واعرف معدلهما وهو الثقـة في حدود الموجود بل فيما هو أقل من الموجود لأني اقيس الذي لدي ـ وما حسبته يوماً خارقاً ـ الى ما لدى الكبار والعباقرة .. قياساً غير متصنع ..) .. وقد أورد الطاهـر اسماء ادبيـة في الغرور ، فمن ادباء العربية في العصر الحديث : الدكاترة زكي مبـارك (وكان المرحوم زكي مبارك يضفي على نفسه لقب « الدكاترة » حينما ينشر في الصحافة ، بصفته حائزا على اكثر من شهادة دكتوراه) .. واما في العراق فأمسك الطاهر عن ذكر الاسماء ،

لكنه سمع بالتجربة ان روايات تروى عن الشاعر الزهاوي تدل على غرور ، ثم يتذكر : (.. لم يلحظ فيَّ احد غرورا ، ويلحظ التواضع ، ومأتى هذا التواضع رؤية ما يتعرض له المغرور من احتقار وما يدل عليه من سخف ، ومأتاه كذلك قياس النفس الى غيرها من العظماء حقا على مر التاريخ .. فما هي من اولئك بما يدعو الى الغرور..) .. ويقول الطاهر كل شيء .. يقول انه يفرح كثيرا بالبحث وبالكتاب وبالمقال .. وكأنه حقق امـراً .. يفرح ويزداد وعيه بنفسه ، ثم يزداد الفرح وتزداد الثقة لدى تلقيه ثناء صادقا يشخص سمات التجويد ، ويشخص احياناً ما لم يتنبه له .. ولأن ألغرور بمعنى ان يرى الكاتب نفسه أفضل من الآخرين ، ويرى لنفسه من الحق على الآخرين ما لا يرى ما عليه من واجبات .. ويعلو على الناس ويتعالى ، هذا الغرور بعيد عن الطاهر وهو بعيد عنه !

* * *

ومضينا الى المغرورين نعاتبهم ، قال : (.. لي هاجس بان قدرتي على النتاج الادبي تتضاءل او تقف عند السبعين من العمر » سنة ١٩٨٩ » ولكن الذي ليس هاجساً وانما هو طلب

أكيد لما بعد الموت : (١) دفن في البلد الذي اموت فيه (٢) بدون بكاء ما او حزن بما فيه لبس السواد وملحقاته (٣) دون اقامة فاتحة وما اليها) !.. فحزنت على طلبه ، وفرحت على هذه القدرة في حزنه ، وحزنه يبحث عن ملاذ في اللانفس ، في الطهر ، ويبحث عن ملاذ في التاريخ ، في اللاجسد .. وفي قرن مضى قال غ . ل . بور : « تتكشف الوجهة النفسية على الدوام من خلال فائدتها للقانون او للنموذج ، بينما تظهر الوجهة التاريخية بالانتباه الذي تدخره للفرد » .. أكان الطاهر حقاً يحزن حزن الأمراء !

ذكريات هذا الجيل !

وجمعت في ذاكرتي صور التاريخ من الطاهر ، وكانت تندلع حرة ، سخية

ـ .. ولكننا لم نسمع بكلمة اليسار .. وربما لم نسمع بكلمة الاشتراكية ، وربما سمعناها ـ نحن الطلبة ـ مترددة مع احاديث الانقلاب والانقلابيين .. كنت في الصف الثالث المتوسط حين حصل انقلاب بكر صدقي .. وكان الشيخ رؤوف الجبوري شاعر الحلة المتميز بالحماسة السياسية ، وبالمعارضة ، وبشعره في ذلك .. ويذكر له مع الشعر اصدار مجلة محترمة في الحلة ويطبعها في بغداد ، وهي مجلة (الحكمة) صدر عددها الاول في تشرين الاول ١٩٣٦ ، وتهيأ لي ان اقرأها ، واقرأ فيها خاصة شعره .. والمس الحياة والتدفق والتوجه الاجتماعي ، دون تحديد او تبين خاص ، واكثر ما يدلني عليه عامل خارجي هو ضيق السلطة الحاكمة بالمجلة ، وبصاحبها ، وما هي الا اعداد حتى حكمت عليه بالغاء الامتياز . فلم ييأس او يقعد وانما حصل على امتياز جديد لمجلة أشد دلالة ومنذ اسمها : (الغد) ، ولم يستطع ان يصدر اكثر من عدد واحد (حزيران ـ ١٩٣٧) .. ماذا يمثل الشيخ رؤوف ؟ انه بالنسبة لنا ولعامة الناس وطني يطالب بحقوق الناس من حكومة ليست وطنية ، ولا يعبأ في سبيل ذلك بالتعب والعنت والاذى .. اما ما يمكن ان يمثله ـ كذلك ـ برأي التاريخ الفكري ، فهو اليسار ، وربما ادعت المجلة او صلة بها او اعترافاً بمجهودها احزاب في اليسار ..!

وقلت له : هل من تأمل في نفسك .. قال :

ـ الامر طبيعي بين الجد والهزل ، ففي الهزل تقول كل شيء ، وأي شيء سريعاً جازماً لتضحك (بضم التاء) وتضحك (بفتح التاء) ولتنال « بالسفاهة » ما لا تناله بالعقل ، اما الجد فجد ، وانه لمسؤولية لقوم يفقهون . واذا كان افلاطون لم يعرف نفسه ، وارسطو ، والسفسطائيون ، ومن جاء قبلهم ، ومن جاء بعدهم ، وكلكامش ، والجاهليون من الذين سألوا عن الروح .. والاستاذ القدير العالم الذي كان يدرسنا في القاهرة الفلسفة الاسلامية فوقف عند الآية : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » طويلاً طويلاً يمتح ويستنزف ولم يبلغ القعر واعترف بالتقصير وأعرب عن الجهل .. إذا كان الأمر كذلك ، فكيف اعرف انا « العبد الفقير » نفسي ؟.. وماذا علم « علم النفس » من النفس ؟ انه ما زال عند القشرة على الرغم مما غار به فرويد واصدقاؤه واعداؤه من الطبقة السفلى ، غاروا وغطسوا وخيل اليهم انهم نزلوا الى العقل الباطن ووقعوا على قرار الغريزة ، ومن لا يعرف نفسه في الاحلام والاوهام كيف سبيله اليها في « الحقيقة والواقع » ؟!



مع ادباء مهرجان شوقي ١٩٥٨ في دعوة الوزير كمال الدين حسين

الفصل الخامس

أرســـى
تقاليد فنية
فــــي
علم المقالة الأدبية ..!



خطيباً بالقاهرة ١٩٥٨ - مهرجان شوقي

الصانع والمبدع

لو وضعت مقالة الطاهر بين مئة مقالة غفلا من اسمه ، لشخصتها ، وقلت : هذه مقالة الطاهر .. وقد وضع ثقله الروحي والاجتماعي في (فن المقالة) منذ ابتدأ يكتب بمنهج في مجلة (المعلم الجديد) في عام ١٩٥٥ ، اي منذ صار له قراء ينتظرون رأياً من آرائه ، او تلامذة يتابعونه في الدرس والصحيفة والكتاب ..

* * *

كتب المقالة بمهارة وادراك وادار عناصرها البديعية ، فاستحق لقب (كاتب المقالة الاول ، في العراق) ، ولا اقصد هذه المقالة التعليمية ، وانما المقالة الفن . التي تقرب من الشعر والقصة ، حينما تمتزج بالخيال ، وحينما تتحول تجربتها .. الى (وعي + سهل + ممتنع) .. ويدخل هذه التجربة الى (التأنق اللغوي) .. وهكذا تختمر هذه التجربة من خير أو شر ، تبسط او تعقد ، وتختلج في النفس وتلح عليه تريد الخروج من مكامنها ، فيسرع الطاهر الى القلم .. ويسجل ما تمليه التجربة (المنفعلة) و (المتفاعلة) ، بمنهج نظري

مدروس معمق .. ثم يعطي للعقل حصته ، فيعيد النظر فيما كتبـه ، خفيفاً ، فيبـدل هذه الكلمـة ، ويكمـل تلك الجملة ، ويشهق ، ولا يهمه بعد ذلك .. طول المقالة او قصرها ، زيادتها او نقصانها ، مـا دام بناؤهـا قد تم بـرضا منـه (بخيـاله وبعقله) ، بل لا يهمه الاستقصـاء والاستيعاب في مقـالته ، وانما يهمه ان يترك مجالا للقارىء .. يزيـد ويلاحـظ ويدقق (ويفتش بوعي منه) عن الجوانب التي يريد البحث عنها .. اذن كتب (فنـاً) ، من فنـون الادب ، وتـرك الحكم عليـه للآخرين ، ويقول عن فنه : (قلت هذا اعتمادا على ما اعرفه في قلمي من سمات خاصة بالدافع وسبيل اخراجه وادارته ، وقل بمـا اطمح اليـه من ان يكون لي اسلوب ، واذا كـان للمـرء اسلوب ، دل عليه ولا نقاش في ذلك ..) .. ولم يفـرض هذا الاسلوب فرضا عـلى القارىء ولا يثقله بشيء ، وانمـا يجعله يحسه ، ويسير معه ، وهما معا ، يتقاسمان المضمون والغاية والمتعة والدراية بالأشياء ، وزد .. انهمـا وفي وعي مشترك ، الطاهـر والقـارىء ، يبحثـان عن نبـل اجتمـاعي في ظاهـرة اجتماعية او قضية ادبية ، أو وجدان فكري ، في هذه المقالة الفن !

التكنيك

كتب الكّتاب العراقيون (مقالات) على انها مقالات ، ولكنها ومنذ العقد الاول من هذا القرن ، كانت تجري بوعي (الرأي) او بوعي (البحث) او بوعي (الدراسة) ولم تولد إلّا بعقل الطاهر ، بمزايا أوصلتها ، ودفعتها الى المقالة الأدبية ، ويحق لنا ان نضع الطاهر في الركب الذي أفاد من شاعرية جان جاك روسو ، والجفاف الطري في عبارة ستندال ، وفي متانة عبارة اندره جيد ، هذا الركب الذي يكتب ويصمم ، يكتب ويتخيل فيما يكتب ، ويتفنن في الكلام ، تفننه في الالفاظ والمشاعر والاساليب ، تفننه في (عنصر الانبهار) .. فهو يبهر القارىء في نهاية المقالة ، يبصره على شيء ويعلمه بشيء ، ويمنحه دفئاً بدون تكلف مقصود ، وكان لدراسة الطاهر في باريس ، وإعجابه بالنصوص البارعة القديمة لمدرسة روسو وفولتير أثر في هذا الانبهار ..!

وانه لولا تكنيكه الخاص لما كان هناك ابداع متميز في مقالته !

* * *

وتكنيكه يقوم على العناصر التالية ..

١ - لغة ذات بناء متين ، عذبة الجرس ، تدخل في ايقاع متكامل ، بمفردات منتقاة تبتعد كلياً عن المحاكاة ، وهي من قاموسه ، وقاموسه يتكاثر ، ويولد مشتقات والفاظاً غير مألوفة ، ويحكمها بدلالات بيانية بحيث لا تطغى على تراث ولا تتجاوز معاصرة .

٢ - ويمازج هذه (اللغة الانيقة) ما هو جزء منها .. من شاعرية وقصصية فيها طراوة وفيها كنايات وضمائر غائبة ومتكلمة .. وحوارات متقطعة يغوص بها الى النفس ، فتخرج الاستعارات والايقاعات الصورية ، ويصل بينها سجعة هنا وسجعة هناك ، وجناساً لا يتعارض مع هذه الاستعارات .

٣ - ويركّب هذه اللغة (الفاظا ومفردات وجملا) تركيبا (رياضيا) .. يعتمد الابعاد القياسية بين بدء الفقرة ونهايتها ، بين بدء المقطع ونهايته .. وبين اسلوب واسلوب .. لكنه اسلوب واحد ، يتنقل نقلات ، وهذه النقلات محسوبة في حساب الجمل ، فلا يكرر جملة بين فقرة وفقرة ، فاذا كررها فلغرض بناء الاسلوب ، انه

يزن كلامه وهو يخرج مرة واحدة من القلب الى الورق . وكأن روحه واسلوبه يندفعان معا بحركة سلسة ، حركة متواصلة ، فيها طاقة اللغة ، طاقة غنية بالاشارات والايماءات ، ولا بد لهذه الحركة من موسيقى ، وربما يشعرك بأنك تقرأ جملاً في موسيقى تدار بشعر او بايقاع داخلي ، دون ان يؤثر هذا الايقاع على المضمون او الفكرة .. ومقالته في هذه العناصر : بناء متسق العمارة .. والكاتب نفسه يقول في هذه العناصر : (.. والقارىء العراقي صعب لا يحكم عليك من كلماتك فقط وانما يشترط مع القول الفعل . وحسابه عسير على تصرفاتك ، وما تقوله هنا او هناك وما لا تقوله كذلك .. واني ازاء هذه الصعوبة العظيمة اعجز من ايفائها حقها ولكني لا اجهلها ولا اتجاهلها وما لا ادرك من أمره كلا فقد ابلغ منها بعضا ..) ولهذا عظم دهاؤه في ادارة المقالة ، وعظم عمله غير المقتسر لامتاع القارىء خلال افادته او افادته خلال امتاعه ، وهو ينبع من احترامه للقارىء ، وهذا القارىء - دائماً - مقيم في نفسه وكلماته .. ويقول : (ومن الغباء استغباء القارىء ،

ومن أقصى الغباء استغباء القارىء العراقي) .. ولذلك ، ايضا ، لا تجد في (مقالته) كلمة خارجة عن الحدود ولا كلمة ناقصة عما يدعو اليها .. وكان تكنيكه وعيا بشخصيته !

مقالة ام مقال

ويقال لكاتب المقالة (مقالي) .. اما اصطلاح (مقالة) فهو من بيئة الغرب جاء من المفكر الفرنسي (ميشيل دمونتيني) الذي ينتمي الى زمن أواخر عصر النهضة .. وفي كتاب (مقدمة في النقد الادبي) للطاهر ، عرض تفصيلي عن هذا المفكر الاديب وعن بداياته الادبية في جمع الحكم والتجارب في كتاب خاص به .. حتى ان الكتّاب الذين جاءوا بعد دمونتيني اخذوا يطورون مفهوم المقالة ويغنون مصطلحاتها ، بل وضعوا تمييزا بين ما يقال مقالة ، وبين بحث او دراسة ، لكننا نجد ان هناك غموضاً او خلطاً بين (مقال .. و .. مقالة) عند العديد من الكتاب ، والطاهر يحسم هذه الاشكالية : (... المقالة والمقال شيء واحد ، هما ترجمة للكلمة الاجنبية (Essai =) Essay .. و « المقالة » أسير في الاستعمال ، ولكني

اقترحت في كتابي « منهج البحث الادبي » تمييزاً بينهما بأن اجعل المقال للكتابة التعليمية المتصلة بالدراسة والبحث ، وأبقي المقالة مقتصرة على الجانب المبدع الفني ..) .. ويريد الطاهر ان يقول ان المقالة فن ابداعي قائم بذاته .. وان المقال تغلب عليه « النزعة التعليمية » وهي أقرب الى البحث والدراسة .. والبحث والدراسة يقومان على المصادر ، ورسم الخطة والحذر من ابداء الرأي ، وتأييد الرأي بالبراهين والأمثلة ، اما المقالة والمقال فيقومان على الانفعال والخيال والسخرية وكل العناصر التي تنبثق من تجربة خاصة مثيرة في النفس !

* * *

ويعطينا الطاهر ادلة في ان (المقالة) فن ذو نسيج خاص ، اي : (موهبة) ، ويعني هذا ، انه ليس شرطاً ان يكتب شاعر كبير (مقالة ناجحة) او قصاص او مسرحي ، مثلما ليس شرطاً ان يكتب (المقالي) قصيدة ناجحة .. او مسرحية ناجحة او قصة ناجحة ، هي ، اذن ، قصة الموهبة .. تترعرع في الانسان وتبدع

وتـخـلق .. وتضيء .. نـعـم تضيء .. وأزيـد - يـقـول الطاهـر - : (.. هي مسألة مـوهبة واكتسـاب ، مـران وتدريب .. ومفهوم واقتنـاع بجمال العمـل وثقة بتـأكيد الذات عن سبيله واستجابات الناس كذلك .. ومن ثم تأكيد الخطوات ، او تأكد السمات المتصلة مباشرة بذات الكاتب وشخصيتـه ..) .. ولا موهبـة بدون تجـربة ، ويقـول « دمونتيني » : (.. ليس من امر طبيعي أكثر من الرغبة في المعرفة .. اننا نحاول كل الوسائل التي توصلنا نحوها ، وان خاننا العقل استعملنا التجربة .. التي هي وسيلة أكثر ضعفاً وأقل نبلاً ، ولكن الحقيقة شيء عظيم جداً بحيث اننا لا نستهين بأية واسطة توصلنا اليها) .. ولهذا اعـطى النقاد والدارسون لدمونتيني ، (صفة) ، الأب الشرعي للمقالة في العالم .. حين كتب قطعا نثرية متفاوتة الطول ، مسجلاً في كل منها جانباً من (تجربة ذاتية وفكرة بدرجة التأثر) ..

.. والمقالة ابتكرها الفرنسيون وتبناها الانكليز !

ولقد كان العرب القدامى يكتبون قطعا نثرية .. عند الجاحظ والتوحيدي والكتاب الصوفيين ، لكن كتاباتهم لم

تكن فنــاً في مقالة ، وربمــا نسميها (مقــالات) إلّا انها مقالات نثرية ، وتبقى مقالات نثرية !

وفــي العــراق

ومنذ أفول العهد العثماني في العراق (ولا سيما في العشــرينــات والثــلاثينــات) ، وكتــابنــا ينهجــون في (مقــالاتهم) نهج طه حسـين او المازني او الرافعي او المنفلوطي ، لاسباب وعوامل تاريخية بحثها كتــاب عصر النهضــة ، ولم تظهــر (مقــالتنــا العــراقيــة) إلّا فــي الصحافة ، ومع ولادة الصحافة (بأنماطها الشعبيــة) بدأنا نكتب مقالتنا ، لايضاح فكرة ، او عرض رأي ، او تدبيج ديباجة : (... كأن الكاتب العراقي يمتلك الرأي واللغة ولا يمتلك موهبة المبدع ولم يدرك جانب الابداع في عمله) أو كأن الطاهر اراد ان يشخص « حالة الاسهاب النثــري » في مقــالتنــا ، والعــذر لهــؤلاء الكتــاب ، فهم سياسيون ، والكتابة ملحقة بعملهم ووسيلة من وسائله ، وهم ليسوا أدباء او كتابا (خلقوا ليكونوا كتابا) .. وانما زاولوا المقالة في السياسة ، فضيعوا هدفاً وآثروا هدفاً ،

وعلى قول الطاهر : (فان المرء الذي يزاول الادب في المقالة هو اديب بالمعنى العام) أو على رأي قديم له : (... اذا اقتصر عليها وزاولها بالمعنى الفني الابداعي فهـو اديب كالشاعـر او القاص والخـطيب .. واسمه : المقـالي) .. فالمقالي مبدع اختص بفن من فنون الادب !

* * *

وهؤلاء الذين يُشخصهم الطاهر كثيرون ، ولكنهم لا يقصدون عادة من المقالة الى ما هو اكثر من بيان رأي او ايصال معرفة ، ويذكر الطاهر من هؤلاء : فهمي المدرس ، محمود احمد السيد ، محمد مهدي البصير ، محمد رضا الشبيبي ، كامل الچادرچي .. وتحدثت وإياه عن مجلدات الصحافة ، قال : (... وربما تجد في جريدة الاستقلال صفحات كبيرة ضـافية لقـاسم العلوي وغيره ، ولكنهـا تعليمـاً وابداء رأي وحمـاسة مـع ، او ضـد .. وليست ابداعا .. ولهذا فانها انطوت سريعا ، ومثلها كثير) ... لكن من حاول ان يكتب فنا برأي الطاهر : (... هو ابراهيم صالح شكر ، لكن دون ان يبلغه ..) .. ثم نفتح مجلدا

كبيراً في صحافتنا الاولى ، واذا الطاهر يتذكر : (.. واما من كتب فوجد جمهوراً وفي نفس الجمهور شيء من التقدير على الادارة والاداء فهو عبدالمجيد لطفي ..

وليس عجيباً ان اذكر محمد مهدي الجواهري لابداع في مقالاته لعله لا يدري به وانما هو أشعة من شاعريته ، وانفعاله لدى الكتابة .. والدكتور مهدي المخزومي مؤهل لمقالة ادبية نقية اللغة صافية البناء ، ولكنه لم يواصل الكتابة بما يكون اسلوبه ويقرن اسمه بالمقالة ..) .. حتى اذا نظرنا الى صفحات الادب في مجلد صحافتنا تنبه الطاهر الى ملاحظة مهمة وهي : ان من التفنن الذي حاوله الكاتب العراقي ليقربه من (المقالة المبدعة) ولكنه لم يسر فيه طويلاً : الشعر المنثور (وقد برز فيه عبدالمجيد لطفي) والصور القلمية .. (وينظر منها في مجلة الوميض) .. وأتينا الى الجيل التالي فذكر الطاهر يوسف الصائغ : (لو تنبه لحاله وقلل من تلاعبه الخيالي) .. وذكر مقالات متفرقة متفردة لا تكون سمة خاصة بصاحبها (ويتمنى لو جمعها في كتاب او دراسة) وهذه المقالات : (لنزار عباس ، وآسف اذ لم أعد أملك مقالة له عن ادمون صبري) و .. (رشدي العامل وعبدالجبار عباس) و (مقالة

عن ممثلة عراقية نشرت في مجلة فنون فاتتني الاحتفاظ بها في حينها ..) .. وربما نسي الطاهر اسماء مهمة في فن المقالة ، اما لأنه « تعمد » في عدم ذكرها او لأنه يختلف وأياهم بنزعة فكرية او لمذهب جمالي او ثأر نقدي (ولا ابرىء الطاهر من هذا الثأر) ومع هذا فاني أكبر فيه رأيه وحرية رأيه ، وهو رأي من الآراء . وحجة !



في دعوة مما اقيم في مهرجان شوقي ١٩٥٨ ..

ويظهر الدكتور علي جواد الطاهر على يمين المشاهد ثم الدكتور طه حسين

وجمال الدين الالوسي والدكتور سهيل ادريس ورئيف خوري

تطـوره في مراحـل

ومن حيث يدري ولا يدري ، يقبل ولا يقبل ، يقـرأ ولا يقرأ .. نشأ الانشاء النفسي فيه ، فقرأ كثيراً وفي كل ميدان ، وقـرأ المقـالة من كـل طابـع : العلمي ، العقـلي ، البحثي ، الشعري ، الادبي الفني ، اي انه قرأ كل شيء في (فن المقالة ، ممـا كتب في مصر او الشـام .. او العـراق) .. ويمضي بـه (الانشاء النفسي) او هذه الملكة الفنية الى ان يصدر في عام ١٩٦٢ كتـابا بهـذا القيـاس الذي صـار فيـه الطاهـر : (مقالياً) .. وأسماه : (مقالات) وضع فيه مقالاته مما كتبه في مدد متفاوتة بين عامي ١٩٥٥ ـ ١٩٦٢ ولأغراض ومجالات مختلفة ، وفي هذا الكتاب هندس الطاهر فكرته في (المقالة) وهندس للجيل الادبي الجديد تقـاليد الكتـابة في هـذا اللون (الفني ـ العلمي) ، وبذلك فان مؤرخ المستقبل سينظر الى هذا الكتاب او الى الطاهر نظرته الى اول رائد يرتاد عالم الفن المقالي ، الى رائد امتحن في شـؤون من التربيـة والفن وعلم النفس والاجتماع والسياسة وانتصر في هذا الامتحان وحقق النتائج الباهرة في الادب العراقي ، في حقل (فن المقالة) كما

حقق دمونتيني بداية (المقالة) في تاريخ الادب الفرنسي في عام ١٥٨٠ .. انه انتصار الريادة !

وهي اربع مراحل تمخض فيها الطاهر .. في صناعة (المقالة - الابداعية) عنصر التواصل فيها خيط من الاحساس الفني ، بدأ مرة اخرى ، غير شعوري ، بفضل ما استصفت نفسه من قراءاتها الكثيرة السابقة .. وهي :

١ - الاتجاه المعرفي

والمرحلة الاولى تبدأ بعد نشره بضع مقالات في (مجلة البطحاء) في الناصرية ، وفي (جريدة الفرات) في الحلة ، وفي الاولى نشر مقالة بعنوان « قصيدة في بيت » والبيت لأبي العتاهية ، يقول :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
ان السفينة لا تجري على اليبس

حيث سكب في هذا البيت ما في نفسه ، بل جعل هذا البيت مداراً لشؤون في نفسه وذهنه ، وكان قد تخرج تواً في دار المعلمين العالية .. ونشر في الثانية مقالتين ، هما من وحي

قراءاته في المادية التاريخية ، وغلب على المقالتين ، حماسة الشاب المتطلع ، وهي بلاشك الحماسة نفسها لواقع المجتمع العراقي ، فيما يجب فيه للشعب العراقي وما سيكون له من شأن في اسقاط الظلم السياسي والجور الاقتصادي .. وفي هذه المقالات كان الطاهر تلقائيا دون ان يقصد اليه ، ودون ان يقيمه عمداً على هدف فني ، كان المسألة تنمو في النفس نمواً طبيعياً ـ تلقائيا ، ثم ان هذه المرحلة كانت تقوم على موضوع قد يكون معرفياً ، ولكنه ليس عقليا فلسفياً معتمداً على المصادر ونتاج الآخرين ، سعياً لايصال تلك المادة من أقرب سبيل ، وانما بشيء من (الطراوة الفنية) غير واعية في غرض الطاهر.. وكان حسن الظن فيه كبيرا عندما طلبوا منه ان يكتب : مقالات !

ويقول الطاهر عن هذه المرحلة : (والذي يهمنا في هذه ـ المقالات ـ زيادة العنصر الذاتي وزيادة عنصر التأثير في القارىء وقل سمات فنية في الاخراج والصور والاداء ، وتمثل القارىء ـ على ان يكون ذلك كله وما اليه قد جاء عن وعي تلقائي ... وقد امتزج في (المقال) الذي نشرته جريدة الفرات ، الرأي بالانفعال ، والذاتي بالاجتماعي على خلاف مألوف المقالات الصحفية .. واذ يكون انفعال ، ويكون الانفعال متصلا بالسخط تبرز السخرية صفة لتلك المقالة او سمة من سماتها) ...

المبـدأ الجديـد ـ ٢

ويمكننا ان نحدد هذه المرحلة الثانية بعد عودته من فرنسا ، وتعيينه عضواً في اللجنة المشرفة على اصدار مجلة (المعلم الجديد) بوزارة المعارف سنة ١٩٥٥ ، ولابد لهذا التعيين الذي لم تكن للطاهر فيه يد ، ولا معرفة بالمسؤولين ،من دلالة على حسن ظن بقلم الطاهر ، ومنذ مباشرته في عمله شرعت المجلة (وكانت آنئذٍ ، منبراً مهما من منابر النشر في القطر ..) تخرج للمعلمين والطلاب وقراء الادب ، (وكأنه خلق جديد) وفي هذا الخلق طابع من الكتابة الانشائية الابداعَية ، وفي الطرف المقابل كان الطاهر يدعو (وهو يدرس في دار المعلمين العالية) الى ان يستحيل الانشاء المدرسي الى درس ابداع ، ويشير في هذا الاتجاه ، في الادارة والمحاضرة

والساحة ، ويبشر بحماسة ، وكأنه صاحب مبدأ جديد : (وزاد في السمة التبشيرية ما رأيته من بعد في مناهجنا وكتبنا وسبل تدريسنا عن اثارة الحماسة الفنية في الطلبة وعن إشعارهم بما يمكن ان يكون لهم من موهبة يجب ان تختبر) .. وقد أثر الطاهر في هذا الاختبار ، اذ كتب الطلبة الجامعيون « أناشي » بمستوى الخلق الجديد الذي يدعو إليه الطاهر ، واستوعبوا مضامين « المبدأ الجديد » الذي دعا إليه ، حتى كتب بحقهم مقالة في (المعلم الجديد) تحت عنوان « أهل المواهب » ..

* * *

وعندما عاد من باريس ، عاد في قراءات متراكمة لكبار ادباء تلك المرحلة ، فانفعلت فيه او هو انفعل في بناء العبارة الفرنسية ، كما وردت عند كتاب النثر الفرنسيين الاستثنائيين ، وراح مدفوعا بهذا الاحساس ، يكتب بسهر ويقول بتضحية وينشيء باثارة ، حتى اجتذب اليه مريدين وكان (المريدون) متعطشين لما هو جديد ، لما هو اكثر ابداعاً واثارة من مناهجهم الرتيبة ، فاندفعوا اليه ، ويلحون عليه أن يعمل

لهم بما يشبه مؤسسة الأدب ، فأسس لهم ، وتنفسوا فيه ، تنفس هـؤلاء البراعم القلميـة ، وتعلموا من هـذا (المقـالي الجديد) ادارة بارعة في اللغـة ، ودهاءً في جهـد الخطابـة ، وعلمهم حتى على اختيار العناوين لنتاجاتهم الادبية ، وللعنوان دلالته على القصد الفني .. وهو ظل يكتب ، بهذه الاحتفالية المبهجة له ، فكتب ، بل طور مرحلته الاولى في المقالة ، ونشر مقالات ما أكثرها في اغراض الادب والعلم والتربية ، لكنه كان يكتب (إبداعاً) وليس تعليما كما في مرحلته الاولى ، وأثرى هذه المقالات بسمات من الشعر الوجداني ، وهكذا نلحظ هذه السمات في مقالة (النقد سهل) التي نشرها في شباط ١٩٥٨ ومقالة (أريد ان اكون قصاصا) التي نشرها في آذار ١٩٥٨ ومقالة (أنا ناقد مسرحي) ، ويقول الطاهر عن هذه المرحلة : (.. ومدار هذه المقالات : فكرة وتعليم اخرجتا مخرج الجذب والاجتذاب .. وللسخرية حظ ملحـوظ ، وللتجربـة الذاتية في المـوضوعـات حظ ملحـوظ آخر ، والمهم في القصـد : الاثارة النفسيـة ـ الفكـريـة وليس العلم بـالنقـد او القصـة او المسرحية) .. وما زال طلابه القـدامى او قراؤه (القـدامى

والجدد) يذكرون تلك المقالات التي نشرها في تلك الحقبة ، والتي جمعها في كتابه (مقالات) ويذكّرونه باعادة طبعها ونشرها : (ولكن قراء محترمين صادقين في لهجتهم يدعونني - مشكورين - الى إعادة طبع كتاب « مقالات » ...) !

* * *

ويمضي الاستعداد النفسي في الطاهر نحو المقالة الفنية ، ويتأكد هذا الاستعداد بعاملين اساسيين ، الاول ازدياد اتضاح الفرق لديه بين علم .. وادب مبدع ، بين لغة البحث ولغة المقالة ، والثاني هذا الثناء المخلص الذي يرد الى سمعه ، فيجذبه الى السعي والى مزيد من مواصلة القراءة والطلب والابداع .. وثمة عاملان آخران في الطاهر نفسه ، الاول : اعجابه الشديد حد الدهش بالادب المبدع ، والثاني تطلعه منذ بواكيره الاولى الى ان يكون اديبا في الادباء : (وإذا فاتني ان اكون شاعراً ولم افكر ان اكون قاصاً .. فلاصبح « مقاليا » بدرجة تدخلني - بوجه وآخر - دائرة الابداع ..) .. هذه عوامل ذاتية وموضوعية بالاضافة الى اغراقه في منهجية البحث

والغرق في البحث الادبي نفسه في مصادره ومراجعه .. جعلت من الطاهر كاتب مقالة ، بمنهج مبدع ، كأن ينتقم لنفسه بحرية الانشاء من قيد المصادر والحواشي !

٣ - الوعي بالاخراج

ومقالات هذه المرحلة الثالثة تبدأ في مخاض بحث الطاهر ما بين بغداد والرياض (حيث سافر ليدرّس في جامعة السعودية) في عام ١٩٦٣ ، وكان بحثه في التدريس وفي هموم النفس والغربة والوجدان ، ثم تشربه ألم المخاض ، واشتد به البحث ، واذا به يصمم هذا البحث « مقالات » فيرسلها الى مجلات .. مجمع اللغة العربية بدمشق .. والاديب .. والآداب ، ويعود من الرياض ، ليشتد به البحث أكثر فأكثر في اجناس الادب ، وفي إشكالية (الفراغ الادبي) ولم يبق الا المنبه ليخرج البحث ابداعاً .. وها هو ذا يحصل المنبه ، اذ تعرض عليه صفحة (آفاق) في جريدة الجمهورية الكتابة اسبوعياً فيها فيستجيب ، وتلتقي دعوة (الجمهورية) بدعوة إذاعة صوت الجماهير الى الاحاديث ، فتلتقي الاستجابة بالاستجابة .. وتبدأ : « المقالة الجديدة » .. هي مرحلة ثالثة



الوفد العراقي لمؤتمر التربية الدولي في جنيف ، ومن يسار المشاهد : الطاهر

وعلى يمين المشاهد الدكتور طه الحاج اليلس ونجيب محيي الدين ـ ١٩٥٩

متصلة بـالمرحلتـين ، مـع زيـادة الوعي بـالاخـراج الفني ، وغرضه : التفكـير الهادف بـامتاع القـارىء خلال إفـادته ، وتحديداً فان مشروع هذه المقالات الجديدة ، ذات السمـات الفنية الجديدة ، بدأ منذ عام ١٩٧٢ ، حتى اذا بلغ الطاهر في هذه المقالات مبلغا فنيا متكاملا ، اصدرها بكتاب يحمل عنوانه (وراء الأفق الادبي) مضمـون هذه المـرحلة .. وقد صـدر الكتاب في عام ١٩٧٧ وهو يدعو بمجمله الى نوع من النظرية النقدية والى نـوع من المقالة التي تجمـع الطرافة الى رصـد الحاضر الادبي ـ الثقافي ، والاهتمام بالغد .. والذين اهتموا بـ (الغد) عادة ، هم المنظرون .. هل كان الطاهر منظِّرا في هذا الكتاب .. نعم ، كان ينظِّر ويبحث في هذا التنظير : (.. فقد أبدى عدد لا بأس به من القراء ، اهتمامهم واعجابهم ، وبينهم من اقترح الجمع والنشر ، ولم يكن في لهجتهم ما يدعو الى سوء الظن ..) ، ولم يلق كتاب من كتبه ما لقيه هذا الكتاب من مقالات الثناء والفهم الذكي لبناء مفرداته ، وما وراء البناء احـيـانـاً ، وعـنـوانـات مـقـالات (وراء الافق الادبي) لهـا نفس ذلك الايقـاع الذي ينغـم مضامين المقالات ، ايقاع في الشكل لأنه قصير بنبرة ، وايقاع

في الفكرة لانه قـائم على إثـارة نفسية تشغـل الذهن ، وكأن الطاهر قصد في تصميم هذه العنوانـات ، قصد : مجـددا ، وقصد : أنه يعرف كيف يدخل قارئاً عراقياً ذكياً ومتابعاً ومرهفاً في الاختيار ، ومن بين هـذه المقالات احتلت مقـالة « شيء في الجو » موضع الصدارة من الاهتمـام والتقديـر ، والاعجاب كذلك .. وميزة اخـرى في هذه المقـالات ، هي : قصرهـا ... وهي ، عموما ، تسجل لمحة عن أمر مستقر في النفس طويلاً ، وكأن الطاهر يدرك أبعاد هذه اللمحة ، فـاذا حدثتـه النفس باطالة في زيادة لها ضرورته التعليمية او العلمية ، صد النفس عن إغرائها ووقفها عند حدها .. وإلّا فلم يكن صعباً عليه أن يجعل الصفحة صفحتين ، ولكنه لا ولا يريد ان يجعل المقالة وكأنها مقالتان ، وحافزها حافـزان ، والمنشىء كأنـه معلم .. وكان في هذه المرحلة : جريئاً بعقل ، نابهاً بعاطفة ، عقلياً بتفنن اللغة ومطوراً لما كان ولما يكون ، ويقول نفسه : (.. وحين يبلغ الكاتب نقطة يحس فيها بأنه لم يعد طوعياً في عمله الارادي ، وان الكتابة قاربت ان تكون استدعاء لما في النفس ، وتكلفاً ، وبضاعة .. حين يبلغ ذلك يكف مهما تكن الاحوال لدى الالحاح عليه في الكتابة او اغرائه ..) وهكذا ختم المرحلة الثالثة !

٤ - الوفاء والرضا

وتتلخص هذه المرحلة الرابعة : في ان الطاهر قد ابتعد فيها عن المقالة الانشائية (.. وربما تجمدت حركته بعض الشيء) دون ان يبتعد عن إكباره إياها ، وعن إجراء قلمه في ميادين اخرى من البحث والتأليف .. والنقد الادبي ، حتى إذا دخل عام ١٩٨٤ واقتربت « مناسبة » مرور عشرة اعوام على وفاة استاذه الكبير الدكتور محمد مهدي البصير ، كان لا بد من سكب عاطفة التلميذ القديم على الورق ، فكان ، ونشرت المقالة في جريدة الجمهورية ، وكانت هذه المقالة ، او بهذه المقالة استأنف الطاهر (كتاباته) ثم تتسع المقالة ، لتشمل اساتذته ؛ طه الراوي .. محمد احمد المهنا ، وشجعه القراء والنقاد في هذه المقالات ، لما وجدوا فيها من طول النفس .. واجتلاء الصور .. وتذكّر الاحداث ، ونضج أكثر للنوع الادبي ، ولقد ابتعدت السخرية من هذه المقالات (التي عرف فيها الطاهر) إذ لم تعد شرطاً مهماً للمقالة كما كانت في مقالاته في مراحله الثلاث .. وحل محلها الوفاء والرضا ، وكان يحل ثقله الاخلاقي في هذه المقالات التعليمية .. ويجمع، الان، هذه المقالات ، اما ليصدرها كتاباً مستقلاً ، او يضعها في باب واسع

من كتاب متعدد الابواب .

* * *

وإذ تحدث في هذه المرحلة الرابعة ، وإذ تحدث عن المراحل جميعاً ، اختلج صدره واختلج لسانه ، وكأنه يريد ان يسجل ، هنا ، علامات اقتراب الموجة من نهايتها ، وشعوره بأن الأولى بالقلم ان يتوقف ـ ولو على سبيل الاستجمام ،مع خلجات تمازج النفس والرغبة والأمل والطموح ، في توسيع دائرة عالم المقالة ، وقد وسعها فعلاً في مقالات لم ينشرها تقوم أول ما تقوم على اخلاق الناس ، إلّا انه يطمح الى ما هو اكثر من شؤون المجتمع والسياسة والطبيعة ..

أقول .. لا .. فطموح الطاهر لا يصده حزن او اختلاج في حزن ، فما كتبه من مقالات ، وما أسس من وعي في هذه المقالات .. هو مدخل كبير لعلم المقالة ، لنظرية المقالة ، لأسسها في البدء والنهاية ، وانا اقول هذا .. وامامي ملف كبير بثناء الطاهر فيما أسس من نظرية في الكلم ، وفي علم الجمل ، وفي هذا الملف .. رسالة من ناقد سعودي هو الدكتور منصور ابراهيم الحازمي يظهر فيها اعجابه بما نشره الطاهر في كتابه

(وراء الافق الادبي) وارتاح خصوصاً للجانب الفني منه ، وكأنه قال : لا غرابة ان يظهر مثل هذا الكتاب في بلد كان فيه الجاحظ .. وهو لم يذكر الجاحظ لشبه بين الاثنين في الاداء اللغوي ، ولكن من حيث كاتب وكاتب .. ورسالة اخرى من أديب شيخ هو العلامة السعودي : حمد الجاسر الذي أبدى اعجابه بفن مقالات الطاهر .. وحين أصدر المعهد الاسباني - العربي للثقافة ، الحلقة الاولى من مختارات الادب العراقي سنة ١٩٧٣ لم يعن من المقالات العراقية المختارة الا بجانبها المعرفي ، ولهذا فانه اختار للطاهر ، مقالة « الشعر التعليمي في العصر السلجوقي » ، وغير هذه الرسائل .. صفحات اخرى ، كلها تمجد قلماً وناقداً ، وغير هذه الرسائل والصفحات ، كثرة القراء الذين وحدهم يزكون كاتباً تاريخياً .. ونظرياته في (المقالة) !

الخلود .. او

ولعل هذا الاختلاج في الطاهر في رحلة الكتابة وشعوره بالتوقف عند السبعين أثار بيننا مسألة الخلود ، او هذا الموت الذي يهز رؤى الادباء : (فهو على البال .. ولا يخيفني

الموت) .. انما الذي يخيفه ويشغل فكره مايمكن ان يسبقه من عجز ومرض يصبح خلالهما ثقيلا على أسرته واصدقائه .. ونفسه ..وربما اختلفت نظرة الكاتب الى الموت عن غيره : (نعم وهي تختلف لطبيعة الاشياء .. ومن الادباء من يشتد خوفه على وجه مضحك ، فيزداد تشبثاً بالحياة ، والموت من موضوعات الشعر العربي على مر العصور) .. اذن كان الخلود وسيلة من تلك الوسائل ذات التأثير الكبير في سيرة الافراد والجماعات ، وفي سيرة الاذكياء والنابغين ، والعباقرة خصوصا ، وقد يكون في ذلك ضرب من الانانية ، ومغالطة فيما يؤول اليه مجدهم : (والمسألة تطول ، ولا ولن تنتهي ، حتى لدى الذين لايريدون الايمان بالخلود كائناً ماكان ..) .. كان واقعيا في موته وفي خلوده !

* * *

وذكرني الطاهر وخلوده بنظرية جان جاك روسو في (الموت):«اننا نزداد قلقا على حياتنا كلما فقدت من قيمتها ـ فالشيخ يأسف عليها اكثر مما يفعل الشباب» وهذا الموت (يأتي في اللحظة التي لايكون فيها الانسان قد انتهى من تطوره الفيزيولوجي وحيث يكون ممتلكا تمام الامتلاك لغريزة الحياة) ومادامت حياة الطاهر مرضية من قرائه ومن تاريخ الادب

في العراق، فانه لايبلغ هذه (الشيخوخة الفيزيولوجية) إلا وهو قد انتصر في الخلود!

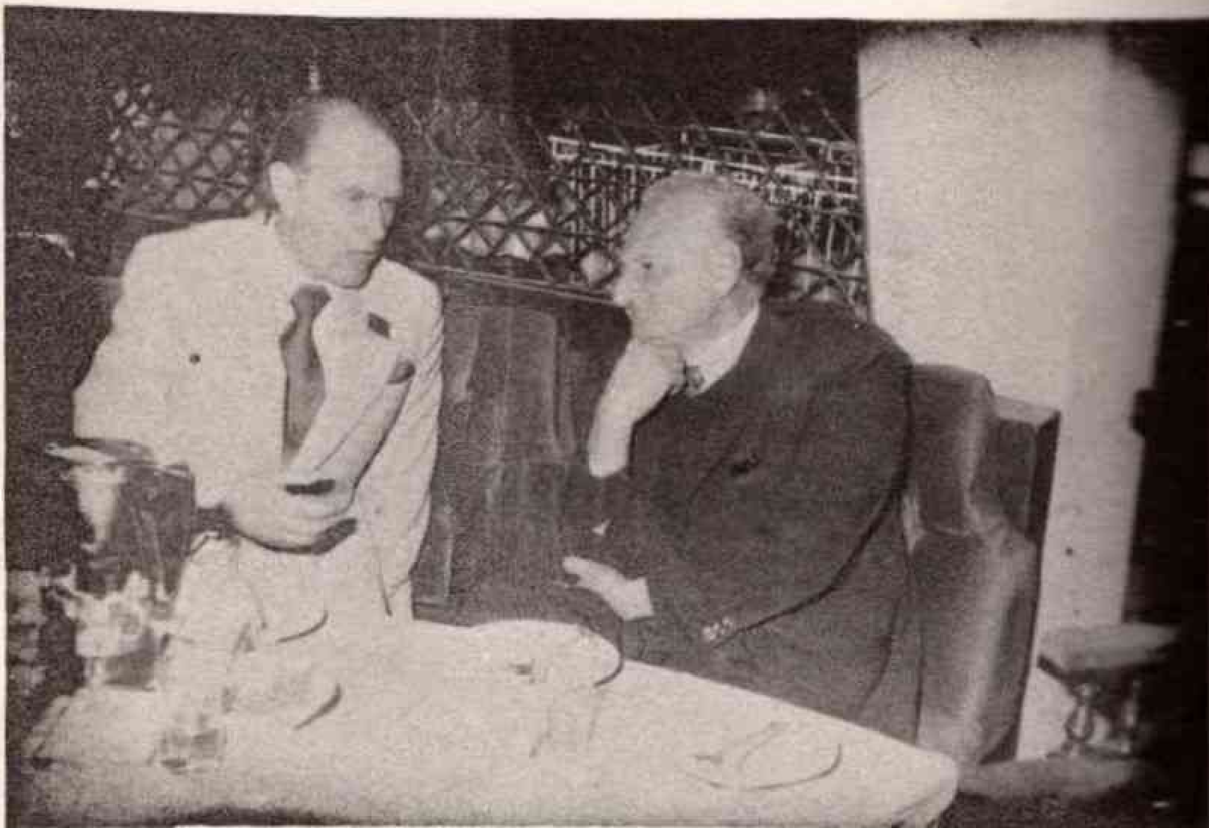
وطالما تخيل الطاهر هذا (الخلود) في الف مقال!

لمـــاذا ...؟

وهو يكتب نثراً .. وقلت له : هنـاك نظريـة تقول .. ان الشعر في العراق يولد قوياً وان النثر فيه لا يقوى على الحركة .. لماذا ؟.. فتحدث في الذاكرة :

ــ ظاهر الحال يؤيد ذلك لدى نظرة الى ادبنا الحديث .. والذي لا شك فيه ان الشعر في العراق أقوى من النثر .. ولكن النثر يتقدم مع الزمن ، ولم يعد صحيحاً ان نقول ان القصة في العراق لا تقوى على الحركة .. وقد كتب العراق من القصص القصير المبدع ما قد يقصر عنه الكثير الكثير مما كتبته الأقطار الاخرى ، وفيه مـا يبلغ المستوى العـالمي .. وبدأنـا الرواية كذلك .. ويكفي أن تكون لنا فيها : الرجع البعيد .. والنخلة والجيران .. وليس في نثرنـا قصور من حيث هـو نثر ، ولكن القصور من حيث هو نثر فني مشرب العاطفة والخيال .. وكأنه الشعر والقصة .. اما من حيث هو نثر فهو جيد ، ومنذ وقت مبكر .. وفي تقدم لدى الباحثين وكتاب المقالة التعليمية .. يبقى السبب ـ او الاسباب ـ في تأخر المقالة العراقية المبـدعة عن مثيلتها المصرية !

هل كان الطاهـر مصيباً في هـذا الرأي .. وقد يشعـر الاكاديميون ان هناك رأياً آخر .. فما هو ..؟؟!



مع رئيس تحرير المجلة الادبية الچيكوسلوفاكية في ضيافة العراق

الفصل السادس

منهـــج
فـــي
نظرية التأليف ...!



١٩٦٠ ـ جمعية الصداقة العراقية ـ السوفيتية

المؤلـــف

ثلاث فئات يؤلفون في العراق ، فئة تكتب كتباً لتبيع كتباً في السوق ، وهمها ان تربح اسما ، وفئة تكتب ، بـل تصدر الكتب لأنها ورثت الوراقة عن مجد الاسرة او مجد السلالة ، وثالثة هذه الفئات ، تحفر في الصخر بأظافرها حتى تصدر الى النـاس « نهجاً في الحيـاة » تعلّم فيـه وتتعلم ، تعلّم لتنهض بالآدمية الى رقي في الفكر ورقي في البشرية ، وتتعلم ان الكاتب كلما ارتقى الى ضمير الناس صارت آراؤه مدرسة ، وقلة اولئك الذين يحفـرون في الصخر ، وقلة اولئـك الذين يبحثـون عن الينبوع في هذا الصخر ، والطاهر .. من هذه الفئة الثالثة التي حفرت صخرتها ، وكان يحفر بالعمق ، وبمعاناة الصوفيين .. اكتشف ان « الكتابة » هي ذلك الينبوع ، هو الينبوع المقدس الذي تغتسل فيه ارواح وارواح .. وتتطهر ، وما كان يكتب .. او يؤلف إلّا وهو مدرك ، ان التاريخ ، دائماً ، مع اتجاه ذلك الينبوع .. ولقد تحولت « كتابتـه » في مؤلفـاته الى اصـوات وأحاسيس ، توقظ قارئاً من القارئين او قارئة من القارئات .. وتنبـه .. تنبههم جميعاً الى عـالم الاحـاسيس والاصـوات ، وأقول .. انه كان في مؤلفاته ، يقرىء القارئين ، ويصل بهم الى

حالة الوجدان ، فيتفاعلون : الكاتب والقراء .. وكان يقول في السابق : (أفيد وأمتع) .. وتلك هي مهمة الينبوع كما ارادت له الطبيعة ، او كما هو حال الطبيعة مع الينابيع الهادرة !

عقل ومنهج

وتأليفه قام على منهج وعقل ، وكان « عقله » في هذا المنهج واضحاً ، فيختار الموضوع ويرسم الخطة ، ويجمع المادة من مواردها ، ثم يكتب ، ويكتب (بالعلمية والموضوعية) التي حددها منهج البحث الاكاديمي ، ويأتي بالعقل ليحدد شخصية الباحث ، فهو إذن ، يمنهج بحثه ، بالعقل ، فلا يترك مواده كما يشاء المنهج الاكاديمي الصرف ، ان تؤلف وتؤلف ، وانما يخضع هذه الاكاديمية في (منهج البحث) الى مزاجه ومزاج تفكيره ، ومزاج افكاره ، حتى يخرج (بحثه) فيما يريد الطاهر ان يكون (بحثاً طاهرياً) ولا يعني هذا ، ان الطاهر صيّر البحث او يصيّره ، (عملية شخصية) ولو كان هذا ما يُريده الطاهر من البحث ، لغدا البحث (آلياً) او عملاً الكترونياً ، كما يعمله او يقوم به الانسان الآلي ، وانما اراد بالبحث ان تنفذ اليه اسرار

شخصيته ، واسرار الموضوع المعالج ، وما تنفذ به الى المادة المجموعة لدى المناقشة والخروج بالنتائج العميقة .. وخذ كتابين من كتبه : « الشعر العربي في العصر السلجوقي - ١٩٥٨ » وهو من كتبه القديمة .. و « الخلاصة في مذاهب الادب الغربي - ١٩٨٣ » وهو من كتبه الحديثة .. تجد شخصية الباحث هي شخصية الطاهر ، جمع المادة بعقل ، وكان جمعاً مبدعاً ، وألّف الافكار بعقل ، فكانت افكاره ، وكان يستخرج من (المادة المجموعة) روحها ، ويستخرج من (المصادر المجموعة) اهدافها الاكاديمية فيحيلها الى خلق (جديد) ليصبح هذا (الخلق الجديد) مصدراً بذاته ، أبدع فطوّر ، طوّر حتى يوشك ان (يكون) مصدراً ، فكان (مصدراً) .. وطالما أفاد من هذا (المصدر) مدرسون او ادباء او باحثون .. ويا ليت هذا البعض « إلاّ الأوفياء » من أرجع إليه الفضل بشكر او ثناء او ذكر اسمه بحاشية من الحواشي .. ولولا خشيته من خجلٍ لأماط اللثام عن وجوه المتلاعبين بعلمه ، ولولا هذا الحياء العلمي الذي لازمه منذ طفولته لصعد الى منبر النقد ، وقال : هؤلاء سرقوا من كتاب القصص ، واولئك ادمنوا على مائدتي .. وأطمئن الطاهر ،

(... ولا أقاضيه) بأن ناقداً سيقوم بعد ثلاثين سنة ، ويعلن : ان اولئك هم (عالة) عليك ، وان هذا التاريخ ، بلا منة ، سيشخص من هو (عالة) ومن هو الينبوع المحفور في الصخر !

وينقل لنا تجربته في التأليف :

(... واني مع الذين يهضمون المادة المجموعة هضماً تاماً متأنياً « مخلصاً » مع السعي الارادي الجازم لطرح ما لا غنى فيه ، والاقتصار على ما يغني فقط ، وليس هذا سهلاً ، لأني رأيت كثيراً ممن يدعون باحثين يتشبثون بكل صغيرة وكبيرة ويرون في تقديم أوسع ما جمعوه فخراً ، ولو جنى على الوحدة واصاب الكتاب او الفكر بالتفكك والتناقض) ..

* * *

ويولد بحثه في عقله منسجما وصافيا ، ويركّبه لغةً ، اللغة البعيدة عن تنطع بالغريب .. ومن دون وقوع في (الانشائية) ، ويجدّ فيه ، وجدّته في هذا الشيء الجديد الذي يخرج كل مرة جديدا ، فيه طراوة الاداء ، وطرافة في الموضوع ، أي انه لا يبحث بحثاً بحثه آخرون ، او يسلك



١٩٥٨ بعد علم من زواجه . حفلة تعارف بدار المعلمين العالية والى يمينه زوجته ، والى يساره سعيد الطاهر وجلال الخياط (خـريج عـام ١٩٥٦ ـ الدكتور فيما بعد) .

طريقا يسلكه ، عادة ، باحثون تقليديون أو مجددون !

لماذا ينظر الطاهر الى كل هذا ؟

ينظر ، لأنه يعد (تأليفه) جزءا من سمعته ، فكما يحرص على سمعته ، يحرص على كل ما يخرج من يديه او نفسه ، وهو حتى بين كتاب وكتاب ، تراه اميناً على نفسه بقدر ، وأميناً على اكاديميته بقدر ، وأميناً على القارىء بقدر ، وهذه (الأقدار) متكافئة في عواطفه ، وهو بغزارة مؤلفاته ونجاحه في مؤلفاته لا يفكر (بالربح) المادي : (وأثق ثقة كبيرة بالمستقبل وأذهب مختاراً - وربما عن غير تصميم - الى من اهملهم التاريخ ونسيهم الناس وظلمهم الزمن .. حتى ليعجب بعض القراء ان لِمَ هذا دون هذا ؟) ..

لكن لماذا تأخر الطاهر في تأليفه من الاربعينات الى أواخر الخمسينات ، أكبر الظن ، انه كان ينصهر في تجربة العقل .. ويراقب ، بل يعتقد ان التأليف ليس عملاً وجدانياً وانما هو عمل موضوعي - عقلي ، يحتاج الى العمر في تجاربه والعقل في نضجه والعلم في توافره ، ثم الاطلاع على ما يمكن ان يكون قدوة .. وهو يسمي كل هذا (الانسجام والصافي) فالانسجام قائم بين غاية واسلوب ، بين نظرة (جوانية) وبين نظرة

(برانية) ، والصافي هو ما يذهب بحثه الى حالة من حالات التكامل ، ولذلك اقتننت كتبه المجموعات المثقفة بلا استثناء ، فقد وجدته (منسجماً صافياً) ، ولذلك اعادت دور النشر طبع كتبه (مرات ومرات) .. واظن ان هذه الدور ستكرر تجارتها في الطاهر (مرات ومرات) كلما فتحت لها معارض الكتب في الحواضر العربية !

* * *

وكما هو صادق مع نفسه ، نرى الحكم فيه صادقاً على مؤلفاته التي ألّفها في ماضي أيامه ، فأبقى ما ألّف في الكتمان ، لأن ما ألّفه كان (جمعاً وتجميعاً) مع ان جمعه كان متسقاً ومختاراً ، ولم يطبع هذا الجمع كما يطبعه المتسرعون في (الشهرة) لأنه يرى في (الكتاب المؤلف) مادة وثائقية ولأنه يرى في (الكتاب المطبوع) مادة تاريخية ، وبحكم الضرورة لا بد ان يخضع هذان الكتابان الى تقويم سمعة المؤلف التي هي أغلى شيء في حياته ، ومنذ عام (١٩٤١ ـ ١٩٤٥) وهي الفترة التي درس فيها الطاهر في دار المعلمين العالية ، ألف (فاجر يزهد = ابو نواس في زهده) .. و (أبو نواس حياته

من شعره) و (قصة الضبط في التربية) و (السيد حيدر الحلي) وألّف (الطغرائي) و (مسكويه) .. وألّف .. لكنه لم يطبع تأليفه : (لو نشرتهما لجنيت على الورق ، وعلى نفسيَ) معتقدا ان تأليف مرحلة دار المعلمين العالية كان لمقتضى الاساتذة ولرضا المرحلة ، وعندما تخرج في هذه الدار ألّف كتاباً للصف الثالث المتوسط في (الادب الحديث) لكنه لم يطبعه ، وما بين دراسته في بغداد ودراسته في القاهرة بحث وكتب مقالات ودراسات كالتي عرفت عن (مجتمع امرىء القيس من شعره) و(وقفات عند حضارة فجر الاسلام) و (الكاظمي) وغيرها .. مقالات قوبلت بالرضا ، وهو قابلها بالرضا ، لكنه لم يفكر بطبعها ، غير مأسوف على الطبع وغير مأسوف على الشهرة ، فالعقل أولاً ، والشهرة ثانيا : (... كان بإمكاني جدا ان ابدأ التأليف وانا طالب بدار المعلمين العالية اعتمادا على كثرة قراءاتي والمامي بالمراجع والمصادر وحبي لأكون مؤلفاً ، وبامكاني أكثر من ذلك ان ابدأ التأليف لدى التخرج ، وقد ألفت فعلاً .. ولكن ذلك ليس تأليفاً ، وان حسب الناس امثاله تأليفا ، وحسبت ـ وأحسب ـ انه احسن كثيرا مما خرج في الناس على انه تأليف ..) .. لكنه كان يتدرب على التأليف ،

كان يعد نفسه بتؤدة الى المسرح ، وإلّا لأصدر من بحوثه في مصر : لهجتان عراقية ومصرية ، الغريزة الجنسية في الشعر العربي ، ابو نؤاس في مصر ، الادغام ، الزمخشري ، اللفظ والمعنى .

* * *

وجدّ جدّه بالدكتوراه ، حتى جدّ جدّه بالتأليف ، متبعا الفروع والاصول في هذا التأليف ، وكان فخوراً بما ألّف في كتابه (الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي) وازداد فخرا بما سطر من اجتهادات ونظريات وقواعد علمية في كتابه (منهج البحث الادبي) ، وهذا الكتاب ذاع صيته في الوطن العربي ، وانتظم بين كتب جامعية في العالم الغربي ، ودُرّس في الجامعات وأعيد طبعه ، واستشهد به الاكاديميون ، واستعان به المؤلفون .. (ومنهم من تفضل بالسرقة !..) لأن الطاهر في هذا الكتاب اختصر زمناً بلحظة واختصر زمناً بكلمة ، واختصر تجربة قوامها خمسون عاما من بعد النظر ودقة في الملاحظة ، وانه لو عمم في الطلبة ولو قرأه الادباء المتأدبون ، لنشأ لنا جيل ، يخشى ان يكتب ويقرأ إلّا

بوعي وبعقل ، وان هـذا الكتاب مـدرسة ، ويصـح ان نقول مـدرسة ، لانـه نقلنا من عقـل الى عقل ، وجـدد فينا الوعي بالعقل .. وعلّمنا ان نفحص مصدراً من مصادر ، وان لا نقع في تيه المصادر ، وان ننقل روحنا الى البحث والتقرير والتأليف بمثل ما جاءت هذه الروح الينا ، وان نكرم القلم الذي نكتب فيه دون شطط ، ودونما ان ننفعل بانفعال او نركض وراء سحر الغرب ..

قال عن البحث : انه طلب الحقيقة واذاعتها بين الناس !

وقال عن البحث الادبي : انه طلب الحقيقة الادبية في مصادرها .. واذاعتها !

وقـال عن المنهـج : انـه الطريقـة ، والطريقـة هي : الشخصيـة ، والشخصيـة هي المـزاج الفكـري والفلسفي للباحث . وجاء في لسان العرب: بحوث جمع بحث.

ايـن الاختـلاف

لكن متى يختلف المنهج عند الكاتب ؟.. انه يختلف في حالة واحدة ، اذا ادركنا ان هذا الكاتب تطور في عبارته وثقته بنفسه ، وتوطدت شخصيته وشعر انه « تفرد » بفنـه وصار

الآخرون يفيدون من « منهجه » العام ، وهـذا التطور الفني المنهجي لمسناه عند الطاهر في كتبه وعلى مراحل ، منذ اصدر كتابه الاول « الشعر العربي في العراق ١٩٥٨ » وكتابه الاخير (معجم المطبوعات العربيـة / المملكة العـربية السعـودية - ١٩٨٥) تنوع منهجه ، وساح في هذا التنوع في عالم المعرفة ، بين قديم وحديث وبين فن وفن من فنـون العربيـة وآدابها : (.. والباحث من لا يجمد على منهج واحـد ، والا فليس من المعقول ان تتعامل مع محمود احمد السيد (وهو كتابه الذي اصدره في ١٩٦٩) تعاملك مع ابي يعقوب الخـريمي (وهو كتابه الذي اصدره في ١٩٧١) ومع مقدمة في : النقد الادبي الغربي (وهوكتابه الذي اصدره في ١٩٧٩) تعاملك مع محمد إبن سلام، وكتابـه طبقات الشعـراء (وهـو كتـابـه المعد للطبع) .. ويعني الطاهر ان لطبيعة الموضوع ، اي موضوع يعالجه الكاتب ، أحكامه في التفريق بين كتاب وكتاب حتى لو ألّفهما في وقت واحد او مرحلة واحدة .. وهنا في هذا التنقل بين منهج ومنهج يبدع الكاتب في أساليبه وفي عقله المخزون وقديما قال الطاهر عندما كنت اناقشه حول تحرر كتـابنا من منهـج

البحث الغـربي الذي ظل يلازمنـا ـ لزمن ويـلازمنـا الآن :
(.. وستظل مناهج البحث المختلفة في نمو وازدهار ، وسيظل منهج البحث الادبي ،كذلك ، واذا اخذنا اليوم مادتنا من هنا وهناك من الشرق والغرب ، فقد قطعنا شوطاً حسناً ، وسنقطع اشـواطاً ، ولا يبعد ان تمـد تجاربنـا المنهج العـالمي بمفيـد وجديد ..) .. ويحتاج ذلك الى ثقة في العقل العربي !

المصـــــادر

ومؤلفاته لا تثقلها المصـادر ... وعقدة المصـادر عقدة مستحكمـة ، وأكثر مـا تستحكم بمؤلفينـا الاكاديميـين ، اذ يجدون ، ان هذه الكثرة في المصادر تنهض بالبحث نهوضـا « علميا » وقد حملوا هذا « الاثم العلمي » من جامعات اوربا (واوربا الفاسـدة وليس اوربا العلم الحقيقي) وان هـدف اوربا الفاسدة ان لا يبقى اجتهاد في عقل العربي الا نسبـة البحث والمعاناة عن هذا المصدر او ذاك او عن عدد المصادر الكثيرة ، اما هم ، اما اولئك الاوربيون الذين يكتبون بحوثهم فانهم يكتبونها بلا عدد ، بلا كثرة في المصادر ، لأنهم يطمحون

ان يصبحوا هم (المصادر) التي ينبغيْ او يجب ان يغترف منها كتّاب العالم الثالث ، لأن هؤلاء « عالة » عليهم ، وينبغي ان يكونوا « عالة » على اوربا الفاسدة ، واذكر انني كتبت عن « ظاهرة كثرة المصادر » في مناسبة صدور الطبعة التجريبية من « موسوعة حضارة العراق » في العام الماضي وألقيت بلومي على دوائر الاستشراق او (اوربا الفاسدة) فتصدى لهذا الرأي مستغربون اكاديميون وقال واحد منهم : (الجامعة تمنح البحث الذي يذيل بالمصادر الكثيرة درجة أعلى من البحث الذي يجرده كاتبه من مصادره ..) اي ان هذه الجامعة العراقية تمنح (المال الكثير) الى البحث الذي يستجيب (طردياً) الى مسألة المصادر ، فأي اجتهاد لهذه الجامعة .. في ان تبقي الفكر العربي جامدا في عقل اوربي ، وأي هدف لهذا الاجتهاد .. وبصيغة اخرى : لماذا ندرب الجيل الجديد على هذا (الاجتهاد الفاسد) !

والطاهر درس في اوربا / باريس وقرأ في باريس اوربا ، وترجم ونقل وعلق في مصنفات كبار اساتذة باريس ، لكنه كان مدركاً لما يقرأ ويعلق ويترجم ، وكان يضع عقله العربي في تمثل ويضع وجدانه القومي في تمثل ، ويتمثل اوربا بحذر ، يقترب او

يبتعد عن اوربا بحذر ، لكنه الحذر العلمي الذي لايشكك في ابداع ولا يقع فيه كالتائه ، ولذلك .. فعندما تدخل الى اي كتاب من كتبه ومؤلف من مؤلفاته فانك ستقرأ اول ما تقرأ مقدمة بارعة في (كيف تقرأ وكيف تكتب وكيف تكتب بحثاً) وما ان تنتهي من هذه المقدمة حتى تشعر انك الكاتب وليس القارىء ، والذين اتيح لهم ان يقرأوا مقالاته في مجلة (المعلم الجديد) في بحر الخمسينات ، ادركوا ان هذا القادم من اوربا جاءهم بشيء لم يألفوه في أكاديميي الحقبة الاولى ، وادركوا ان هذا « التململ » الاكاديمي الذي تفجر من اعماق الشاب الفراتي المخلص ، النقي ، الصافي ، سينشىء مذهباً في البحث الاكاديمي ، وان هذا المذهب لو استوى على منابر الكليات والجامعات العربية ، لما احتاج كتّابنا او باحثونا الى معاناة الفهرست الاوربي ، لكن الطاهر في واد والاكاديميون المتزمتون في صحراء . وكان منذ لحظته الاولى حذراً من اللعبة الاكاديمية !

* * *

وقال انت على حق حينما تدعو الى منهج قومي في الادب والتاريخ ، لكن المشكلة .. هي مشكلة الذين يدرسون في الغرب

ولا .. « يجتهدون » ، ومشكلة الذين يدرّسون اجيال العلم ولا يطبقون « اجتهاد » العلم .. مشكلة العلم (... الذي لا يبني ..) .. وأذكر في هذا المجال ، ان الدكتور فاروق عمر فوزي (رئيس قسم التاريخ في كلية الاداب) .. أورد لي قول احد « الاساتذة الكبار » والذي يشغل الآن منصب احدى المؤسسات العلمية الكبيرة .. بأن التاريخ او المؤرخ لا ينبغي ان ينشر مقالات في التاريخ في الصحافة .. وشيء معيب على المؤرخ ان يكون « جماهيريا » اما رأي الدكتور فاروق فهو الرأي الذي يذهب الى ان (التاريخ للعامة) فيخالف بذلك رأي « استاذه الكبير » الذي يمعن في كثرة المصادر في بحوثه ، ويمعن في ان يكون البحث دائما (للخاصة) ، وفاروق نمط واستاذه الكبير نمط آخر .. وهذان النمطان يتصارعان لكنهما يتعايشان ، نمط يقول درسنا في الغرب فينبغي ان نتحرر في « الاجتهاد » لأن الاجتهاد يبني مجتمعاً ويبني جامعة ويبني عقلاً نهض في الثورة وتعلم في الثورة .. ونمط يقول درسنا على أيدي اساتذة كبار ، مستشرقين في اللغة ، مستشرقين في مصادرنا ، فلا يجوز ان يتحرر التلميذ من استاذه ، فهذا عقوق ، ونحن لا يمكن ان

نكون « عققة » بحجة ان لنا أجنحة وألسنة .. وعقولا .. ولأن العلم علم ، والعلم الصحيح لا وطن له .. الى آخر رواية هذا التائه في الصحراء !

* * *

وعرضت عليه بضعة نصوص ، قال الطاهر : الحق في هذا المنهج الذي يدعو الى (العامة) اما مسألة ان نثقل انفسنا بالمصادر فلا .. وشرح معاناته في هذا « الصراع » ، قال ... (.. لجهل في مفهوم المصادر ومفهوم عملية التأليف .. ولسهولة الجمع .. ومواصلة لتقليد وقع فيه القدماء ولا سيما في الفترة المظلمة من التأليف جمعاً وتلخيصاً واختياراً .. وعلى ان الدراسة القديمة التي ادركناها تقول « من حفظ الحواشي ما حوى شي » فانهم حسبوا الاكثار من الحواشي لدرجة البلادة - ان لم تكن البلادة نفسها - هو المنهج العلمي الصحيح .. ثم ان كثيرا من هؤلاء تصدوا للتأليف وهم لا يملكون المؤهلات الفطرية اللازمة ، والمكتسبة الحقيقية ..) .. ولا يظنن اننا ندعو الى نبذ فكرة المصادر ، إنما ندعو الى ان تكون بحوثنا متحررة من هيمنة المصادر ، ان يكون الاجتهاد الفردي او

الجماعي (إذا كان المؤلف جمعاً او فئة) في البحوث أعلى نسبة من المصادر ، كأن يكون هذا الاجتهاد ٨٠ ٪ في اي غرض علمي او تاريخي او ادبي .. والاوربيون يوصون تلامذتهم في جامعاتهم ، بأن يكون اجتهادهم .. (.. اي استقلالهم الفكري والعقلي) بنسبة (١٨٠ من ٢٠٠) ويوصون تلامذتنا بان يكون اجتهادهم بنسبة (٢٠ من ٢٠٠) والمعادلة معروفة ..!

والطاهر له تجربة ربع قرن في الجامعة ..: (.. آسف ان تعليمنا الجامعي في إعداد الماجستير والدكتوراه مغرق في الحواشي وكثرة المصادر ، حتى راحوا يضعون الارقام المتوالية لهذه المصادر ١ ، ٢ ، ٣ ، وقد يبلغون المئة والمئتين والاكثر الاكثر ، بين غث وسمين ، وما راجعه الباحث ولم يراجعه ، ما له علاقة بصميم البحث وما لا علاقة له ، كأن المهم : العدد والكمية .. وربما كانت الجامعات المصرية في عهدها الثاني - بعد عهد طه حسين - قدوتهم في ذلك ، ثم زاد التلميذ على الاستاذ « إبداعاً » بليداً ..!..) .. و « تعقد » الطاهر من المصادر !

المثـــل

بـل تعقـد في سنـواتـه الاخيـرة من شيء .. اسمـه « الحواشي » ، وراح يجد حريته .. وشخصيته في البحث الذي يخـرجه مخـرج المقـالة ، وأصبـح مثـلا بـين الاكـاديميـين المبدعين .. وخذ موضوعه عن (حسين مردان مقالياً) .. كان يستطيع ان يذيّله بـ (٨٠) مصدرا واكثر ، ويحصل به على صفات (البحث المكتمل) الذي يتقاضى به الباحث من الجامعة مبلغاً جيداً ، ومع هذا عاند وعاند استجابة لعقدة (الحواشي) وأخرجه مخرجاً انشائياً ، وسرّه أنه قرىء انشاء .. أكثر مما لو خرج بحثاً مثقلاً بالحواشي والاسانيـد وموروث « حـدثني فلان عن فلان او .. قال قال .. الخ » ، ويقول الطاهر : هذا صحيح .. ولكن .. وسكت على مضض ، وأظنه كان قد سكت عن دراية بما يجري في أروقة « الاكاديميين المتزمتين » وسكوت الطاهر عبرة .. فـالاكاديمي الخـالق ثائـر في روحه وثـائر في وجدانه ، ثائر لأنه يريد ان يصبح النحو علماً شعبياً ، والادب ادب عامة الناس ، والبلاغة نطقاً يسهّل لنا الحياة ، يريد ان يحل اللسان العام محل اللسان الخاص وبـأداة العلم نفسه لا بأداة قلب المعادلات وحدها .. (.. ولديَّ بعـد ذلك بحوث

جاهزة منها عن الشاعر « فؤاد الخطيب » ومنها عن « أمين الريحاني مقالياً ورائداً للشعر المنثور » ولم يؤخر صدورها غير الضيق « بمودة الحواشي » والمصادر التي استحالت على ايدينا بلادة .. ومقياساً بليداً للجودة والتميز .. والبحث الاصيل المبتكر ..) .. وفي كتابه « منهج البحث الادبي » الذي دخل طبعته السابعة وهو اول كتاب عراقي يطبع هذه الطبعات كان يقول الطاهر (ومهما تبلغ المراجع من القوة فانها تظل ثانوية في عملك ، وثانوية جدا ..) .. وقديماً قال : (.. لنكن على حذر من امر المصادر التي بين ايدينا ونضاعف من الهمة « النقدية » ..) وربما كان الطاهر في باريس يناقش استاذه (بلاشير) اي نفع من المصادر ، وربما قال له بلاشير : خذ العلم من المصادر !

المتعاطفون

وأشهد ان القراء كانوا رصيداً قوياً في ان يكون الطاهر كاتبهم وملهم وجداناتهم ، وهو يشعر ان لهؤلاء ديناً في عنقه وعقله ، فجدد لهم ودافع عن قيمهم ، وكتب لهم بأمانة ، ومثلما قال في (البطحاء) في الاربعينات ، ان القارىء ينمو في

افكاري ، يقول ، الآن ، فما دمت اكتب فان ما اكتبه ثمرة لهذا القارىء العراقي ، وكثرة من الكتاب دافعوا عن هذه (الصلة الحيوية) بين الطاهر وقرائه ، وقلة منهم من ادرك هذه الصلة الحيوية ، فجعلها مقياساً لهذا الاديب العراقي الذي يكتب لجماعة ويكتب لنزاهة ثم يكتب لتاريخ ، وكل اديب يكتب لجماعة او نزاهة او تاريخ ، هو بلا شك : أديبنا .. وأديبنا الذي يربح (التاريخ) ولا يربح غيره .. ومن هؤلاء الذين كتبوا .. بحق الطاهر القاص موسى كريدي الذي دافع عن خصوصية الطاهر في نقد القصص العراقي ، وكان كريدي في الستينات شاباً يجد قوته في ظاهرة قلم الطاهر ، وكتب الناقد عبدالجبار عباس وكان ينفذ الى كتب الطاهر ولا سيما في كتبه (النقدية) وعبدالجبار عباس في طليعة نقاد العراق الحديث تأمل في الطاهر وكأنه يتأمل (مرحلة) من مراحل الافكار .. وكتب ياسين النصير بوعي اداته النقدية عن كتاب الطاهر (محمود احمد السيد) ، وحلل وكان يحلل اسرار كاتب وناقد وجده في الطاهر عارفاً ذكياً في التقاط الجواهر .. وكتب الدكتور صلاح خالص عن (منهج البحث الادبي) وكتب آخرون عن هذا الكتاب ، وكانوا يكتبون عن

نظرية البحث بمنهج العلم والتجربة .. وكتب الدكتور مهدي شاكر العبيدي ، وكان أكثر الكتّاب كتابة عن الطاهر مترجماً وناقداً ولغوياً ومؤلفاً .. وانساناً ، وكتب قاسم عبدالامير عجام وسهيل سامي وقاسم محمد حمزة وسعيد عدنان ونبيل العطية ويوسف نمر ذياب وطراد الكبيسي .. وكتب الناقد فاضل ثامر مقالاً عن اسلوب الطاهر ، وهؤلاء الكتاب كتبوا بوسيلة من وسائل النزاهة في الكتابة .

* * *

ولقي كتابه (معجم المطبوعات العربية / السعودية) اهتماماً كبيراً وهو ينشر حلقات ، فكم من مرة أثنى عليه علامة الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر والدكتور يحيى محمود ساعاتي والدكتور منصور ابراهيم الحازمي .. وفي رسالة لاستاذ جامعي قال ما معناه : لو كانت الجائزة التقديرية في الادب تمنح لغير ادباء السعودية لاستحقها كتاب (معجم المطبوعات ..) .. وكتب مدني صالح مقالة مطولة في الطاهر دار فيها على الصحف والمجلات يعرض عليهم نشرها فما لقي استجابة من احد وكم تمنى الطاهر لو رحبت الصحف بالمقالة

المطولة ، واخيراً وجد المجال - لسبب خاص - في مجلة الاقلام ، ويقول الطاهر : (وأشهد ان الرجل أجهد نفسه من أجلي وفي الثناء ، اولا لينفذ الى ما لا يحتمل نجاح الذم او يوصل الذم الى قارىء قرأ « وراء الافق الادبي » وقرأ غيره وعرف صاحبه « أو لم يعرفه ») .

ولم تكتب مقالة سالبة إلّا ما كتبه المختص الببليوگرافي ناصر السويدان من ملاحظات تدخل فيما سماه علم الببليوگرافي ، ولم يكن الطاهر جاهلاً بها ، ولكنه لم يكن في معجم المطبوعات مكتبياً فقط ، ثم انه لمح في « نقده » تأثراً شخصياً من كاتب أطرى العمل :.. (.. ومن أغرب ما رأيت كلمة عن « الخلاصة في مذاهب الادب الغربي » نشرت في مجلة عراقية فجاء فيها من الكلام ما لم يرد في الكتيب على انه وارد فيه ، وجاء فيها من الرأي على خلاف ما أنا اقصد اليه ، لعل صاحبها كتبها دون ان يقرأ الكتاب مكتفياً بالفهرس المختصر ..) .. وسمع وقرأ لكنه سمع بتؤدة .. وقرأ بتؤدة !

لمـــاذا

ولماذا اصبح الطاهر الكاتب مشهوراً .. واصبح الطاهر

الانسـان معـروفـاً بـدلالتـه ، والكـاتب اذا اشتهـر بحسن جمهوره ، وبأصالته .. صار « ظاهرة » ثقـافية ، جـزءاً من « ظاهرة » وجدانية ، والعرب تحب « الظواهر » لأنها اعطت الادب والشعر والملحمة والفقه وعلم الكلام بالظواهر ، فصار لنا في موروثنا أعلام ظواهر ، تكررها الكتب والمجالس والمقامات وتعتز بها الجوامع والمساجد والمدارس ، والامم الحية تقاس بظواهرهـا لا بعدد افـرادها .. والظاهـرة روح تحفظ للأمم انتسابها للارض ، وتذكي في اجيالها المجد والوجدان والمأثرة القومية ..!

* * *

هو معروف في المدن ، وهذه المدن العراقية قرأت الطاهر في لغة عالية هي لغة كتاب العرب القدامى والمجددين ، وقرأته حافظا لها التراث ، مـدافعا عنـه ، يطور نهـج الرواد ، معارضاً الجامعة بل اقسـام الادب واللغة في هـذه الجامعـة مرشدا بلغة الاستاذ الباني عقلاً وذهناً ، وعرفته كثرة الطلبة، الذين صاروا اساتذة وفيهم الاوفياء ، وهؤلاء ما زالوا يؤثرون للطاهـر نهجه الخـاص في التدريس والامتحـان والتأليف ..

والاسئلة (العاقلة المدركة المستثيرة) .. وأسهمت مقالاته في جريدة (الجمهورية) اسهاماً خاصاً في تكوين قراء و « معجبين » له ، يراهم في كل مكان ، حيثما ذهب الى السوق وحيثما أتى الى مهرجان ادبي ، وفخر لنا ان ينزل اديب او مفكر هذه المنزلة في النفوس ، وفخر لهذه الثقافة العراقية ان يمتد علم من اعلامها الى نطاق شعبي ، ويلتقي في هذا النطاق المعلم والمعلمة والاداري والطالب والمفتي والحرفي .. وكلهم يصافحون الطاهر ولكأنهم يصافحون فجراً جديداً في (ثقافتنا العصرية) يذكرنا بفجر ثقافة العرب في العصر الوسيط ، حيث كان الفقهاء هم الادباء تحتفي بهم المساجد والاسواق .. وتحتفي بهم القصور !

* * *

وقال ان هذه السمعة او هذه « الشهرة » تؤكد اعتزاز القارىء العراقي بكتّابه ، وحتى دور النشر بحثت عن الطاهر ، وحتى الناشرون في بيروت او غيرها يبحثون عنه .. ومنهم من يعرض عروضاً لا يقدمها لغيره : (.. والوفاء الذي اتلقاه من طلبة قدماء جداً لا أكاد أتذكر اسمهم وان تذكرت « شدتي » معهم ، ومن العجيب ان هؤلاء اكثر حماسة في طلب السلام

والتحية وابداء العواطف الطيبة .. وقد يسهم العاق بالشهرة من حيث لا يدري وهو يأكل نفسه) .. ولا بد ان يكون هناك عاق او خصم في طريق الكاتب الجريء النقي : (... اذ لو لم أكن معروفاً او ان يكون فيّ عنصر يعدني « للمعروفية » .. لما ضاق بي اناس لم اسيء إليهم في شيء ، وربما كان لي فضل عليهم .. والامر في الدلالة على هذه الحال معروف عالمياً ..) .. ومعروف ايضا ، ان القراء الحقيقيين يدركون بفطرتهم السليمة أي كاتب في اتجاههم وأي كاتب ينافق على التاريخ ، ولذلك فان القراء ومنذ الاربعينات عرفوا في الطاهر كاتباً في (الاتجاه التاريخي) بصدق متوازن مع النفس ، وبدفاع مستميت عن قيم الجمال والخير . والادب النافع .. (.. وكم من مرة انقذني وجهي من ضائقة لدى مراجعة او موقف اجتماعي او حاجة ما .. انهم يعرفونك معرفة وجه بسبب متصل بالتدريس او المحاضرة او الامسية او التلفزيون .. وأكثر من ذلك .. الاسم .. فكم من مرة تقع عينا المسؤول على الاسم فيتذكر شيئاً فاذا الامور سهلة .. شكراً اخي .. والتلفون دليل آخر .. وربما صحب المقالة اكثر من تلفون .. وتبرز مقالة « استاذي المهنا » الاولى في عدد

التلفونات) . وماذا يعني ان كاتباً بلغ هذا الحب في العام ، وان هذا العام بدأ يحتضن الطاهر بنفس حضاري ، ألم يكن الاسلوب وحده في الطاهر قد حدد هذا الاتجاه أو هذا الالتزام ، اسلوبه في الحياة ، واسلوبه في ان يكون الكاتب العراقي ذا قدر في شخصيته .. وذا قدر في قوانينه الادبية .. وذا قدر في التاريخ .. والحسم في هذا التاريخ !

* * *

وذات يوم كنت اقرأ في تفسير (توينبي) للتاريخ في حقبة الستينات ، وتوقفت في عبارته : (.. ان التاريخ يرجع الى حياة المجتمعات في أوجهها الخارجية وأوجهها الداخلية على حد سواء) .. وكنت أتوقف على اي عامل مهم تبنيٰ على اساسه المجتمعات المتحضرة الحديثة ، واذا هو يقول (ان الحقيقة الروحية كلها وبالتالي القيمة الروحية كلها تكمن في الاشخاص) .. معتبراً ان ليس المجتمع ولا يمكن ان يكون الا وسيلة اتصال تؤثر بها الكائنات البشرية الفردية بعضها على البعض الآخر .. وخلاصة رأي توينبي ، ان الافراد لا المجتمعات هم الذين يصنعون التاريخ البشري ، وان

المجتمـع ليس الا نموذجـاً خاصـاً للعلاقـات بين الكـائنـات البشرية .. ولا ادري لماذا تذكرت الطاهر في قـراءتي لتفسير توينبي ، وعلى كل حال .. فان هذا الرأي خاضع الى المناقشة المنطقية !



سكرتير اتحاد الادباء العراقيين ١٩٦٠

الفصل السابع

ميزان عادل
فــي
النقــد ...!



مع الدكتور البصير اواسط السبعينات

الموسـوعيـة

.. وإذا قرأنا الطاهر في كتبه أو هذه المقالات التي بقيت « مقالات » دون ان تضمها كتب ، فاننا سنتعرف على الطاهر (الموسوعي) الذي دار في علم الادب من شعر وقصة ومنهج تعليم ومن تحقيق ونقد التأليف ونقـد التحقيق .. والترجمـة والفهرسة ، بين قديم وحديث ، دار في هذه الفنـون واكتسب خبرتها ، وحقق في كل حقل من حقولها تميزاً وتفرداً ، بل ان احد كتبه الثلاثين وهو (معجم المطبوعات العربية السعودية ـ بنحو ١٤٠٠ صفحة) ما يعد موسوعـة بذاتـه ـ وقد عـد ـ ويكفي ان يشغل صاحبه عن غيره ، ويرى فيه ما يكفيه .. لأن هذا الكتاب الهائل في علومه ، تشعب فيه التراث فشمل الشعر والعروض وعلوم البلاغة والجناس والطباق والتورية والمقارنات اللغوية ، ولأن مؤلفه اختصر فيه عقله وماضيه وآخر ما ابتكر من موازين اللغة والتحقيق ، وعـد الطاهر في هـذا الكتاب : (العالم المحقق الموسوعي) !

ولماذا اتجه الى الموسوعية ، وكان قادراً عليها ..؟

تدلنا مؤلفاته ، على ان الطاهر كان ثمرة لتجارب طويلة ومتنوعة في القراءات ، بين عربي وفرنسي ، مؤلف ومترجم ،

خاص وعام ، وظل فترة طويلة لم يؤلف فيها كتاباً إلّا بعد شعور عميق في ذاته بأنه جاءت لديه لحظة قادرة على ان يبدع ، في هذا الباب الذي لم يؤلف فيه احد ، وفي هذا الادب الذي أهمل ظلماً ، وفي فضح عيوب ليس من الصحيح التستر عليها والسكوت عنها ، كما في « الموسوعة العربية الميسرة » مثلا .. هذه دوافع دفعت الطاهر الى ان يفتخر بعقله الموسوعي او يفتخر به قراء الادب في العراق ، وزد .. ان الطاهر لم يشغله في هذه الدنيا غير الادب ، ويعينه على ذلك انصرافه التام الى طقوس القراءة والبحث والجد في اكتشاف البحث ، وانه حين يتوجه لبحث ما ، قديماً وحديثاً ، عن الخريمي او عن محمود احمد السيد ، يتوجه اليه توجهاً كاملاً غير عابىء بالوقت والجهد والتكاليف الاخرى ، مضحياً في سبيله بالمتع والفوائد والمكاسب اليومية او الدنيوية .. جامعا المصادر كلها ، مراجعا ما خفي وما ظهر ، ما كان صحيحاً وما كان غير صحيح ، وكأن لا عمل غير هذا العمل ، وكأن لم يكن في الدنيا غير هذا الموضوع ، وينسجم واياه على درجة عجيبة ، ويصل منه الى ما لا يصل اليه آخرون ، وهي قدرة شفافة على النفاذ الى حلمه والى هواجسه والى الرؤية التي يريد ان تكون رؤيته ، وهي

الرؤية التي يعثر عليها في كل كتاب يؤلفه ، ودون ان تتشابه بين كتاب وكتاب ، وحتى لو ألّف ثلاثة كتب في سنة واحدة ، فان لكل كتاب رؤيته ، له زمن وحلم وطموح وهدف ، وله عمر ايضاً .. وحتى هذه العنوانات الكبيرة التي نشرها في المجلات العربية في زمن واحد بأسماء متواضعة في مقدمتها : (تحقيقات عرضية) و (في المكتبة) و (أنت تقرأ ...) و (كتب وملاحظات) .. هي عوالم رؤى ، كل عالم غني بمفرده ، عالم الجغرافيا والتاريخ والادب واللغة ، كل عالم يبدو الطاهر فيه متفقها ، يكتب في ميدان خاص ، ويخترع أدلة في هذا الميدان !

* * *

والطاهر موسوعي في ميدان الادب ، وموسوعيته موسوعية ادبية تمس أطرافاً من اللغة والتاريخ ، وليست الموسوعية التي رأيناها لدى آخرين .. وهي التي تشتمل على كل شيء من سياسة واجتماع وتاريخ ونبات وفلسفة وحيوان وفلك ولغات ، وكما ظهرت في كتّاب عرب .. العقاد او سلامة موسى ، ممن صاروا كبارا ، وصار لهم جمهور جغرافي ، لكننا اذا بحثنا في موسوعية هؤلاء الكتاب رأيناها تفتقد الى المصادر ، وهي المصادر التي تلم بالموضوع الماماً استيعابياً ،

وكانوا يعوضون عن المصادر الاستيعابية (بتصوراتهم) ، ويتصرفون بالمادة القليلة لأفكارهم الواسعة فيما يحملون من اجتهادات ، وبعض كتاب العلم لا يعتبرون هذا (التصرف) تأليفاً بالمعنى العلمي ، وليس بحثاً بالمعنى الدقيق .. وطبيعي ، ان الطاهر لا يمكن ان يجاري العقاد او سلامة موسى في سعة الرقعة التي (يصولون) عليها ، ولكنهما (يصولان) .. وفرق بين من يصول ومن يبحث ، وقد بحث الطاهر واستوفى بحثه المنهج العلمي في الميادين المتعددة التي انصرف اليها .. ويقول في هذا المعنى :... (... واذا فخرت فخرت بموسوعية محدودة بعالم الادب .. واني لا اتصدى للحديث او الكتابة او الرد او النقد معتمدا على الخزين الموسوعي وحده ، وانما اتخذه دليلا للبدء والتنبه ومن ثم لا بد من الرجوع الى المصادر التي تمتحن الظن فأصل معها الى نتيجة جديرة بأن تكتب وتنشر ويؤلف فيها ، خدمة للمؤلف الآخر والقارىء ..) .. ولموسوعيته جاء إليه القراء من كل فج ثقافي ، يقرؤونه بمتعة ، وبعض القراء اشترى طبعات مختلفة لكتاب واحد من كتبه ، حرصا من هؤلاء ، على ان يمر الطاهر بينهم كاتباً كبيراً ، له سوق في مشتريات الكتب ، واكثر هؤلاء

القراء جاؤوا إليه من خارج التخصص الادبي كالقضاة والمحامين والاطباء وادباء الجيل الجديد ، ويفرحنا ان يكرم الكتاب العراقي بالطاهر او ان يكرم الطاهر بهذا الكتاب ، وان يكرم به نشره : (... وقد أفيدك من تجربتي اني وجدت اكثر قرائي يأتون من غير ميدان التخصص ، وانهم يقرؤون بذوق وفكر وتجرد ، وأقصد بالتجرد انهم يعلنون اعجابهم ويعلنون قراءتهم على انك قد تجد في « زملائك » الكثير من الذين لا يقرؤونك ، والقليل الذي يقرأ ويسلك وكأنه لم يقرأ وانك لم تكتب .. خصوصاً في الموضوعات الحساسة والمقالات الهزازة !!..) ومن العجائب الغرائب التي رايتها في مجال القراءة والكتابة ، ان المتخصصين الاكاديميين بالادب كانوا أقل القراء قراءة واقتناء للكتاب ومتابعة للمجلة والجريدة ، وقلما عثرت على استاذ جامعي يزاول قراءة متواضعة فيما يخص الادب العراقي ، فكيف بالادب العربي (في عموم اقطاره) ..!

آراء وملاحظات

وجعلته الموسوعية ان يصدر حكما او ان يقول رأياً

(حـادأ) فيمـا يكتب من فنـون الادب العـراقي ، دون ان (يجامل) في شيء ، وكأنه يصدر حكماً او رأياً الى تاريخ قادم ، وذات يوم سألته عن أهم الكتب التي صدرت خلال الخمسين سنة الماضية في مختلف الموضوعات ، فكان يلغي كتاباً ويضيف رأياً لكتب بل لموضوعات ، فحدد هذه الكتب :

في الشعر : ديوان الجواهري ، وديوان بدر السياب ..

وفي القصة : الوجه الآخر ..

وفي الرواية : الرجع البعيد ..

وفي الدراسة : مؤلفات الدكتور البصير ..

وفي اللغة : قل ولا تقل .. للدكتور مصطفى جواد ..

وفي محـور هذا السـؤال ، تشعب الحديث عن الادب العـراقي ، وجمهـور الشعـر العمـودي والحـر ، ورأيـه في (الاصلاء) و (الغرباء) في الشعر والقصة والنقد ، وأعطى آراءه بحرية وجدناها فيه منـذ كان (اللولب) الحسـاس في اتحاد الادباء ابان تأسيسه في الخمسينات ، وحريته قائمة على اساس مزاجه العلمي وتصوراته ، لكنها لا تخلو من (مزاج فرداني) خضع له بفعل دوافع عواطفه الخاصة ، ومع هذا ، فعـواطفه لا تغـالي ولا تثبط عـزماً ، حتى اذا اثبـطت بعض

العزائم ، فانه لا يعبأ بعويل هنا ، او لا يعبأ في سبيل مبادئه النقدية بأية سن جارحة ..

الشعر العمودي

وخلاصة رأيه بهذا الشعر .. ان الاقتناع باندثاره ليس سهلاً ، لانه ليس قليلاً في عالم الفن (ودع عنك ما قيل ويقال عن انه لا يجاري العصر ولا يحتمل مشاكله) .. اذ يجعل المسألة مرهونة بالزمن ، ويحسب او يتمنى انه يعود ، وكل ما في الامر ان يتعايش الشعران : العمودي والحر .. لكنه لم يمنعه من ان يقول ، ان الشعر العمودي قد تخلف في كل مكان ، لانصراف الاجيال التالية الى ما عرف بالشعر الحر ، ونبوغ شعراء في هذا النوع .

وهل يقرأ الشعر ويتابعه بالنقد .. (..ولِمَ لا اقرأ الشعر العمودي الحديث والمعاصر ، اذا كان لعمر أبي ريشة والجواهري .. وشاعر آخر عراقي لا يعرفه الناس جيداً لأنه يؤثر ألّا يعرفه الناس ، لسبب ولآخر ولثقة بنفسه ، هو عبدالامير الورد الذي لا يعدله في شعراء العمود اليوم شاعر) .. وفاض عندما ميز بين شعراء العمود ، ففي مصر

ميز شوقي وفي العراق ميز الجواهري ، فشوقي شاعر كبير والجواهري شاعر كبير ، ولم يقابل الطاهر بينهما ، لكن الجواهري - في رأيه - قد يفوق شوقي .. وميز في سورية : عمر ابو ريشة وبدوي الجبل ونزار قباني ، وفي لبنان : الاخطل الصغير ، اما رأيه في (الاصطلاح) فلا غبار على ما يجري من اصطلاح الشعر العمودي والشعر الحر ، والسبب بسيط جداً لانهما صارا اصطلاحين في حدود ألفاظهما .. والمطلوب : الدلالة على الفحوى والتاريخ والسمة ، فاذا قلت الشعر العمودي ادرك السامع قصدك وذكر امرأ القيس والجواهري ، واذا قلت الحر فهم القارىء ما تريد اليه وذكر قصائد للسياب وقصائد لنازك الملائكة ونزار قباني :.. (.. وماذا تريد من المصطلح أكثر من الدلالة على المسمى ، وقد حصلت الدلالة ، ومما يؤيد صحة التسمية سيرورتها ونجاحها وثباتها على الرغم من كثرة اسماء اخرى قدمت كشعر الشطرين ، والشعر القديم ، وكشعر التفعيلة ، والمطلق ، والمنفلت والحديث ..) وقلت له هل تبتكر اصطلاحاً جديداً للشعر الحر ، فرفض ، اذ يعتبر من العبث الكبير التفكير في اصطناع مصطلح جديد لن يكون مصيره خيرا من اقتراح (شعر

الشطرين) من جهة و (شعر التفعيلة) من جهة اخرى ، لأن الطاهر او نحن توارثنا قولاً صحيحاً يقول ان الجديد سيكون قديماً .. وربما يأتي جيل ليصطلح اصطلاحاً !

جمهور الشعرين

هو يقول انا اعرف القارىء وانا اقول اعرف هذا القارىء ماذا يقرأ من شعر ، ورأيه ان في العراق للحر جمهوره وجلهم من الشباب ، وللعمودي جمهوره وجلهم من الكهول والشيوخ .. ولم ينجح الحر في ان يكون جماهيرياً بمعنى ان يتألق - كالعمودي - في الحفلات والمظاهرات ، والمؤتمرات الاجتماعية او السياسية ، ويقول الطاهر : نجح السياب عند هؤلاء وهؤلاء ، ونجح الجواهري - على غير مغالطة - عند هؤلاء وهؤلاء .. اما قول الطاهر بأن الكثير من جمهور الشعر الحر من قارئين وناظمين ومتعصبين لا يدلون على عمق في النظرة او رهافة في الحس ، كما فهمت من نقاشه ، فهو قول لا ينسجم واساس تفكيره بالمستقبل ، وكنت ارغب في ان يظل على مقولته القديمة (السيادة للمواهب وليس للانماط) .. والمستقبل دائماً اعز من الماضي ، والماضي اعز من (ماضيه)

القديم ، وهكذا فنحن لا يمكن ان نخشى من أية ظاهرة ابداعية ، لأن متعصبين دخلوا في هذه الظاهرة او متطفلين .. (وجادلهم بالتي هي أحسن).. وظل الطاهر يجادل ، حتى قال (.. ولست من اعداء الشعر الحر وطالما ناصرته ، وسأظل كذلك ما دام موطناً للابداع والنبوغ ..) .. وقد ناصره بحذر شديد !

والطاهر قال : الشعر الحر لم ينجح جماهيرياً ، ويقصد بالجماهير (الحفلة الجماهيرية) ، فلم يصفق له الجمهور ولم يصفق لشاعره .. (فعندما كان يطلع واحد من اصحاب الشعر الحر في جمهور حاشد للسياسة او غيرها فيقرأ قصيدة حرة .. فلا يلاقى الا بالبرود .. هذا هو الذي وقع ، وعرف .. وتحامى الشعراء انفسهم ان يتكرر وقوعهم فيه) .. ويأخذ الطاهر مثلا في هذا من مؤتمر الادباء العرب في بغداد (١٩٦٩) حين انسحب ادونيس من المنصة فيما رآه من « فشل » الشعر الحر جماهيرياً ، واقول للطاهر ، ان الشعر ـ اساساً ـ لم يخلق ليقرأ في حشد حسب ، وانما يقرأ ويسمع ويقال بأية وسيلة وفي اية وسيلة ، وما هو مألوف في مثل هذه (المناسبات) لا يقيم الحجة على ان الشعر خلق للتصفيق او هو الشعر الجيد

الناجح ، واذا كان هذا هو القياس ، فماذا نقول عن الملاحم الشعرية التاريخية ، فهل سيصفق لها الحشد ان قرئت في حشد ؟، وفي قول آخر للطاهر ، ان الايقاع الصارخ في الشعر الحر يهيىء لشاعر الحر جمهوراً في حشد كما يفعل نزار قباني او محمود درويش ، ويصير هذا الشعر جماهيرياً : (وقد صار ورأيناه .. في الوقت الذي رأينا « فشلاً » ذريعاً صاحب آخرين من دعاة قصيدة الشعر الحر جداً ..) .. وهل اتفق النقاد على اعتبار (النزعة الصاخبة) شرطاً في نجاح الشعر ، اسأل الطاهر .. واسأل نقاد الشعر ..!

* * *

ولماذا يقف الطاهر هذا الموقف ازاء شعراء الحر .. (لا .. فأنا اشخص امراضهم ، انا ناقد) .. ومآخذه ، خلو اكثرهم من الموهبة ، والذوق الفني ، والاذن والاداة (اي اللغة) ، (وانا ناقد انقد قصائدهم) ونقده ، في ان هذه القصائد تعاني امراض الطول والاغماض ، واللاشاعرية ، لكنه يفرد للسياب باباً خاصاً ويبجّله ، اذ يعده ظاهرة من أخلد الظاهرات ، ولم يأت في العراق من يبزه ، وربما في الوطن

العـربي ، وبغير .. ربمـا .. ويقلق الطاهـر من اولئـك الذين يريدون ان يزيحوا (السياب) من الخارطة .. اولئك يرتكبون وسائل مفتعلة ما أسرع ما تفتضح ، لأن السيـاب لم يفتعل الشهرة في حياته وما زالت شهرته في تصاعد بعـد مماتـه .. ووضع الطاهر مع السياب شعراء آخرين يشكلون ريادة في هذا الشعر وهم : نازك الملائكة وبلند الحيدري وشاذل طاقة (ولكنه لم يأخذ مكاناً في الرأي العام) كما اخذه الاخرون .. والبياتي لأنه دخل في الرأي العام .. ووضع شعراء آخرين ، قال عنهم هم بعد مرحلة السياب .. وهم : سامي مهدي وحميد سعيد وحسب الشيخ جعفر : ويقول : (وكلما تقدم الزمن تنسحب صورة الشعر خمسينياً كان ام ستينياً ، ويأتي اللاحق دون السابق .. ويبقى السياب متألقاً على كل حال ..) .. ويشرح الطاهر الفروقات بين جيل السياب وجيـل الستينات ، وعـدد الفواصل ، وانتخب قصـائد هنـا وهنا وأثبت وألغى ، وبيّن الاختلاف بين الجيلين ، وتساءل بل شخّص : (وأرى جيل سامي وحميد سعيد وحسب الشيخ جعفر يميلون يوماً بعد يوم عن « الوجدان » مع ان شعرهم وجداني ، ليس فيهم من كتب مسرحية او اقتحم الملحمة ، او القصيدة الطويلة وفي الذهن

« المومس العمياء » .. ويميلون الى النثرية ..) وهؤلاء الشعراء طالع عنهم الطاهر في صحف الوطن العربي ، وهذا ما يدل على انهم معروفون لدى القراء العرب ولدى الشعراء العرب ونقاده ، وانهم عرفوا في المؤتمرات واللقاءات والعمل السياسي .. (وأخشى على حسب الشيخ جعفر مبالغته في العزلة وهو معروف في النطاق العربي كزميليه ، رغم ابتعاده عن الاضواء) .

الاجيال

وورد اسم جيل في نقاشه ، فهل كان الطاهر يعني بالجيل (جيلاً تاريخياً) له صفاته وتقاليده وله منهج في الكتابة : (انا اقصد بذلك !) ويعتبر الاجيال في الادب : حقيقة تاريخية : (وقد عرفها العرب بأسماء منها على العصور : جاهلي ، مخضرم ، محدث « اسلامي .. من الدولة الاموية ، من الدولة العباسية » وعرفوها بالطبقات احياناً ..) وقلت له انت درست الادب العراقي ، فهل بامكاننا ، او نجيز لأنفسنا ان نقسم كتّاب العراق الى اجيال (باصطلاحات) ومنذ عام ١٩٢٠ ،

أ

قـال : يمكن ان نقسم ـ نحن معاصـري الادب في العراق - الادب في العراق الى اجيال بمقتضى فوارق في السن وفي الفن تبدو للناظر مع سير الزمن .. واذا نـظرنا الى الشعـر رأينا : الزهـاوي والرصافي والكـاظمي والشبيبي والشرقي جيـلا ، والجواهري جيلا ، والسياب وقل الخمسينات جيلاً ثم كان جيل الستينات ـ وقد سميته يومـا ما جيـل « الكلمة » ، ويسعى شباب السبعينات سعياً ملحاً الى ان يكونوا جيلاً .. ويرجـع الطاهر ان كلمة « الاجيال » الشائعة على الالسن في العقـود الاخيرة ، وربما في الستينات خاصـة هي ترجمـة عن الغرب لكلمة Generation ، وكانت لديهم في الغرب الحديث اهمية ولهم فيها نقاش ونظريات .. وأخذ ورد ، كما كانت لدينا في الستينات ..

ويروي الناقد الطاهر ذكرياته النقديـة في الاجيال الادبية كافة ، في رأي لا يتزعزع ، وفي موقف نابع من هذا المزاج القوي الرصين لأفكاره ، قال (اقول وبلغ فرأيي ثابت فيما اقول) ان الاجيال تتوالى على تأثير واضح : جيل

الزهاوي والشبيبي ، الجواهري ، السياب ، وبـدا جيل الستينات وكأنه منقطع وأقل تأثيراً من الاجيال السابقة (وانقطاعه له اسبابه) وله مبرراته ، ويقـول الطاهر : (اما الجمهور فقد تأثر بالاجيـال الاولى ـ اذا قصدنـا الجمهور عامة الناس الذين يستمعون ويتأثـرون ، وكان أثر شاعر خطيب كالشيخ محمد مهدي البصـير عظيمـاً وبالغاً ما زالت اصداؤه قائمة في تاريخ العراق كلما ذكرت ثورة العشرين ، ولم يبلغ تأثير لشاعر في جمهـور كالذي بلغه الجواهري) .. ويرى الطاهر اثر السياب واضحاً ، وقد خرج عن حدود العراق الى الوطن العربي كله : (لا .. بل شرع الغربيون ينتبهون اليه طواعية ولعلك بلغك اهتمام مستعرب فرنسي ذكي هـو اندره ميكيـل به ، تـرجم من شعـره ، ودرس .. وأعجب) ، وهكذا يحسن ، في رأي الطاهر ، ان تأتي الخلافة « منقادة » .. ويتحدث القراء او بعض النقاد عن اثر لسعدي يوسف وللبيـاتي ، ولكن الطاهر لم يتبين هذا التأثر في حدود علمه ، ومن العجائب التي يسمعها الدكتور الطاهر ، ان البياتي يتأثر بمن هم أصغر منه سناً ومنزلة في الشباب الطالعين ، اذ ترد على

اقلامهم صور او مفردات مناهج . ولا يخفى الطاهر متفقاً مع غيره من النقاد البارعين ، ان المستقبل البعيد سينظر الى هذه الاجيال الاربعة او الخمسة او الستة التي نشأت في ظلال هذا القرن ، عـلى انها جيـل واحد ، بمعنى أن البـاحث او الناقـد المستقبلي سيجـد تشابهـاً نفسياً او اجتماعياً في اجيال قرننا الراهن ، ولربما سيقـول ناقـد مستقبلي آخر ان اجيال هذا القرن كتبت بعين جيل واحد وأدركت الحيـاة بعقل جيـل واحد ، بعـد زوال الفوارق الآنية .

ليـس نقـداً

وهـو يراقب الاجيـال كلها ، ويـوظف اجتهاداتـه وأحكامه في عملية النقد ، وأحكم ان كل ما كتبه الطاهر من مقالات ودراسات يدخل في النقد ، ينقد الاثر او الجنس الادبي بتجرد وموضوعية ، ويخرج بعد النقد بنتيجة ، اما بانحياز تام الى الشكل والمضمون ، واما التحريض الخفي الى رفض الشكل والمضمون ، اذ لم يعهـد ان وقف بين بين ، ولم يعهد ان تنازل عن آرائه النقدية ، وتخرج آراؤه

النقدية من نظريته (فن + موقف + رؤية) وعرف القراء هذه النظرية بأحاسيسهم الفطرية والعاقلة ، فعرفوا فيها ناقداً كبيراً ، وكثير من الادباء او القراء السياسيين وصفوا الطاهر بالناقد الكبير ، وأول مرة نعت بهذا النعت ترجع الى سنة ١٩٦٩ ، حين قدمه اديب في مقابلة اذاعية ، فاستوقفه ورجاه البدء مجدداً من غير « الكبير » : (.. اني احاول ان اقنع نفسي بأني ناقد ، وليس هذا تواضعاً مفتعلاً ولكنه قياس الى ما يجب ان يكون عليه الناقد الحق .. ولقد قبلت صفة الناقد لأنها جاءتني من القراء طوعاً) ، وأتذكر انه قال في حديث تلفزيوني : ان ليس لدينا نقاد وانما نقد او مقالات نقدية ، قال هذا الرأي في السبعينات ، فهل طرأ شيء جديد على هذا الرأي ، يقول : (... وما زال للرأي صحته .. لقلة من يثابر وينصرف انصرافاً تاماً للنقد كما هو الشأن في البلدان التي صار فيها نقاد ، يذكرون على انهم نقاد ، وكما يذكر الشعراء والقصاصون) ، محمود أحمد السيد ، نهاد التكرلي ، جلال الخياط ، عناد غزوان ، علي عباس علوان ، محسن

الموسوي ، فاضل ثامر ، ياسين النصير ، عبدالجبار عباس ، طراد الكبيسي ، وشجاع العاني ، وباسم حمودي ، وحاتم الصكر (وهو أمل جديد في نقد الشعر) .. وما يقال في حاضر النقد في العراق لا يختلف كثيراً عما يقال عن النقاد العرب ، والطاهر يؤيدني في ذلك : (وليس نقداً هذا الذي يصل الينا خلال المجلات السياسية الاسبوعية ، بل يتوفر الآن نقاد مرتزقة [ولم يسمِّ الطاهر هؤلاء النقاد المرتزقة وقال قوله وذهب] وليس نقداً هذا الذي يصل الينا كتباً بنيوية ، وليس لدينا مجلة ادبية بمعنى الكلمة يتأصل فيها النقد الادبي ، وخير ما في مجلة « فصول » المترجم او المتأثر بالترجمة ، وربما كان عبدالفتاح كيليطو خير من اقنعني لقراءته في علمه النظري) .. ثم يقول : (ويبقى الاسف الكبير في انصراف الدكتور احسان عباس عن مزاولة النقد الادبي ، مع غلطة له اخرى تحسب عليه على المدى وتظل تعكر نظرته واحكامه ، بدأ بها وهو في السودان ولم يشأ ان يعلن التراجع .. وليته اصغى لكلام عمر بن الخطاب) ..

ومثلما شخص امراض الشعراء المجددين يشخص امـراض نقادنا : (.. ان اكبر آفة في نقادنا ضعف شخصيـاتهم ازاء المال والجاه وركضهم وراء مناهج ليست لهم ، ثم قلة في الجد ، وتقـطع في المواصلة ..) .. وتحـدثنـا عن القيم الاخـلاقيـة والاجتماعية التي تؤثر في النقد منذ كان النقد في صحافتنا في الاربعينات ، وذهب الطاهر الى ان نقادنا متأثرون بهذه القيم ، وأكثرهم يخضعون لمؤثراتها : (.. فلعلي اذكر تأثـر كثير من الكتابات النقدية بالاتجاهات السياسية التي يميل اليها الكاتب او يرتبط بها ، وربما أثر ذلك في احكامهم سلباً او ايجاباً) .. وسألته عن اللااخلاقية في النقد ، وفي عرف النقـد العلمي ، فقال : (.. اللااخلاقي في النقد ، هو التسـرع في النقد ، او النقد على غير قراءة ، ومدح الصديق الذي معـك ، واحيانـاً ليمدحك ، وذم الذي ليس معك .. ثم الكتابة من أجل « دراهم معدودات » ثم مجاملة من يمكن ان ينفع ويضر ، ثم ان يطلب هذه المجاملة من يرى في نفسه النفـع والضرر) .. وصـرخ الطاهر : (هات الناقد الحقيقي وخذ الاجوبـة ..) .. وقلت له .. وخبرتك .. هل ينجح النقد عندنا ؟، قال « لكنه صرخ » : (.. ولِمَ لا ينجح .. ولكن لا بد من حضارة) ! ثم قلت له :

ربما قارىء من قراء الادب قرأ احكامك هذه في النقاد والشعراء وسألك : هل من حقك اصدار هذه الاحكام ؟ قال : (سؤال اقل ما أقول فيه عجيب امور غريب قضية ..) !.. إذن له الحق في ان يصدر قراراً بنقد ما دام هو قد نضج في هذه الثقة التي اهّلته لأن يكون قاضياً يقاضي المبدعين ، ويحكم بينهم حكم عدل وموازنة واعلان !

والقصـــة

وللطاهر بحوث في القصة العراقية ، تابع اعلامها وروادها ، وافاض في بيئاتها ، وحدد لكل مرحلة جيلاً من القصاصين ، ونشر عن انتاجهم ، وحققه في مئة مقالة ، وجاء بمختاراتها في كتاب خاص (في القصص العراقي المعاصر) وقارن بين قاص وقاص وبين جيل وجيل في كتبه النقدية ، وظن القراء ان الطاهر (ناقد قصص) وانه تفرغ لهذا الفن وحده ، وهو أنجح ناقد في القصص العراقي المعاصر ، وانجح دارس لهذه القصص .. يدخل القصة ويكتشف مفاتيحها ويكتشف بطلها ، ويذهب الى القارىء ويعطيه سحر المفاتيح وسحر البطل ، ويقدم مؤلفها كأنه يقدم عوالمه وتصوراته ، ثم يقول

رأيه ببطل القصة وبمؤلفها ، ويحيط بظروفهما احاطة البطل لصراعه واحاطة المؤلف لادارته فن السرد .. وصبره الممتع جعله يعتقد ، ان القصة العربية الحديثة بنت التأثر المباشر بالغرب ، في مصر والشام ، والقصة العراقية ان لم تكن بنت التأثير المباشر ، فهي بنت التأثير غير المباشر ، متابعة لمصر وغير مصر .. ولكن هذا لا يجرد العرب من تراث قصصي ، منه الشعبي ومنه الادبي ، والمقامات وألف ليلة وليلة ، وعنترة ، وتغريبة بني هلال ، هي قصص ، وفي العراق المعاصر قصص ، كان لمحمود احمد السيد فضله في هذا الميدان ، وكما يقول الطاهر فان السيد وضع البذرة الاولى وأوصل القصة الى حافة الفن والتقدم داخل الفن في الحدود المستطاعة .. (ولكن الابداع الحقيقي يرجع الى الخمسينيين : عبدالملك نوري وفؤاد التكرلي ومهدي عيسى الصقر وشاكر خصباك ، وغائب طعمة فرمان ..) .. ويأتي جيل جديد ويحمل هموماً جديدة في اعقاب هؤلاء القصاصين الخمسة الرواد ، وقلت للطاهر من هم ، قال : (.. موسى كريدي اولاً .. محمود جنداري فيما كتبه بعد الستينات « وهو ستيني طبعاً » ، وكتب عبدالستار ناصر جيده في السبعينات .. هؤلاء ثلاثة ضمن المزاج الستيني ..)

بل لعله هو مزاج الطاهر .. ويستدرك : (.. واذا كانت المسألة مسألة زمن فان محمد خضير ، وهو مبدع ، وقد أبدع صامتاً ، ولكنه ليس من مزاج « الفترة » .. ولا يخضع لمواصفاتها العامة ..) .. ويستدرك : (.. ويكاد يكون موقفي من الربيعي يقرب منه من البياتي .. واكرر ان الربيعي يملك شيئاً يعده لابداع شيء ، ولكنه يجني على نفسه في امور كثيرة ، ولا يدع الناس في فرصة من أمر الحكم عليه .. وتعدد طبعات كتبه ، وكثرة كتبه ليست دليلا على الابداع ، ويصعب ان يبدأ الرجل من جديد ..) .. وأظن ان الطاهر نسي اسماء اخرى ابدعت في فن القصة ، منهم على سبيل المثال : نزار عباس ومحمد كامل عارف وجليل القيسي وسركون بولص وعبدالله نيازي .. وربما لم ينس ، فهو ذو (مزاج) وانا ابرىء مزاجه من التعصب والضغينة والجلوس في الموائد المشتركة . ثم يقول ـ ليست مسألة مزاج ، ولكننا لسنا في معرض التعداد ، وإلّا فقد كتبت عن محمود الظاهر وصلاح حمدي ويوسف الحيدري وغازي العبادي ، وعلي خيون .. الخ .

وقصيدة النثر

قال فيها وتحامل على (المنشور) منها ، واتهم كاتبيها بعدم الابداع ، لكنه لم يتحامل على مبدئية « قصيدة النثر » فكرة وإطارا : (نعم ، فأنا لست ضد قصيدة النثر ، انني أرى الشعر في النثر ، فكيف لا أراه في نثر ينشر على انه قصيدة ..) .. وقد رأى بدايات هذه القصيدة فيما كان ينشر في مطلع القرن العشرين ، والى سنوات .. والى ما نشره عبدالمجيد لطفي خاصة .. باسم « الشعر المنثور » .. ويقول : (.. اني مع الجيد جدا ومتعصب على الرديء والرديء جداً ، ولا عبرة لي بالاسماء .. والمصطلحات .. سواء أكانت العمود أم الحر ام قصيدة النثر ..) .. واذكر اني قلت له في يوم ما .. اذا اردت قصيدة نثر مبدعة فبأي شرط ؟ قال : (اذا خلت قصيدة النثر حتى من الايقاع الدال على الموهبة الشاعرة والاحساس المرهف والتجربة الحية فهي لا شعر ولا نثر . وان جاءت موقعة مؤثرة متأثرة فهي شعر وقصيدة حتى لو عدت نثراً فقط) .. وناولته بعض قصائد وقاس عليها « مزاجه » وقال : (.. انني ملزم ملتزم بالابداع وحده يا صاحبي) ، ثم رفض قول القائلين بأن « قصيدة النثر قصيدة المستقبل .. » قائلا : (..

اني غير ملزم به) .. وكأنه يريد ان يثبت ويقول .. فما كانت اجوبتي مزاجية ، ولو كانت مزاجية لما كانت كما رأيتها ، وانما هي ثمرة لتأمل واطلاع ونظر في كوامن الاشياء وتطور الانواع .. وانا اخالفه في المبدأ وأؤيده فيما قال عن شروط الابداع في القصيدة ، واجتهد .. !

لمن تمنح الجائزة

واجتهد الطاهر في كل شيء يرتبط بأدب العراق ، في الحاضر والماضي ، وينبغي ان نحترم اجتهاده ، بل نقيم « الوزن » لهذا الاجتهاد ، فهو من « قلةٍ » تستمع الى رأي فتناقشه ، وتعطي رأياً فيما تناقش ، ولا نقول اننا لا نخالفه في بعض رأي يبديه ، وانما ينبغي ان نجعل الطاهر ومن مشى الى حلمه جزءاً في قرار يطور ذاتاً أدبية ، ويشيد عمارة تزدهر في ثقافتنا المعاصرة ، فهو كتب ونقد وحلل ، ويريد ، دائماً ، ان يكون الاديب العراقي مثلما جاءت صورته فيما كتب ونقد وحلل ، ذاتاً بذات .. حتى يتأكد التأصيل الثقافي : (والاديب العراقي ، هو ابن للعراق ، ينشأ ويكبر .. ويخلص ، ويعرف الفضل ، اما اذا خان الامانة فهو عراقي بالمولد والنسب ولكنه

خائن عراقي - وارجو ان لا يكون) .. وقال : (أريده موهبة كبيرة .. ويتجنب الاعتماد على وسائل خارجية عن طبيعة العمل .. والركض وراء دعوات ادبية او مناهج لا يدركها ولا تنفعه في ظهور شخصيته) ، ويعني الطاهر ، ان الموهبة الكبيرة هي خليقة بأن تنشىء نفساً كبيرة !.. ولا بد لهذه الموهبة ان تكرم ، والتكريم يسهم في بنائها وفي تطويرها ، أما صورة التكريم في ذهن الطاهر فاذا أتي بجائزة .. فينبغي ان توضع « الجائزة » في موضع الموهبة الحق ، الخالقة ، المبدعة المعبرة جميعا عن تاريخ ، ولكن : (شرطاً واحداً لا بد منه في هذا وذاك .. التكريم للتكريم ، أقصد التكريم على ابداع يذكر بارزاً في بابه ، على قاعدة الحق والاهلية وخدمة الابداع) وهو قول كان يقول به كبار الادباء في العالم من ان الجائزة اذا خرجت عن شرطها خرجت عن اسباب وجودها ..

وماذا يقول عن جائزة سنوية تمنح للمواهب الكبيرة في العراق ؟

: (انا لست من دعاة الجوائز وان كنت لا امانع في دعوة تأتي من غيري) !

وقلت : لا ضرر في مثل هذا « التقليد » لأن الامة مجموعة تقاليد !

* * *

اذا كانت الجائزة عنواناً اخلاقياً للعبقريات والمواهب ، فان الطاهر ما انفك وما فتىء يبحث عن هذا العنوان الذي يخلد ظاهرة المواهب في مجتمعاتنا ، هو اذن مع هـذا النداء الذي اطلقه مؤرخ القرن الثامن عشر ليـوبولد ڤـون رانكه : « ان المؤثرات الاخلاقية تحدد عظمة الامم وانحطاطهـا » ، وكان رانكه يوجه نداءه الى مـواهب الكتاب والمـؤرخين بـأن تكون مواهب عالية حتى تكتسب الجائزة ، وكان الطاهر يوجه نداءه الى التاريخ بأن ينصف المواهب الخالدة !

* **وفاءٌ للحقيقة !**

وفرح عندما قلت له انت من المقروئين الأول في العراق وذهب فرحاً وقال :

— إني ارى نفسي - على ما ترى من خير وشر - من المحظوظين المقروئين الذين لم يكن النشر لديهم في يوم من الايام مشكلة ، رغم اني اقدم على التأليف دون اي تفكير - او حذر - بالنشر يكون او لا يكون ، المهم أن تشبع « حاجة » التأليف في الموضوع الذي تراه واجباً وتلح نفسك عليه خدمة ووفاء وبياناً للحقيقة .. اما الـ (١٠٠٠) نسخة قليلة (من طبع كتبي) ، وهي قليلة ظاهراً ، وليست قليلة لدى القياس العام ، فهذا شأن الكتاب العراقي حين أدركناه في اواخر الخمسينات إلّا ما شذ وندر لسبب من الاسباب ، ويكون في الاسباب : الاثارة - ولم تلبث نسخ الكتاب الجاد أن زادت ..) ..



طارق الخالصي وعبدالحميد المحاري واحمد سوسة وناجي جواد الساعاتي وحـ
امين والطاهر وهم في بيت الساعاتي ، تكريماً للمرحوم سوسة !

الفصل الثامن

فلسفته
في
الكتابة : منهج وفكر ..!



للرود ١٩٨٦ ـ جاك بيرك بين الطاهر وعبدالحق فاضل
والى يمين الطاهر زوجته فزوجة برك

عالمه .. مكتبته

.. وهو بين الفئة القليلة التي تركت ملذات الحياة ، وجلست في محراب الكتب ، تفكر وتكتب ، ولا تكتب ألا لتترك أثراً يخلدها في النفوس .. وكان الطاهر يقضي ساعاته بين هذه الرفوف المتصاعدة المترامية في (مكتبته الخاصة) متأملاً في بحث موعود او كتاب عد منهجه .. واستقامت فكرته ، وذهبت ، انا ، الى هذه المكتبة اتصفح فهارسها ، ومعاجمها ، وموسوعاتها ، في كل لون من الوان العقل البشري .. فاكتشفت : ان عقل الطاهر .. أكبر من (مكتبته) .. فهو عقل تنوع في (كتبه ومؤلفاته وبحوثه) وهذا العقل لا يرضى بأقل من مئة الف كتاب ، فمن اين جاء بالباقي .. وهو في هذه الحال ، قراءة ، وكتابة لا تكفيه المكتبات العامة كلها ، ويبقى في عوز وتبلغ به الشكوى مبلغ الفقير الجائع العاري ..

* * *

اذا قرر عنوان البحث المزمع عمله ، بدأ بما تيسر لديه في هذه المكتبة ثم خف الى المكتبات العامة ومعه قائمة بالحاجة اللازمة الى المصادر والمراجع يستعيرها تدريجا ، وينظر في بعضها في مكانها ، واذا عجزت المكتبات العامة استعان

بأصدقائه يستعير منهم ـ كما يعيرهم .. وله اصدقاء على اهتمامات متعددة وبأعمار مختلفة ، فهذا شيخ وهذا شاب ، وهذا يعنى بالقصة وهذا بالشعر ، وهذا وهذا .. ويمضي الى الكتاب ، بقدرة عجيبة ، يقدسه ، ويحفظ حرمته ، لأنه يفيد منه ، يأخذ منه تاريخاً ويقارن فيه تاريخاً .. وقد يلغي فيه تاريخاً ..

وثمة مدرج للكتاب الفرنسي ، ادب ونقد وقصص وشعر ومسرح وتاريخ ومعاجم ..

وثمة في الادراج المغطاة كتب اخرى ، لعلها من عقول الاولين ..

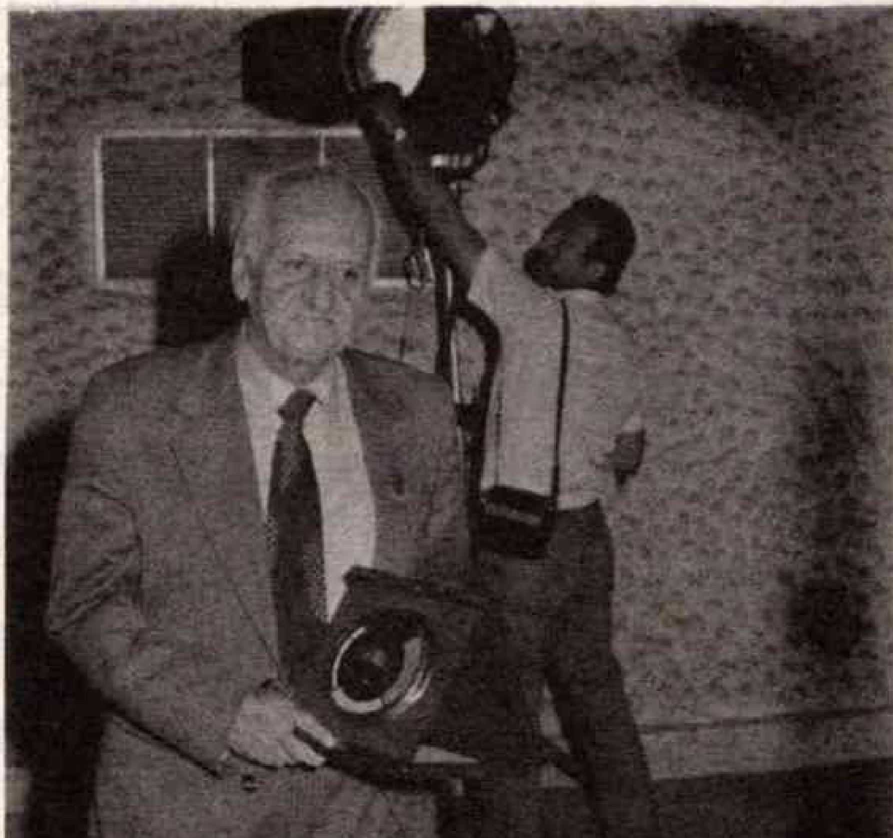
وبين هذه وهذه كتب مشاركات في الفلسفة والحضارة والتاريخ ..

ونقل الى (المخزن) ما هو أقل استعمالا وتندر الحاجة اليه ..

وقال الطاهر : دعنا نبدأ رحلة البداية في هذه المكتبة :

الوجدان

.. ومن بيته القديم ورث الكتب الاولى وهي القرآن



هدية من جامعة صلاح الدين رئيساً
لندوة الادب المقارن ١٩٨٢

الكريم ، حفظ فيه بلاغة ولغة فترى لغته جـزلة ذات ايقاع ، وهذه الادعية الصغيـرة بحجم الكف ، يجمعها كتـاب ذهبت حواشيه ، أدعية بأسماء وعنوانات تدل على التلاوة وهي تهيء الطالب لأن يكون أديباً ، وكتاب في قواعد النحو تأليف حفني ناصيف ومحمد دياب ومصطفى طموم ، وكتاب يعلّم المراسلة بالرسائل انتفع به في الكتابة الى اصدقائه الذين ابتعدوا عن الحلة في الصيف ومنهم حكمـة حسـن السبـتي ، وكـتـاب (مناجاة الحبيب) لا يدري الطاهر كيف دلف الى مكتبتـه ، وكان يدور في (الغزل والنسيب) وثلاثة كتب يجمع أحـدها العقاد وسلامة موسى والمنفلوطي ، وثـانيها مختـار الصحاح وثالثها (السعادة) ويتذكر الطاهر من موضوعاته المتناقضة رأياً يقول : السعادة من الداخل ، ورأياً يقول : السعادة من الخارج ، وكان لا يعي المقصود بالداخل والخارج وهو طالب في الابتدائية ، وما زال هذا الكتـاب في مكتبته .. وبعض الكتب الاولى اثارت فيه الشجن ، فقبـل خمسين سنـة امتلك كتيباً صغيراً وتأثر به ، بـل يروي بعضـاً من مواده في منـاسبات شفهية ، ومن يدري فلعل الطاهر وجد فيه عبرة اختلال الموازين في الحياة ، والتنبه الى اضطراب المنطق في بعض النـاس وفي

الاشياء وفي الحياة ، هو كتاب (نوادر الخواجا نصرالدين) المعروف بجحا الرومي .. ومن هذه العبر : انه نظر الى جحا يوما وهو في السوق يشتري البيضة بعشرة فلوس ويبيعها بتسعة فلوس فسئل في ذلك .. فقال : خير من العطالة .. ثم في نادرة اخرى قال : أتصدقون الحمار وتكذبونني ، وقال في اخرى : ان الذي يلد يتوفى .. وفي جانب من المكتبة دفاتر مكتوبة بألوان الحبر المختلفة ، ابتدأ بها منذ الابتدائية ، يخط فيها صور ذكرياته والحوادث التي تمر في المدينة ، ومختارات مما يقع عليه ، من الشعر خاصة ، وقد كتب في صدر احد هذه الدفاتر بيتاً من الشعر ، كان يتغنى به ويتبناه :

ان الغني هو الغني بنفسه
ولو انه عاري المناكب حافي

ومسألة هذه الدفاتر تطول ، فهي مرافقة لعمره ، وبلغت ضعف سنيه وزيادة ، وحبذا لو سلك اليها الادباء وكتبوا فيها ذكريات الزمان ، لأن الذاكرات تسقط حينما تشيخ ..!

ومن الكتب الاولى التي اشتراها الطاهر (وهو في المتوسطة) المجموعة القصصية الاولى لذو النون ايوب التي اصدرها باسم (رسل الثقافة) نصحه بشرائها مدرس

الرياضيات عندما زار الحلة آنئذٍ القاص ذو النون ايوب (.. بمعنى من معاني الوطنية ..) .. ولديه من مشتريات ١٩٤٠ (أدب الحجاز) وقد اشتراه من (الشطرة) عندما كان معلماً ، وهو من تأليف محمد سرور الصبان ومطبوع في القاهرة ، المطبعة العربية (وهي مطبعة خير الدين الزركلي ـ ١٣٤٤ = (١٩٢٥) ، ومن مشترياته في ١٩٤١ ، مختارات سلامة موسى (وهو الان كتاب مفسخ) .. عليه تاريخ الشراء ٢٠ / ٥ / ١٩٤١ .. اما أقدم كتاب .. متعدد الأجزاء (غالي الثمن في حينه) فهو : معجم الادباء لياقوت الحموي ، طبعة دار المأمون بـ ٢٠ جزءاً وكان سعره دينارين .. وكتاب المنتظم لابن الجوزي ، خمسة اجزاء ، طبعة الهند بسعر (٥) دنانير ، اشتراها الطاهر في اواسط الاربعينات ، وفي هذه الاعوام اشترى كتاب وفيات الاعيان وشذرات الذهب (للحنبلي) وكتاب (دولة الدخلاء) للبصير .. ومجموعات مجلة (الثقافة) و (الرسالة) و (الرواية) وسلاسل .. ومصنفات !

الاهـداء .. والاسـتهداء

وبعض كتب الامهات جاءتـه إهداء من اصـدقائـه في الاربعينات (بلا نفاق او طمع) وهـذه « الاهداءات » تلقي تاريخاً على شخصية الطاهر ، وأكثر من ذلك ، ان الادباء الذين ارسلوا اليـه كتبهم او مؤلفـاتهم كانـوا يجدون فيـه (قلمـاً مستقبليـاً) .. فمجـدوه في (الاهــداء) ، منهم شيـوخ في الادب ، ومنهم من عمره الادبي ، ومنهم من عرفه (بالسمعة) و (المشهورية) الثقافية .. وهو بمصر (١٩٤٧) وصل اليه نسخة من الديوان الاول الذي اصـدره بدر شـاكر السيـاب (سنـة ١٩٤٧) باسم : ازهـار ذابلة ، وعليه عبـارة اهداء وتوقيع .. ولا بد من ان يكون الشاعر الشـاب السياب يعنى بايصال نتاجه الى من يـراه يهتم بالادب والشعـر ، وإلاّ فان المعرفة المحدودة بينهما لا تدعو الى ذلك الاهتمام .. وفي مصر تعرف على القاص المعروف محمود تيمور (ومن اخلاق تيمور انه اذا تعرف على اديب يأخذ عنوانه واذا أخذ عنوانه يدعوه الى عشاء ، ومن ثم يرسل اليه الجديد من كتبه ، وها هو الطاهر يتلقى من تيمـور بعد فتـرة قصيـرة عـلى تعـرفـه ، روايتـه الاجتماعية (سلوى في مهب الريح ..) وعليها كتب تيمور :

« عـزيزي الاستـاذ علي جـواد الطاهر مـع أصـدق مـودتي وتقديري » .. فيرتاح الطاهر لهذه (الهدية) لعوامل كثيرة في مقدمتها : كرم الرجل ولطفه وتواضعه .. ثم يتلقى منه (ابو الهول يطير) وهو كتاب طريف ممتع يدلك عنوانه على محتواه السياحي ، ويعلق الطاهر على هذا (الاهداء) بعد مرور ٤٠ سنة عليه : (وانا محتفظ للرجل الكريم بـالكتابـين الى جوار تقدير لخلق منقطع النظير وتربية صالحة يصعب ان تتهيأ لغير محمود بك تيمور بن اسماعيل باشا تيمور) .. وتيمور يهدي ويرتاح الى الاهداء ويريح .. وغيره لا يهدي ، ومع هذا فالطاهر يعطي الحق لهؤلاء الذين تعرف عليهم ولم يهدوا اليه كتبهم كالعقاد والزيات والحكيم وسلامـة موسى ، لانـه ليس له حق عليهم ، فـالذي يهدي كـريم والذي لا يهدي ليس بخيـلاً .. وهكذا يعذر الطاهر الادباء الكبار الذين لقيهم في القاهـرة في أربعينات هذا القرن ..

* * *

وعنـدما وصـل باريس ١٩٤٨ بعُـد كثيرا عن الكتـاب العربي .. ويكاد ما وصل اليه لا يزيد على بضعة كتب اهداء ،

منها : (صراع) قصص عراقية لشاكر خصباك ، طبعة دار الفكر في القاهرة ١٩٤٨ ، وعليه هذه العبارة : (الى الصديق الاعز الاستاذ علي جواد الطاهر .. الذي لن انسى ـ ما بقيت ـ فضله عليّ في مجهودي الادبي) ـ من المؤلف شاكر خصباك « توقيع » القاهرة : ٢٥ / ١١ / ١٩٤٨ .. واستحثه الكتاب على كتابة كلمة عن (المؤلَّف) اكثر مما هي عن (المؤلِّف) بعث بها الى مجلة (الغري) النجفية فنشرت ، وكتاب آخر من خصباك باسم (عهد جديد) .. وذات يوم وهو في باريس يصل صديقه نجل الدكتور البصير ومعه كتاب (محمد مهدي البصير ـ في الأدب العباسي) وعليه هذه العبارة : (الى ولدي العزيز .. مع أطيب تمنياتي) « توقيع ـ البصير » ١٨ / ٤ / ١٩٤٩ وكتاب (محمد مهدي البصير ـ الموشح في الاندلس وفي المشرق) وعليه هذه العبارة : (الى ولدي بالروح .. مع أرق تحياتي ـ البصير ١٨ / ٤ / ١٩٤٩) .. ثم كتاب (محمد مهدي البصير ـ عصر القرآن) ثم ورد اليه من الكريم « العتيق » محمود تيمور كتاب (شباب وغانيات وأقاصيص اخرى) بتوقيع تيمور سنة ١٩٥١ .. وهناك في اركان مكتبته كتب إهداء اخرى من مؤلفين مختلفين ، ولو

جمعت نصوص هذه « الاهداءات » في دفتر خاص ، وبوّبت بحسب سنيها ، ودرست وتعمق فيها البحث ، فانها ستعطينا (وثيقة) لموضوع طريف عن طبيعة (العلاقات الثنائية) بين ادباء العصر الواحد ، ولا اعتقد ان مؤلفاً في القديم انتبه الى ذلك ، ويروي الطاهر : (.. انه من عجائب بعض الاساتذة انك تهدي اليه الكتاب والكتاب فاذا ألِّف لم يهد اليك وبخل عليك وعلى غيرك ، فاذا توقفت عن اهـداء جديـد طالبك وبـالغ في الطلب ، وقد تخجل فتستجيب وقد « تصمد » .. والاستهداء - أياً كان نوعه - غير لائق بصاحبه ، واذا كان ولا بد فليتهيأ لرد الجميل في أقرب وقت) .. وسرني الطاهر ، انه يفضل في الكتاب الذي سيتناوله بالنقد او الدراسة ان يصل اليه بسعي شخصي في الشراء لتأتي الكتابة أكثر موضوعية .. ثم انـه يفضل (الهدية) من أديب لا يعرفه على (هدية) من أديب يعرفه .. ولذات السبب .. وينبغي ان نعرف ان تبادل اهداء الكتب بين الادباء والفقهاء هو من تقاليد العرب المتوارثة !

الـروائـع

ويـرحل الطاهـر الى الكتاب الفـرنسي في رحلة ممتعـة



١ - فنان كاركتيري يرسمه (تربوياً) ..!



٢ - وفنان آخر يرسمه (شاعراً) ..!

طريفة ، ويقضي خمس سنوات متجولاً في باريس ، من (بولفار راسپاي) مسكنه الأول الى الحي اللاتيني ، يبحث عن الادب الفرنسي ، في روائعه وفي عمالقته ، وطاف في اعماق دور النشر وفي صناديق الكتب المقروءة ، فالتقط كتب السيرة الذاتية لجان جاك روسو والفونس دوده ومونتيني وكالفه وادبيات جورج صاند ولامارتين وهيكو وميسه والفريد دفيني وكلهم رومانتيكيون ، وذهب الى دار هاشيت فاشترى قصصا وروايات بالزاك وستندال وديهامل وموروا وموباسان ، ويطول به المقام في دور الكتب ، فاذا به يجمع صناديق يودعها في سرداب الفندق ، واذا به .. هو وزميله في الدراسة صلاح خالص يجمعان زبدة التاريخ في أروع ادب عرفته القارة الاوربية ، ويرسلان صناديقهما عبر باخرة البحر ، لتستقر في بيتيهما المتواضعين ، وها أنذا أمد نظري الى كتب الطاهر الفرنسية ، فأرى تاريخ اواخر الاربعينات يحوم عليها ، وذكريات الطاهر الجليلة تحوم عليها ، وهو الآن يتذكر القصص الطريفة التي كانت وراء اقتنائه هذه الكتب .. الكتاب قبل الخبز ، الذوبان في الكتب ، ومعاناة المشي في بيوت الفلاسفة الفرنسيين ومفكري الثورة

الفرنسية ، والصعود الى سواحل المسرح وكتب المسرح ، أية معاناة لهذا الشاب الحلي وهو يرى كتباً بعدد أيام تاريخ العالم وفلوسه لا تسد رمقه للعلم ، انه لعالم تكتنز فيه الحضارات بكتب ، انه لعالم تحفه المتاحف والمسارح ودار الأوبرا ، ويريد هذا الشاب ان يدخل اليه من أكبر بـاب ، يريـد ان ينفذ الى الفهارس بأسرع مما هو مقرر اليـه من زمن ، قال : (خـذ الأحسن والابهى والأروع) فحقق طموحه ، حقق أمـلاً كان يراوده في بغداد قبل البعثة ، بالتقاط انفاس العباقرة ، التقط وسد بعض جوع للمعرفة ، بالفرنسية أو ما ترجم اليها .

المكتبـة المثاليـة

ويبقى جوعه غريبا لهذا الكتاب اللغز ، ويعني ذلك ، ان الطاهر لم تتوفر له (مكتبة مثالية) .. قال وماذا تقصد ؟.. قلت : ان عقلك أكبر من مكتبتك .. وانفعل وأجاد بانفعاله : (.. المكتبـة المثـاليـة لا يـوفيهـا البيت) ، لأن المقصـود بـ (المثالية) ان تلبي حاجة الباحث ولهذا ، عرف الادباء .. ان مكتبـة الطاهر الحقيقيـة في مجموع المكتبـات العامـة في بغـداد : المركـزية ، الاداب ، الوطنيـة ، المتحف ، المجمع

العلمي ، وربما تمتد الى المستنصرية ، وتبعد الى الموصل والبصرة .. (وهنا اتمنى - مرة اخرى ومرارا - ان يكون لبغداد مكتبة بمعنى الكلمة) .. (.. وهذا هو رأي عبدالحميد العلوجي ايضا في ان تكون لبغداد مكتبة بمستوى حضارة بغداد) .. ورغم ان مكتبته تجمع قدراً صالحاً لباحث كبير ، فان : (مكتبتي ليست بطموحي ، ولكنها الممكن ومن أين اقترب من الطموح وميداني على هذه السعة والتنوع ، والسوق انت تراه على ما هو عليه) .. والباحث دائماً في نهم !

وهل يفضل الطاهر .. ان يكتب بحوثه في مكتبته الخاصة ام خارجها ؟:

- (.. كنت اكتب في المكتبة نفسها .. ثم عدلت عن ذلك ، وفضلت الكتابة خارجها ومن الاسباب في ذلك اني رأيت طاولة الكتابة تأخذ حيزاً من المكتبة وأقصد بالحيز تكدس الكتب عليها ، فالباحث يسحب الكتب من الرفوف ولا يعيدها ، وتتنوع البحوث ويتنوع التكدس على ما يشبه الفوضى ، هذا الى ما قد تسببه الملازمة لجو بعينه من ملل .. انك في العمل خارج المكتبة في حركة من الذهاب الى المكتبة والاياب منها ، وفي الحركة ما يخفف الامراض التي يسببها الركود الطويل ، وما

يؤدي الى تنويع المنظر ..) .. ومرات شاهدته يزهد في مقامات الكتابة !

* * *

وتحدثنا عن الكتاب الجيد ، وعن قيمه وعوامل تسويقه .. وظهر ان الطاهر لم يعقد صلات مع اصحاب المكتبات (الخاصة) الا ما ندر ، ولا يهمه ان يزور هذه المكتبات ويطلع على قديمها وجديدها ، وكتبها الخطية والحجرية والمصورات ، فيؤثر ان يكون عالماً خاصاً به ولذاته ، لكنه ظل يسمع عن مكتبات حسين محفوظ وكوركيس عواد والعلوجي وصادق كمونة وقاسم الرجب ، ولم يكتب له اكثر من رؤية عابرة لمكتبة استاذه طه الراوي وكامل الجادرجي اللتين لم تكونا في سعة خارقة ، ويحسب ان مكتبة الدكتور البصير لم تكن كبيرة وكذلك مكتبة الدكتور مصطفى جواد : (وهذا دليل على ان الباحث ليس بمكتبة بيته ، وإلاّ فيصعب ان تجد في العراق « على الأقل » من قرأ وحقق ودقق وبحث بالقدر الذي كان عليه استاذنا مصطفى جواد) .. اما اساتذة الجامعة فرأى منهم من لا يملك مكتبة : (ورأيت من لا يقرأ ، ورأيت ـ ولا تعجب ـ من يسخر منك عندما يراك تبحث ، وتواصل

البحث وتسأل عن الكتاب وتلاحقه !) .. ثم رأى ان هناك من يجمع الكتب لغاية تقف عند الجمع ، ولم يعدد الاسماء ، بل قال ان هؤلاء هم (جمّاعة الكتب) للكتب ذاتها .. ولهم غرائب وأساليب لم يجد لها مسوغات ، وجاء بمثل على ذلك : (ان يستعير منك الكتاب فلا يعيده .. وأن يزورك في مكتبتك حتى اذا خرجت قليلا -ولو لجلب الشاي له - خف فاستل كتاباً شخصه ودسه في حقيبته ، ثم ودعك كأن لم يكن شيء ..) .. وأضيف الى رواية الطاهر روايات في هؤلاء (الجمّاعة) للكتاب ذاته ، ان من جماعي الكتب من يسرق الكتب مستغلا ثقة صاحب المكتبة بوظيفته العلمية ، والتسويف في دفع أثمان الكتب او عدم الدفع نهائياً .. وفي دفاتر اصحاب المكتبات ألف قصة غريبة تمنيت لو جمعتها واصدرتها بكتاب عنوانه يدل عليه !.. ويقول الطاهر : (واحسب اني بلغت في تشجيع الطلبة على الكتاب اقصاه .. ولا احسب ان يد الطلبة امتدت الى هذه الكتب ، وهي تنتشر على المنصة في الصف وعلى المنضدة في غرفة الاساتذة ..!

الســــوق

وكنت انـاقشــه عمـا يهم القـارىء العـراقي من كتب يشتريها من السوق ، قال : (وطبيعي ان تقل كتب العلوم) .. وانا اخالفه في هذا ، اذ سجلت هذه الكتب في هذا العام رقماً خيـالياً في « مبيعـاتها » .. وتشهـد على ذلك معـارض الدار الوطنية للتوزيع وقوائم المكتبات الاهلية ، وقـال : (والعراق كان وما زال يقرأ الشعر ، ويستشهد بدواوين بعض شعـراء العراق الكبار ..) ، ويعني الطاهر ان الشعر يتقدم الفنون او الكتب الاخـرى ، ورأيه هـذا خاضـع للنقاش ، فعـلى حدود جربتي فان كتب الشعر تأتي في (المرتبة الاخيرة) اذا اخذنا نـظر الاعتبار حجم الوارد والصـادر الكـلي في الاصـدارات لعراقية ، او المعدلات المئويـة في نسب التوزيـع ، فعدا عن لجواهري والسياب « من الشعراء الرواد » وسعدي يوسف جميد سعيد « من شعراء بعد مرحلة السياب » ، فان معدل وزيع وبيع كتب الشعر لا يبلغ الا نسبة ١ ٪ من كتب الفنون لاخرى ، اما فيما يخص كتب الشعر (التراثي) ولا سيما رواده (المتنبي ..) فان المعدل في المبيعات يتصاعـد طردياً كلما انتعشت الحياة الثقافية في البلد ، ويأسف الطاهر للعرض



المتزايد لكتب رخيصة في الفكر رخيصة في الجنس !!

* * *

والقصة العراقية لم يكن لها سوق ، في رأي الطاهر ، بدليل العبرة التي اخذها من (نشيد الارض) لعبدالملك نوري التي « كسدت » .. وبعدها (الوجه الاخر) .. وهما من خير ما اخرج المؤلف القاص العراقي وخير ما انتج حتى الان .. ويذهب الطاهر الى ان ذو النون ايوب باع قصصه الاولى بسبب من وضعه السياسي .. وإلاّ فلم يتهيأ لكتبه المتأخرة حظ يذكر من نجاح خاص .. وكتب المقالة محدودة في مبيعاتها إلاّ ان : (كتابيّ [الخاصين في المقالة] نفدا بأن وجدا القارىء الذي يطلبهما ، زيادة على عامل نشر الثاني بوساطة وزارة الثقافة والاعلام) ، والمسرحيات هي كذلك قليلة محدودة ، فتابعها الطاهر فرآها بطيئة في مبيعاتها .. ولكنها تنفد ، (وكانت مسرحيات يوسف العاني سريعة النفاد ، ولقيت مسرحيات نورالدين فارس نجاحاً كذلك ..) ، وطبيعي ان يقوم الطاهر بين وقت وآخر في زيارة الى أكشاك ومكتبات بغداد ، وطبيعي وهو الناقد في الكتب والصحف ، والمحاضر والمؤلف ، ان يراقب

قراء الكتب في العراق اليوم .. فوجد ان أكثر ما يقرأ القراء : (.. كتب السياسة والتاريخ الحديث ولا سيما تاريخ العراق ، وتاريخ الشخصيات السياسية ..) .. وكان قبل ذلك يقول : (.. واذا عددنا كتب الدكتور علي الوردي كتب اجتماع ، كانت تلك الكتب حالة خاصة في العراق ، فقد باع (٤٠٠٠) يوم كان « الشاطر الشاطر » يبيع (٤٠٠) ، ثم شرع يطبع (١٢٠٠٠) من كل جزء من كتابه المتعدد الاجزاء ، وهو ضامن البيع والمكتبة التي تبيعه تحرص على شرائه كلّاً ..) .. ومع هذا فالمسألة تتوقف على المؤلف او المترجم او الموضوع احيانا .. واذكر في هذا المجال ، اني سألت بعض خبراء (بيع الكتب) في هذا الشهر عما يباع في مكتباتهم فأجابوا وبحسب الموضوعات : القراء يقرؤون .. التاريخ والتراث ، المذكرات السياسية ، السياسة ، كتب المغامرات (....) والآداب ومصنفاتها .. واذكر اني في عام ١٩٧٠ ذهبت الى القاهرة وبيروت وسألت تجار الكتب عن « القارىء » المهم في حساباتهم فتواتر رأيهم بالقارىء العراقي ، وعدّوه « القارىء الاول » في الوطن

العربي .. اما لماذا ، فهذا ما لم تهتم به وبـدراسته (الدار الوطنية للتوزيع) وهمُّ كادرها : ان يوزع الكتب وكفى ..!!

النفـس والنفـوس

قال انت تسأل عن الكتاب ولم تسأل عن الكاتب ورأيت في كلامه غموضا ، واعاد .. انا افضـل ان ينصب حديثنـا عن الكتّاب ونترك الكتاب الى المكتبيين ، وادركت قصده ، وفي هذا المحور جرى حديثنا في النفس ، نفسه هو ، ونفـوس الكتّاب الاخرين ، في منتهى الدقة والصراحة ، وما عرفت الطاهر الا في (دقـة وصراحـة) في تاريخـه وكتبـه واخـلاقـه .. وهـو : (المثال) !

* * *

وأهم موضوع يشغل الكتّاب (المبدعين والتقليـديين) هو « الحلم » حينما يصير مجدا ، او حينما يصير مرضاً اذا غلب « الهـوس » على العقـل .. قال الطاهـر لنبدأ من هـذه « القنـاة » حتى ادخلك الى « نـفسي » اذ ذاك ستـكتـشف معـادنها ، ومعـادنها كثيـرة ، والنفس فيَّ كثيـرة .. « نفسي

الحاضرة » و « نفسي الغائبة » وهذه النفس التي تظهر بعد الموت بأعمالها وتجلياتها ، قال : (الكاتب ، أي كـاتب ، هو حلم في واقع او واقع في حلم .. ولا تجد كاتباً لا يحلم بالمجد لنفسه ولوطنه وللانسانية جمعاء .. ولهذا الحلم قوته ، وهو قد يكون ابن الحدس .. او الخيال ولكنه يملك من القوة ما يملكه اي واقـع لديه .. والحلم واقـع لدى الكاتب المبـدع ..) .. ومعروف ان الموهبة تهب القوة في الفكر والعاطفـة والخيال ، وتخرج الكاتب عن ان يكون « واقعاً صرفاً » اي تقريراً وتعليماً مباشراً ، فكيف يراها الطاهر في احلام الكتاب الكبار : (.. أقول ، ان احلام الكتاب الكبار بعيدة المدى .. وتتضاءل كلما تضاءلت الموهبـة .. حتى تنزوي وتتـوارى لدى الذي يدّعي الكتابة ادعاء .. والاحلام اقتساراً ، ولو ملكها لما جاء عمله جافاً ، أشبه بتقارير « المفتشين » وجاء ما يزجه من استعارات ترقيعاً يفسد التقرير كما يفسد الحلم !) .. وكما هو الواقع فان أكثر كتابنا يحلمون ، وبعض الكتاب العرب يتحول فيهم الحلم الى مرض ، وهذه عاهة .. ويقول الطاهر : (وأزيدك ... ويشجعهم على ذلك نجاح حلمهم ومكاسب مرضهم .. وأكثرهم يحصل على ما هو أكثر وأكثر مما هو مقدر لأمثاله لدى استواء

الموازين ... وكلما ازداد الكسب الحرام ازداد المرء أحلاماً ، وكلما ازداد احلاماً ازداد امراضاً) .. والرجعي والتقدمي : (.. نعم .. هما يحلمان ..) كيف ...: (الرجعي يحلم من أجل ذاتــه وحــده .. والمفــروض بــالتقــدمي ان يحلم للآخــرين بالسعادة) .. وأريدك ايها الطاهر ان توضح أكثر ...: (شيء مفهوم .. فكثير من كتابنا العرب رجعيون ، وكثير من الرجعيين حتى بين الذين يتظاهرون بالتقدمية ، عندما يرون في التقدمية مكسباً ذاتياً) .. وهل كلمة الرجعية من قاموسنا التراثي ...: (لا .. هي كلمة حديثة في اللغة العربية وهي ترجمة عن اللغات الاوربية) ، وكيف تطبقها في الادب : (.. هي تشبث بالقديم لقدمه لانها تجد في القديم قوتها ووجودها ومكسبها ، وهــذا التشبث قد يكون جاهلاً او محدود الافق .. وأخطر من ذلك .. الذي يحول الرجعية مبدءاً يستند اليــه ويجمع معــه امثاله ، فيكون وإياهم سداً يعرقل المسيرة نحو المستقبل الافضــل ، ويسد الباب بوجه الجديد الصالح ..) .. وهل رأي الطاهــر جــازم في ذلك : (.. جازم .. ويحــدد ذلك واقــع الاشيــاء ، ومسيرة التاريخ ، وليس الأمر سراً .. وقلما خلت رجعيــة في العصر الحديث من يد خــارجية ، وضــرب من عمالة ..) ..

وعلقت على قوله ، بأن عظمة كاتب في نفسه تتناسب طرداً مع ما لديه من موهبة ، والموهبة العالية ، المبدعة تنحاز تاريخياً الى الاكثرية .. والرجعي ضد الاكثرية .. وعلق : (.. اذا كانت الموهبة سراً فان الظرف المؤثر سر كذلك) وكان حقاً يقول ..!

و ... جيـــله

وجيله الذي ينتقيه وينتخب منهم بعضا يرى فيه شيئاً مذكوراً ، هـو بلا شـك جيل (مـزاجه) الادبي ، فـانتخب السياب لكونه الشاعر الاول في هؤلاء ، ونازك الملائكـة التي وقف بها الطاهر عند (شظايا ورماد) و (قـرارة الموجـة) وتأخرت بعدهما ! وبلنـد الحيدري الذي (اعلن الصمت في وقت منـاسب ، ويضر نفسه اذا عـاد عن اعـلانـه) .. ومن القصاصين انتقى : عبـدالملك نوري وفـؤاد التكرلي ومهـدي عيسى الصقر ، ولكن التكرلي تميز بينهم وحفظ لنفسه ولهم نوعا من الاستمرار .. هؤلاء جيله في المواليد الذين جاؤوا الدنيا في العشرينات ، اما الجيل الذي ولد قبلهم فميز فيهم الطاهر .. الشبيبي والجـواهري ومحمـود احمد السيـد والخليلي وذو النـون ايوب وعبدالحق فاضل وفهمي المدرس وابراهيم صالح شكر

وحقي الشبلي ، وميز باتقان .. لكنه قال : (.. ومن العجيب اني انظر في الامر قليلا وأصل في حدود هذا النظر القليل الى ان الذين ولدوا قبلنا .. خير منا .. وان الذين ولدوا بعدنا كذلك) .. وهو اعتراف جميل بتاريخ وشكر جميل لجيل .. ونظر ثاقب في جدول الجذور والاجيال ، ولم ينس البصير .

و .. الزمن

والادباء يعذبهم الزمن ، والزمن وقت ولكنه مقرون دائما بمكان ، وليس لدينا زمن خارج مكان ، ويقول الطاهر : (انا لا يعذبني الزمن) .. لكن ...: (وجدت المظلومين يتخذونه رمزا ينفسون به عن تعليل عامل ظلمهم او يعلنون ظلمهم تحت غطائه) .. وتحدثت عنه الفلسفات القديمة وفلسفه الادباء العالميون ...: (وجاء في التعبيرات الحديثة : التزامن .. ويقع حادثان لا علاقة ـ منظورة على الاقل ـ بينهما في زمن واحد ؟ فلماذا ؟ وكيف ؟..) .. والزمن يجري على قاعدة ، فكيف يجري في الادباء : (.. اقول لك : ان الادباء لا يرونه على هذه القاعدة ، فربما كان لديهم ابطأ مما هو ، وربما كان اسرع .. وهو هو ، وانما في الحالة النفسية التي هم عليها .. وربما عاش المبدع في صراع مع الزمن) .. ولماذا لم نقل مغالبة !



١٩٦٣

و .. المـــوت

اذا مات انتهى ، وكان يرتاح وهو حي ان يذكر بالخير كي يفعل الخير ، وهو يرتاح الان وهو حي ان يذكر بعد موته بالخير ليكون لفعل الخير معنى عند الاحياء ، لكنه قال :

يـمـوت راعـي الضـان في جـهـلـه
ميـتـــة جـاليـنـوس فـــي طبـــه

وكان يقول ـ بالاساس ـ ابو الطيب المتنبي ، وهكذا كان المبدعون بعد الموت !

وهل كان يسير الطاهر على حكمة : (نعم وكانت حكمتي في كل ما فعلت وكتبت) :

اذا انـت لم تـشـرب مـرارا عـلى القـذى
ظمئـت ، وأيُّ النـاس تـصـفـو مـشـاربـه

ويعني الطاهر .. ان لكل شيء ثمناً !

وقلت له : تصور .. هل يكتب عنك بعد الموت ؟

قال : (ان الذي سيكتب بعد الممات أكثر من الذي كتب وقيل في الحياة وستجسم تلك السمات وتؤيد بالامثلة ، ولا أشك في ان من الناس من يقدر تلك السمات خيراً مني ويتذكر لها ابعاداً أنسيتها ، وشواهد مرت طواعية .. اقول هذا وانا اتلقى

في الحياة من علامات الحب والوفاء الكثير الكثير من تـلاميذ واصدقاء ومن اناس لا اعرفهم ابداً .. ولم يصدر شيء من ذلك اللطف عن اولئك الكرام طمعاً وبماذا يطمعون او خـوفاً ومم يخافون ؟) .. وهل يمتد اسمه الى مدى .. والى أين : (يمتد بسبب المقالة الى امد أبعد منه في امتداده بسبب البحث والنقد والموسوعيـة الادبية .. ولكن لا .. لا يهمـل اسمي في تاريـخ الدراسة او النقد او المنهج عند معالجة اي من هذه الموضوعات ضمن النطاق العراقي .. وحتى العربي) .. وقال : أتريد ثقة بالنفس أكثر من هذه .. قلت : نعم .. قال : (ان ذكري يبقى طويلاً والى الابد لدى عقـد كلام المتكلمـين على بـاب من تلك الابواب ، ولا شك في انه يتضاءل على الزمن ، ولكني اشك في انه يندثر) وأراه لم يندثر !

* وهل نجح في الكتابة ؟

- نجحت في كل ما كتبت فيه ..

* ماذا قال .. وماذا لم يقل ..؟

- الذي قلته قلته وهو قائم في الكتب والابحاث المنشورة او التي ستنشر ، ولم أقل إلّا ما اعتقده صحيحاً لوجه الحقيقة وما اراني متراجعاً عن شيء او نادماً على رأي .. أما ما لم أقله ،

فاني لم أقله لأن الوقت لم يسمح ببحث يضاف او كتاب يزاد والمسألة كلها مسألة رأي يقوم على المراجعة او التأمل !

* وما الذي اخفيته عني في هذه المجادلة ..؟

- لم أخفِ شيئاً .. وقلت لك ما لم أقله لأحدٍ .. وربما لم أقله لنفسي !

* اذن ادركت حريتك معي ، فهل لك تعريف آخر للحرية ..؟

- لا .. الحرية واحدة .. الحريـة تحس ولا تعرَّف ، تحس عندما توجد ، ويحس بغيابها عندما تضيق ، فمـا هي ؟.. في عالم الكتابـة هي ، ان يكتب المرء مـا يراه صحيحـا جديـرا بالكتابة دون رقيب ودون حذر ودون خوف من عقوبة تقع عليه لغـير سببها ، ومن أذى يصيبـه ممن لا يفهمونـه او ممن لا يريدون ان تصدر الحقيقة عنه .. فاذا توفر ذلك جاء الكلام قوياً حياً متكاملاً لم يفقد في طريقه جزءاً او اجزاء منه لأن النفس تنطلق فيه مكتملة ، والامكانات تتجمع كلًا ..!

* * *

وقاطعته ، لأن الطاهر سيل لا يتوقف ان جاءت الحرية على لسانه فاعتذرت اليه واعتذر إليَّ ، وما كان اعتذارنا الا مودة

في هذه الحرية التي بحثنا فيها ، وناقشنا فيها بملء افكارنا ، ومودتي اليه ومودته إليّ ، وودعته في باب بيتـه قائـلاً : اراك غصناً ستنمو عالياً في شجرة الارض ، وعالياً بعد الموت ، وعالياً في الخلود . وهطلت أفكاره كمطر ، وغاب في الخلود ! ثم ابتسم كأنه تذكر الأسطورة ..

طبيعة المرأة

وآخر فقرة قالها عن المرأة :

- وتفترق بحكم اختلاف تكوينها الطبيعي عن الرجل ، ولكن احكام الرجال قد تنزل بها الى أكثر ، او غير ما هي عليه ، وقد تصعد بها الى أعلى ، او غير ما هي عليه ، ولا بد من أخذ الظرف الاجتماعي بنظر الاعتبار لدى الحكم او تخفيفه ..

رآها الشاعر مرة « شيطاناً »

ورآها مرة « ريحانا »

ويرجع التطرف الى رؤية عاطفية .. وهي قد تكون حيناً هذا وحيناً هذا ، كما يكون الرجال .. ولكنها في الاكثر بين هذا وهذا ..!

ليست نظرتنا الحالية في العراق وطيدة لانها انتقالية ونحتاج الى نصف قرن او أكثر لنراها قريباً مما يراها عليه الغربي .. وتبقى فروق على اي حال ، في حدود مردها الطبيعي في التكوين الفسلجي .. ولا بد من ان تبقى هذه الفروق !

ملحـــق

مقالات : .. وهي أمثلة من مقالاته التي نشرها بين شباط وتشرين الثاني ١٩٥٨

النقد سهل

اي نعم .. سهل جدا .. يقع بيدك كتاب فتقول : مجلد ضخم ، على ورق صقيل ، وبطبع أنيق فيه افكار كثيرة تدل على عمق المؤلف وبعد غوره ، وكثرة تجربته واننا نتمنى له الرواج وندعو القارىء العربي للانتفاع به ، ان مثل هذا الكتاب لو كان في الغرب لتعددت طبعاته وتكاثر قراؤه ولما توانى ناقد عن مدح واطراء سعادة الاستاذ الفاضل مؤلفه .. الخ ..

اي نعم .. سهل جدا .. تقع بيدك قصيدة فتقول : « ٩٥ » بيتا ، الا ما اطول نفس الشاعر الكبير ناظمها . والقافية لامية ، والبحر طويل والغرض اجتماعي ، هذا الغرض الذي ابتكره العصر الحديث فيعالج فيه الشعراء قضايا المرأة والاقتصاد والتقاليد .. ان شاعرنا مجدد مبتكر يحتل مكانته السامية في تاريخ ادبنا الحديث وسيبقى خالدا على الدهر .. الخ .

.. سهل .. وستصدر لصديقك قصة .. من واجبك ان تخدمه ، والا لِمَ وجد النقد . قصة هي من روائع الادب ، قصة لخصت كل مشكلات النفس الانسانية وعنيت بالناحية الوجدانية عناية خاصة فهي تعيد لنا عصر الرومانتيكيين ولو

عاد لامرتين لادعاها وكفى بذلك فخرا لادبنا ! اللغة كأحسن ما يكون ! والهدف كأنبل ما يكون ! والعقدة كأرقى ما يكون !

.. وترمي القلم وتعيد قراءة ما سطرت فاذا بك معجب كل الاعجاب ولله درك وستنشرها المجلات في صدورها .. وقد أديت واجب الصداقة ! وأي خدمة هذه التي قدمتها لاخيك الغالي وانت لم تقرأ القصة ولا تدري ان له مقدرة قصصية .. ولا تعتقد .

.. سهل .. لقد ألّف فلان قصة رائعة دون شك ولكنها مرت وكأن لم تكن ، وفلان هذا قصاص موهوب أصيل ولكنه بليد . اما انا فأعرف منه بالكتف وطرائق أكلها . ولا ولن أدع قصتي تمر من غير ضجة .. انا أقل منه قدرا وأقل مهارة .. ولكني سأفوقه .. سأدعو الناقد .. والصحفي .. والناشر .. سأطلب الى النابهين من زملائي في الدراسة ان يتكلموا على قصتي وليس من المجاملة ان يبينوا نقاط الضعف . لقد عاد صديقي أخيرا من فرنسه وليس من المعقول لرجل مهذب متحضر مثله ان يتوانى عن مدحي ولا شك في ان فرنسة قد زودته بمصطلحات وتعابير تخلب لب القارىء العربي وتدعه

يقرأ قصتي ويعجب بها ويمدحها ويتطوع بالاعـلان عنها .. وهكذا .

.. سهل .. فما عليك الا ان تدّعيـه حتى ترى النـاس ينعتونك بالناقد ، ويتحدثون عنك بالناقد .. ويكتبون اليك بالناقد الكبير .. تدّعيه فتنهش هذا .. وتطري ذاك .. وأولى نصائحي اليك ان تتكلم بلهجة الواثق من نفسه ، ان توغل بالادعاء حتى تنسى حقيقتك . وعليك ، عليك بالكلام الغامض الذي تطرب له عقول السوقة ـ وما أكثر السوقة بين المثقفين . أحش كلامك بـالأعلام .. من الغـرب .. من انكلتره وفـرنسة والمـانيـة .. وآلسكا .. وجزائر الخالدات والارض الخضراء .. وكندا .. لا تنس كندا فان فيها نقادا كبارا .. كبارا جـدا .. اما كيف ؟ ومتى ؟ ومن ؟ فليس ذلك بالأمر المهم . ان من شروط الناقد المقدرة على الاختلاق !

.. سهل .. تكلم على الملحمة دون ان تقرأها ، لان الناس عندنا مولعون بالحديث عن الملحمة ، ولع الشاعر بنقصه ، ولع من اصبـح النقص فيه عقـدة .. آه الملحمة ! ومـا ادراك ما الملحمة ثم تهدر كالسيل . قل كل ما لذّ لك وطاب لان الناس كلهم مثلك يتحدثون عن العنقاء دون ان يروها ، كلهم مثلك يتحدثون

عن الملحمة دون ان يتكلف واحد منهم قراءتها وهي في متناول اليد .

تحدث عن الملحمة ... وعن الملحمة الخالدة التي كتبها صديقك عبدالنور .. تلك الملحمة الخالدة التي اعادت الى الادب العربي اعتباره وسدت ثغره ، وردت عاديا ، وارغمت عدوا .. ان بامكان ادبنا ـ منذ اليوم ـ ان يقف مع ادب اليونانيين والرومانيين والفرنسيين والانكليز .. على صعيد واحد . ولك ان تذكر من الامم ماتشاء فلن تجد من يسألك ومن يجهد نفسه للبحث والتحقيق ، وكلما أكثرت من هذه الامم ومما هو أغرب منها كنت كبيرا واكبر في عيون قومك . ولله درّك ودرّهم ! ان ملحمة الاستاذ عبدالنور فلتة .. واصبح من السهل على المرء ان يضعها من غير عناء الى جوار الالياذة والاوديسة والانيادة والشهنامة والمهابهارتة .. ورولان وحج شارلمان .. والكوميديا الالهية ، واورلاندو الغاصب والفردوس المفقود و .. و .. وانشودة الظلام وسقوط ملاك والاترياد .. الفلانسيك والبارمارين .. الخ ..

وكلما اكثرت من هذه الاسماء ومما هو اغرب منها ـ رفعت صاحبك ورفعت نفسك . ولله ابوك وابوه ! ولم تقل زورا ولم تدع مينا اما استطاع صديقك عبدالنور المحترم ان يتحدث عن غرامه الموهوم الواهي بأكثر من خمسة وسبعين وثلثمائة بيت .

تحدث عن الملحمة .. وعن السريالية .. والوجودية والكليمانتيكية والفولماطيتية .. وليس المهم ان تكون قد قرأت شيئاً

عن هذه المذاهب ، وليس المهم ان تكون قد وجدت فعلًا .. انما المهم ان تتحدث واؤكد لك ان الناس يصدقونك ويحترمونك وسيقولون فلان .. لله دره ، هو الوحيد الذي افاد من وجوده في الغرب . وسيسألونك عن الدادية وهنا يفتح امامك طريق ممهد اجر فيه كما تشاء ويشاء لك الناس . اياك والتردد . ومادام الناس يرغبون في هذا المذهب ويعجبون به فما عليك الا ان تقول وتقول واياك والتوقف لانهم يحبون الانطلاق ويسحرهم الكلام المتدفق .. وهذه كل مواهب النقاد والموجهين في ديارنا .

اي نعم .. النقد سهل .. اذا كان هذا وأمثاله نقدا .. وعاش من قال «النقد سهل والفن صعب » أكان بوالو ام دتوش ، وانا لله وانا اليه راجعون .

المعلم الجديد ـ شباط ١٩٥٨

الف شـرط .. وشـرط

اي نعم ، ألف شرط يجب ان يتوافـر في الانسان لكي يكون ناقدا ، وشرط واحد لكي يكون شاعرا ، فلماذا ؟ أما في ذلك حيف يلحق كائنا من الناس ؟!

ألف شرط . وانت تعلم منها : العلم العميق الواسع ، ولا بد من دراسة للغة والتأريخ والدين والاخلاق والجغرافية ، والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع ، والفيزياء والكيميـاء والفسلجـة ! ولقد بـالغنا واثقلنـا ، وكان القـدامى أرحم اذ اشاروا الى الاخذ من كل علم بطرف . على ان هذا « الاخذ » وذلك « العلم » مما يمكن ان يتهيأ لاوساط الناس ، ولاي منهم ناقدا كان أم مثقفا .

وشـرط ثـان ، الانصـراف الخـاص الى « علم النقـد الادبي » ، علم ! يدرس تأريخه واعلامه واتجاهاته وغاياتـه وأسبابه وصلاته بالفن وشعب المعرفة الاخرى وخصائص كل أمة فيه .. وفلسفته وفلسفة الادب .. وشروط الناقد !.. وليس هذا بالسهل الميسور وان كان الالمام بخطوطه العامة ممكنا لدى أسوياء الناس وأوساطهم ، فهو أخذ بـطرف من الاطراف ، يستطيعه الانسان ، ناقدا كان ام مثقفا .

وشـرط ثالث . اللغـات الاجنبية فـالعـربيـة وحـدهـا لا تكفي ، ولغة امة واحدة لا تكفي ولا محيص من الانكليزية الفـرنسية والالمـانية .. والهنـدية واليـابـانيـة والتبتيـة .. والقبطية .. وهذا مستحيل ولكن الالمام بلغة اجنبيـة او أكثر ليس تعجيزا ، وهو مما يتوافر لعامة البشر وكم من سائح ألم بلغات عدة .. ان اللغة الاجنبية مما يستطيعه الانسان ، ناقدا كان ام غير ناقد .

وشرط رابع ، وخامس ، وسادس ..

والشرط المئة : الموضوعية . اي نعم ، النقد علم مثـل سائر العلوم التجريبية ، له مختبره ، وله عالمه ، الذي يجب ان يقوم بمهنته خير قيام وان يؤدي واجبه أفضل اداء ، فلا مناص لا ولا منـاص من ان يتصف اولا وقبل كـل شيء ، بصفـات الكيمياوي ، مثلا : صفاته وهو يحضّر حامض الكبريتوز ـ وما اشبه . يأتي بمادة ويأتي بمادة ، ويضع هذه وتلك في بوتقـة ويضيف اليهما قدرا معلومـا من الماء المقـطر ، ويمرر عـددا محصورا من الشرارات الكهربائية ثم يكون له ـ بعون الله ـ ما يشاء من ذهب ابريز .. والعالم في كل ذلك مجرد من عواطفه وميوله فلا يؤثر الحوامض بغرامه ولا يصب على « القواعد »

جام غضبه ، ولا يستعمل في ذلك غير ذكائه وعقله والقـوانين التي سبق ان درسهـا في كلية الصيـدلة والكيميـاء والنسب معروفة والمقدمات معروفة والنتائج معروفة .

الموضوعية . وقد اجتاح العلم كل شيء ، أليس الادب علما ؟ واستغفر الله ! أليس النقد علما ؟ واعوذ من الشيطان . واذن على الناقد ان يقوم بوظيفته دون ان يتدخل ودون ان يكون لذاته اثر وهو يستطيـع ذلك كل وقت وكلمـا يطلب اليـه ، في النهار ، وفي الليل ان تهيأ الكهرباء . ازاءه مادة ولديه قواعد وما عليه الا ان يطبق هذه على تلك ـ وكان الله غفورا رحيما . يريد ان ينقد قصيدة ، طيب ، وكلنا بات يعرف صفات الشعر الوجداني ـ حتى المشايخ ، ولطالما قالوا انه ليس ملحمة وليس مسـرحية ، اذن ، فـالقصيـدة من الشعـر الوجـداني وهي مجموعة أبيات ثم هي موزونة على البحر الطويل ومقفاة ومن لزوم ما لا يلزم ، وفيها المواعظ والحكم والافكار التربوية واذن فهي من الروائع .. لا ، لا يا أخي ليس ابو العتاهية شاعرا وجدانيا .. وليست « بانت سعاد » قصيـدة وجدانيـة .. ولا الزهاوي . ليس اولئك من الشعر في شيء وليسوا من النثر في شيء . اقول ذلك وانا مؤمن بموضوعيتي وكافر بموضوعيتكم

وليس الشعر « طبقات ارض » واني اعرف الموضوعية الادبية في التحرر من القواعد والقوانين ، اعرفها في الذاتية ، ولا آخذ من الموضوعية الادبية الا التجرد من الاهواء والاغراض الشخصية ، وليست بي حاجة الى ذلك الاخذ ، لان الاغراض الشخصية تزري بكل عمل ، نقدا كان ام حدادة والعمل العدائي يهدم نفسه بنفسه .

والشرط الـ ٩٩٩ ... الناقد مصلح اجتماعي ..

ثم شرط اخير ، لا يعرف الا بعد عزل كل ما هو خارج عن طبيعة الاشياء ، وطرد كل ما يمكن ان يتوافر في كل انسان من القواسم الالف المشتركة بين الاسوياء . واذن ، فلا بد من تحديد الموضوع وتضييق دائرة البحث ، لا بد من السعي وراء الجوهر الفرد .. فما هو ؟

— هل الناقد عالم ؟

— لا .

— هل هو لغوي ؟

— لا .

— هل هو حداد ؟

— لا .

ـ موسيقار ؟

ـ لا .

ـ شـاعر ؟

ـ لا .. انه ناقد .

اذن لنسبر غور هـذا « الناقـد » ، ولنسبر غـور عمله وطبيعـة وجوده ومـاذا يفعل ؟ وكيف ، انـه لا ينـظم « قفا نبك ... » ولكنه يفهمها ، انه لا يعمـل « اندرومـاك » ولكنه يفهمهـا ويفهمها ، انـه لا يكتب « الاحمر والاسـود » ولكنه يفهمها ويفهمها .. ولا يتيسر ذلك لكل انسان ، وان استطاع كل مخلوق ان يدلي بدلوه في الدلاء ويقول شيئا ، ان الذي يفعله الناقد الحق هو شيء غير هذا الشيء .. أعمق وأجل ، وليس مما يواتي كل من عليها من أقوال عامة او من ملاحظات تقع تحت كل عين من حيث الطول والعرض والارتفاع ، ومن حيث اللون والحجم والطعم ..

واذن فلا بد من امر خاص في كيان هذا الانسان الذي يجيد النقد ، فكما كان للشاعر امر خاص ـ سمه الموهبة ان شئت ، وهو بهذا الشيء ـ اولا وقبل كل شيء ـ شاعر يواتيه القصيد طواعية ويهبط عليه بارعا رائعا . فلابد لهذا الناقد من

امر في نفسه وفي فطرته ـ وليكن اسمه الموهبة ، ولِمَ لا ؟ ما دام خاصا بانسان بعينه ، وهو اذ يتوافر لديه يرى في النص الادبي ما لا يراه سواه ، واذا رأى ، اعرب وفسر وبلغ الآخرين مواضع الاسرار ومكامن الجمال .. والقبح ايضا . ومن ثم يقبل الاخرون على النص نفسه فيجدون فيه ما لم يجدوه من قبل ، وما لا يجدوه لو تركوا وشأنهم .

الناقد انسان موهوب ، يقرأ النص فيفهمه على نحو خاص ، ويقف من مخبآته على امور خفية في مجالي ابداع المؤلف ومجلى شخصه في اسلوبه ثم يتكلم عليه وكأنه شيؤه ، وربما وقف صاحب النص نفسه ازاءه معجبا ومستغربا ، مرددا « لله درك » ـ يقولها علنا ان وجد في كلامه ما يرفع اسمه ، ويقولها سرا ان وجد فيه ما ينبهه على اغلاطه .

ثم ، أتراني مبتكرا لهذه « الموهبة » ؟ طبعا لا ، لأنها ملاحظة انسانية .. وكان « سنت بيف » منذ حوالي مئة العام يذكر شيئاً من هذا اذ يقول « لن يكون ـ النقد ـ الا في متناول من اوتوا الموهبة الطبيعية .. على نحو ما يتطلب الطب حاسة خاصة عند من يزاوله ، والفلسفة ذوقاً فلسفياً والشعر موهبة

شعرية » الا ان « سنت بيف » مولع بالعلم وكثيرا ما وصل هذه الموهبة بالتصنيف واكتشاف الفضائل و « كفايات علماء التاريخ الطبيعي » .

عن طريق هذه الموهبة ، موهبة الشاعر في الناقد ، يستطيع هذا الانسان ان يستعيد تجارب المنشئين فاذا هي تجاربه ، وكأنه قد عاشها . فهو محب مع المحبين وساخط مع الساخطين وضاحك مع الضاحكين . واذا عزونا ذلك منه الى الموهبة عرفنا انه لايسير الى ذلك بقصد وخطة جامدة ، انه لا يقول في نفسه ، بعد ان يلم بالنص ، سأبكي مع الشاعر ، وسأسخر .. ولا يقول لنفسه لأرتفع الى مستواه ولأتبنَّ تجربته ، ولأنظره من الناحية الفلانية ، ولأتصوره من الجانب الفلاني .. لا .. لا .. لأنه ان فعل ذلك كان منهجياً كسائر الناس ، ولا تعني الموهبة ذلك ابدا .. انه يفهم ويفسر ويرتفع وينحط تلقائيا ، كما ارتفع الشاعر وكما انحط .

وهذا امر لا يكتسب ، وهل تكتسب الشاعرية ؟ ولهذا رايتني لم اصل الى هذا الشرط البديهي بيسر ، فلقد كان الصدأ يعلوه من كل جانب ، وكان العرض يشغل الناس عن جوهره ، وكنت انكر النقد انكارا عجيبا حتى ليظن من يسمعني

اهاجمه ان النقد شخص بعينه ولي عليه ثارات بعيدة الاغوار ، وما كان ذلك بصحيح ، ولكني كنت افهم النقد في ضوء ما اقرأ من امثلة ، فلا ارى وجها لما يحاط به هذا « السيد » من هالات وما ترفع اليه من ابتهالات . وبعد ان بلغ الانكار منتهاه وكاد يصبح سخفا صحوت .

ــ ترى أيستطيع ان يكون اي انسان ناقدا ؟

ــ نعـــم .

ــ ناقدا عاليا ؟!

ــ لا .. ولا حتى كبار الشعراء ، بل ان هؤلاء كثيرا ما ظهروا فقراء ، مساكين اذا عرضت مسألة نقديـة .. او ذوقية .. او حتى ان استشيروا في امر يخصهم ، ولكنك تقع على شخص آخر لم يزاول الشعر او انه زاوله فلم يجد له فيه حظا يذكر ، تقع عليه ، فتسأله عن هذه القصيدة او تلك القصة ، فاذا هو يحلل ويعلل ، ويطلعك من اسرار المبنى والمعنى ما لا يمر ببال ـ حتى ببال المؤلفين انفسهم ، وعندئذ ، عندئذ فقط ، تعلم ان النقد غير الشعر ، وان الناقد غير الشاعر .

تعلم وتحسب نفسك مكتشفا لهذا الفرق ، ولا غرو فلقد بلغته بعد كد وعناء ، وشغل وجدان ، وتأزم ضمير .

وتقلّب الكتب ، وقد يكون بين هذه الكتب ما سبق ان قرأت فيه أكثر من مرة ، وتقع عينك على « سقراط » ، وترى انه توصل الى هذا التفريق منذ حوالي ثلاث وعشرين مئة سنة ، فتفقد شيئا من لذة النصر ثم تبرر ، فتعاودك الثقة قليلا قليلا . ويكفي ان يكون السابق عبقري كسقراط ، ويكفي انك لم تكن بدعة في الرأي . ومن يدرينا ، فلعل سقراط هذا ، كان مسبوقا بسقراط آخر في يونان او في غير يونان ، ومن يدرينا انه لو وصلت الينا الحضارة السومرية كاملة لوجدنا على احجارها التفريق بين الشاعر والناقد ، عند السومريين وعند من هم أقدم منهم ، ما دامت المسألة انسانية ، وما دام الشعر قائما في البدو ، والجاهليين .. والاسلاميين ، ولعلك قرأت كيف كان يحيل المتنبي على ابن جني . وقرأت ما جاء في مقدمة المرزوقي لشرح الحماسة من انه « قد يميز الشعر من لا يقوله ويقول الشعر الجيد من لا يعرف نقده » .. ولا يعني التوافق في امثال هذه الآراء السرقة ، انما يعني صدق الهاجسة وصلة الفكرة بالنفس الانسانية .

وليست المسألة مسألة تفريق بين الشاعر والناقد .. فقط ، انها أبعد من ذلك ، انها تفريق بين موهبتين ، فكما كان الشاعر

موهوبا ومعدا لأمر بعينه يخلقه ويبدع في مجاليه ، فكذلك الناقد موهوب ومعد لشيء بذاتـه يخلقه ويبتكـر في ميدانـه[1] . واذا اعترفت بهذا ، احترمت « الموهبة » في ضوء طبيعتها ، وربأت بنفسك عن ان تطالب ناقد القصيدة بأن ينـظم مثلها ونـاقد القصة ان يكتب مثلها وناقد المسرحية ان يعمل مثلها . اعترفت وتذكرت ما قرأته في « الغربال » يوما ما : « أعـليَّ ان ابيض البيضة .. لأعرف ما اذا كانت جيدة او فاسدة » وأفدت من « هوراس » فعلمت ان المسن يشحذ الحديد ولا يقطع .

هذه الموهبة شرط أساسي في الناقد ، ومن لم تتوافر فيه شغـل نفسه وشغـل الناس بـالتوافـه والقشـور ، والصخب واللجب ـ بالعرض كما كان يقول اهل الفلسفة .

نختلف مع « آبر كرومبي » وسواه من القائلين بأن ملكة النقـد مما يمكن ان يكتسب ، لا .. انهـا لا تكتسب ، انها كالشاعرية ، ولكنها تختلف طبيعة ، تلك تخلق من الطبيعة ،

---

(١) وقـد يجتمع النقـد والشعـر في اديب واحـد ، و « ليس عـلى الله بمستبعد ... » ولذلك امثلة ، والظاهر انه حتى في هذه الحالة لا بد من تفوق احدى الموهبتين على الاخرى .

وهذه تخلق من النص والطبيعة ؟ تلك تنشىء النص وهذه تفهمه وتُفهمه ، او قل انها تعيد خلقه بعرض جديد ، ومن هنا « لزم » الناقد الكبير البيان الرائع ، لأنه منشىء ايضا ـ وقد يقرأ لذاته في هذه الحال . اما مسألة الاكتساب فليست منكورة . ولكن بالقدر الذي يحتاج اليه الشاعر ، وهل يستغني الشاعر عن الاكتساب ؟ واذا كان الشاعر لا يستغني ، و « يلزمه » ـ عن قصد وغير قصد ـ الالمام ببعض الامور ، وكلما تقدم الزمان وتعقدت الحضارة كانت مستلزماته أكثر ، فكذلك الناقد . فالناقد الفطري فطري ، والحضاري حضاري ، واذا كان هناك فرق في الاكتساب فبالقدر الكائن بين الموهبة الشاعرة والموهبة الناقدة . القصة موهبة والمسرحية موهبة ، ولكن هل تستغنيان عن الاكتساب ، من قراءات وغيرها ؟ واذن فمن الأولى ان لا يستغني النقد الذي يتطلب قراءات للآثار الانشائية وقراءات تدور حول النصوص ويتطلب منه المرانة والمحاولة ومعاودة المحاولة ... والصبر على القراءة وكر القراءة ، وكل هذه امور مساعدة تدخل في الف شرط التي مر ذكرها .

واذن فالنقد موهبة ، والموهبة شرطه الاول .

المعلم الجديد ـ آذار ـ نيسان ١٩٥٨

اريد ان اكون قصاصا

ارغب في ان اكون قصاصا .. فما القواعد التي استطيع بها النجاح ؟ ارجوك ان تلخصها لي وأعدك بأني التزمها حرفا حرفا ، فليس من الصعب ان اطيع ما تمليه عليّ مما يجب في حسن الابتداء وحسن التخلص وحسن الختام .. اعدك بأني اكتب لك القصة كما تريد .. كما تنقل لي ما قرأته في كتب النقد الادبي ..

تلك اسئلة وجهها وهو حسن النية صادق العزم .. وهو معذور لانه ألف ان يسمع بالعروض .. وبالبلاغة .. واخيرا بفن القصة .. ويتحدث فن القصة هذا ، ويطيل الحديث عن العرض والعقدة والحل ويتحدث ويطيل الحديث عن الحوادث واطارها ، ويتحدث ويطيل الحديث عن المواقف النفسية .. ونفسية الكاتب والقارىء .. الخ . وله في ذلك فصول وفصول وكتب وكتب ، وقد ولع الشباب العربي في الايام الاخيرة بهذا الضرب من النشاط العقلي ولقد انساهم الغاية الاولى وملك عليهم افئدتهم فوجدوا فيه مجال تعاظم ومجلى تكبر . وفي ذلك دليل على سهولته وسهولة السفسطة في شعابه .

تريد ان تكون قصاصا ، حسن . ذلك من حقك وواجبك

ـ ان شئت . فمن يدري فلعلك تجن موهبة ، ولعلك تكن مقدرة ان اهملتها عبثت بها الايام فأصابها الضمور وارداها الضياع . وصحيح ان لهذه الموهبة بعض البوادر في تصرفاتك اليومية ، وفي حديثك الاعتيادي ولكن لا بد من اختبارها بالمحك الصحيح ، وتريد ان تكتب ، ولكن قبل الكتابة وقبل ان اغرقك بسيل من القواعد والقوانين التي ولعت باطالتها بعض العقول ، ولعت وعبثت . قبل ان تغرق ، اسألك هل قرأت قصصا عالمية ثبت نجاحها على مر الزمن واختلاف الشعوب ؟ قصصا ابدعتها عبقريات مرت الايام وبقيت ، ومات النقد وخلدت ؟ قصصا لم تعد خفية على متذوق وقد جاءك خبر دستوفسكي .. وبالزاك وستندال .. ودكنز .. وغيرهم وغيرهم .

اقرأ هؤلاء تجد القدوة الصالحة والمثل الاعلى .. اقراهم .. عش عوالمهم .. انك حين تصحب القصة من قصصهم .. وتديم الصحبة ، تتشربها وتمتزج بذوقك وحسك ، وتقف على اسرار فنهم عن كثب ، من غير وسطاء او دخلاء .. ولم يعد الفن القصصي ممثلا بسلسلة من الاوامر والنواهي تبدأ بالواحد ولا تنتهي بالالف .. وقد رأيت ـ اول ما

رأيت ان لكل من هؤلاء العمالقة ذاتيتهم وشخصيتهم ولا يمكن ان يشبـه الواحـد منهم الاخـر ، أرأيت ، ان « القـواعـد والقـوانين » تـريد ان تجعـل منك آلة . او حيـوانـا اعجم ، وحاشاك .. تريد ان تنظر الى اولى المواهب نظر العالم النباتي الى الاشنات والسرخسيات ـ وحاشاهم . انك في قراءتك الاثار التي حظيت بالخلود تجد الامثلة الصحيحة ومن هنا تبدأ .. اما انك اذا قرأت كيفما اتفق ، مجموعة من الورق والحبر سماها صاحبها قصة ، وطبل له اصدقاؤه وزمروا .. حتى اعتقدت ورحت تنسج على منوالها فقد اسأت الى نفسك والى القصة .

اذن تقرأ أمهات القصص في العالم ؟

وكيف تقـرؤها ؟ لم نستـطع حتى الان ان نتوفـر على المترجم المبدع الذي يستطيع ان ينقل لنا هـذه القصص الى لغتنـا العربيـة .. ولا بد لك من ان تقـرأ مجموعـة من هذه القصص ، في لغتها الاصلية .. فما العمل ..؟ العمـل .. اذا اردت الجـد .. هو ان تسعى لتعلم لغـة اجنبية واحـدة ـ في الاقل ـ وهذه اللغة تفتح لك ابواب العالم وتطلعك على شؤون النفس الانسـانية . ستقـول : لا استـطيـع ، ولا اتمكن ..

ظروفي .. وقتي .. وكل تلك اعذار واهية ، ان دلت على شيء فانما تدل على ضعف ارادتك ، وضعف ايمانك بنفسك .. وطلبتك .

اذن تتعلم اللغة الاجنبية وتقرأ روائعها وما ترجم اليها من روائع .. وتنظر في نفسك وتجاربك وتجارب من حولك وتحاول المرة والمرتين والثلاث .. وتأتي بعدها ومعك محاولاتك لتكون القواعد متسقة وشخصيتك والقوانين منسجمة مع فنك .

ومن يدري فلعلك تكون انموذجا جديدا .. وقاعدة جديدة ! ولِمَ لا ؟

المعلم الجديد ـ آذار ـ نيسان ١٩٥٨

انا ناقد مسرحي

ـــ انت !.. لا .. لست .. ولا تكون !

ـــ ولمـــاذا ؟

ـــ لانك تكذب على الناس وعلى نفسك .. اذ تدّعي ذلك !

ـــ لمـــاذا ؟

ـــ ما عدّتك يا سـيدي ؟

ـــ وهل النقد المسرحي يحتاج الى عدة ؟

ـــ لا ! ولكن ما عدتك ؟

ـــ اولا ، اني احب ان اكون ناقدا مسرحيا .. ولطالما غلبني هذا الحب على نفسي ، وشرد بي عما حـولي فأراني الحـاكم المطاع والمحلل المبدع الذي يشـار اليّ بالبنـان وتتهافت عـلى اسمي الصحف وتخطب ودي المسارح وتترامى على اقدامي الممثلات ..

ـــ قدكِ اتئد ، أربيت في الغلواء .. قدِك ، فلقد شـردت .. هذا اولا .. فحدثنا عن « ثانيا » ..

ـــ اني اعتقد مخلصا بسمو المسرح وان بلدا لا مسرح فيه لا شيء .. واعتقـد ان من واجبي الاول ان اسعى الى رفـع مستوى وطني واعمل جاهدا على توفير هذه العلامة الفارقة من

علامات الحضارة البشرية التي تمتع بها اليونان والفرنسيون والانكليز .. فبلغوا القمة من المجد .. امـا نحن .. آه .. فوا أسفاه .. ولكن لا بأس ولا ضير .. رب متأخر بذ الاقدمين ، وانا لها ..

ـ حياك الله وبياك !.. و « ثالثا » ..

ـ قرأت كتابا ذا قيمة يبحث في « الفن المسرحي » .. حقا انه ذو قيمة .

ـ رابعـــا ..

ـ !

ـ اسمع ، بني .. المسرح ابن الغرب فهل كنت يوما لدى المنبع ؟

ـ وهل ذاك ضرورة ؟..

ـ طبعـــا .

ـ لقد جاء « فلان » ومثل في بغداد رواية خالدة .

ـ من نظمه وتلحينه ! اسمع ، يا بني .. ان نيتك حسنة أكثر مما يجب .

لا بد للناقد المسرحي ـ قبل ان يتصدى للنقد ـ وقبل ان يدعيه من ان يعيش طويلا في المسارح ، يشهد بناءها ، ويعرف

مشكلاتها .. ثم يشاهد روائعها المختلفة .. يشاهد المسرحية الواحدة المرة والمرتين والثلاث . هل شاهدت : فيدر ، السيد ، اندروماك .. تارتيف ، البخيل ، روميو ، يوليوس قيصر ، عطيل .. اوديب ، الفرس ؟؟.

هل قرأت هذه المسرحيات العالمية .. وغيرها من قديم وجديد ؟.. لا بد للناقد المسرحي ، قبل ان يتصدى للنقد وقبل ان يدعيه من ان يقرأ خوالد التراث العالمي بلغة اجنبية او لغتين او اكثر .. يقرأ ويعيد القراءة .. ففي كل قراءة لاثر جليل كشف جديد .. وفي كل مشاهدة علم جديد .. انك اذا قرأت فيدر - مثلا - ثلاث مرات فكأنك قرأت ثلاث مسرحيات ، واذا شهدتها ثلاث مرات فكأنك شهدت ثلاث مسرحيات .. وتشهدها على يد ممثلين عالميين وممثلات عالميات .. فهل فعلت شيئاً من ذلك ؟..

ثم تعالَ اليّ .. لقد نقدت كل مسرحية خالدة أكثر من عشرين مرة ، لكل نقد طعم خاص يجلو منها بديعا خفي عن القارىء والمشاهد .. وحتى عن الممثل والممثلة .. ولكل ناقد منحى خاص يقع به على سر من اسرار خلود القطعة وذيوعها فيما يتصل بالفن المسرحي وفيما يتعلق بتيارات النفس

الانسانية .. وقد كتبت هذه النقود بأكثر من عشرين لغة .. فهل قرأتها .. او قرأت بعضها .. او قرأتها مترجمة الى العربية !.

ذكرت انك اعجبت بكتاب « الفن المسرحي » فاعلم انه واحد من عشرات ومئات خير منه .. وألوف يبحث كل منها ناحية من النواحي ويتعمق شيئا من الاشياء .. هذا في التاريخ وذاك في المؤلف وآخر في الممثل ورابع في الاشخاص الثانويين وخامس في الملابس وسادس في الخشب وثامن .. وعشرات في الناقد .. فهل قرأت شيئا من ذلك ؟

وهل درست ؟

انك لم تخط لتحقيق رغبتك خطوة واحدة او ربع خطوة على الاقل ، انك لم تحاول ان تكشف فيما اذا كانت رغبتك هذه فجرا كاذبا .. وزعما باطلا ساقه اليك الكسل واهدته احلام اليقظة وخصك به المزاج المضطرب .

ولم تكن غبيا جدا .. فقد تلفتَّ فرأيت العراق خلوا من المسرحية .. خلوا من المسرح .. واذن فليس من المستحيل ان تكون ناقدا مسرحيا ففي ذلك ما يضفي عليك صفة التوحد ويحقق لوجودك صفة الوجود .

ــ لا والله ، ما الى شيء من ذلك قصدت .. انمـا هي رغبة عارمة .. ثم اني لم اسمع بشيء مما ذكرت ، وها انت ذا ترى الناس هنا ، لا يكـاد الواحد منهم يهـوى امرا حتى يـدعيه ويتفنن في الادعاء وحوله عصبة تطبل وتزمر . اما والامر كما ذكرت فأعدك بأني قررت تعلم اللغة الاجنبية منذ الان وقررت قراءة روائع المسرح العالمي منذ الان وقررت الرحلة الى الغرب لارى التمثيل الراقي ولأكون على قرب من قضاياه واساطينه .. اعدك ..

ــ ارجو ان تكون لك من الارادة ما يخرج بـك من الوعود المعسولة .

ــ ثـــق !

ــ اخشى انك تسافر الى الغرب بجريمة فتعود بجريمتين .. تعود وتدعي ما ليس لك ـ عن علم ـ في هذه المرة .

المعلم الجديد ـ اذار ـ نيسان ١٩٥٨

في الاسـلوب

عنـد اليونـان من Stilus ، الازميـل الذي يستعمله النحات ، وعند العرب من الصف والاصطفاف ..

ولكنك لا تجد اللفظة في دلالتها النقدية مبكرة ، واذا جاءت فانها ليست ذات حد ، ولعلها أكثر ما تعني المنهج والطريقة في نظم الكلام ولعلها تتصل أكثر ما تتصل بصورة الكلام وشكله .

وأكبر الظن انها دخلت عصرنا الحاضر عن طريق الغرب ، ترجمة لكلمة Style دون ان يفكر المترجم كثيرا بالدلالة العربية ـ ولكنها على حظ كبير من التوفيق .

لأن الـ Style في أبسط تعريفاته « طريقة الكتابة » (Une Maniere d Ecrire) . والمعقول في الكتابة هذه ان تكون دلالة واسعة تجعلها هي والانشاء سـواء ، فتضم حينئذ الكتابة والخطابة وما اليها من فنون الادب الصرف كتب ام لم يكتب .

ثم ان الـ Style اذ يذكر ، فان اول ما يتبادر للذهن ، الجانب الشكلي . بما في ذلك من مفردات وتراكيب وصور ـ وهذا ما يتبادر لذهن الغربي كذلك .

وكل ما في الامر اننا وقفنا عند هذا الجانب وحده في اطلاقنا كلمة « أسلوب » بينما راح الغربيون يجمعون اليها جانباً آخر هو الروح او الفكرة او المضمون ، بحيث جعلوا الجانبين امرا واحدا لا يفترق ولا يفرق ولم يرضوا دون وحدتهما حتى بتشبيههما بوجهي الدرهم او الجسد والروح في الكائن الحي . وانهم ليسخرون مر السخرية ممن يشبه الاسلوب بالثياب والملابس ..

على ان بينهم من لا زال يقصد الى الجانب الشكلي عندما يتكلم ، ومنهم من يقف عند اللغة ويسميه حينئذ ـ La stylistique وتجد هذا لدى النحويين والصرفيين ، ومن اليهم .

وقد عرف العرب شيئا من هذه الامور بوجه جزئي ـ كأكثر معالجاتهم النقدية ـ فكان هناك اللفظ واهل اللفظ ـ والمعاني واصحاب المعاني . وكانت معارك . ولنا ان نقرأ الجاحظ والآمدي والعسكري والجرجانيين وابن الاثير .. لكي نلم بشيء مما ذكرنا .

اننا أكثر ما نجد تقسيم الاسلوب الى قسمين : شكل ومضمون عند المدرسيين مدعين بذلك تسهيل الامر وتقريبه

من الناشئة والطالبين .

ويدخل تحت كلمة شكل Forme : الكلمة المفردة ، والجملة او البيت والفقرة او المقطع والبناء العام .

واطال العرب الوقوف عند الكلمة ، ووقفوا غير قليل عند الجملة والبيت وهو ما يمكن ان يقابل ما سموه بالصياغة .. وقلما تطرقوا الى الفقرة وصلة الفقرة بالفقرة وما ينتج عن ذلك التماسك ..

اما المضمون فهو الافكار والمعاني ، هو ما يكتنف الاثر من عواطف وأخيلة وحالات نفسية وعقل .

وقد تنبه العرب الى شيء من هذا ، الى ما سموه - كما رأينا - بالمعاني ، وقد وقفوا عند حد محدود وضمن دائرة ضيقة لا تكاد تتعدى المدلول العقلي والمغزى الفكري للجملة او البيت ، وفي كلام ابن قتيبة في مقدمته على الشعر والشعراء ما يلقى ضوءاً على هذا .

وقد يكون النقد الغربي في ماضيه على شيء من هذا ، ولكنه كما وصل اليه اليوم واسع جدا ، وانهم ليدخلون في المضمون - كما رأينا - النفس الانسانية

كلها ـ بخيرها وشرها .

ومع كل هذا التوسع الذي بلغه المدرسون في عناصر الشكل وفي عناصر المضمون ظلوا محط سخرية من اهل الانشاء انفسهم ومن النقاد .. الذين لا يريدون ان يسمعوا كلمة شكل وكلمة مضمون .. ولا داعي الى هاتين الكلمتين بعد ان كانت لدينا كلمة تغني عنهما وتزيل ملابساتهما ، تلك هي الكلمة البارعة الرائعة ؛ الاسلوب .

وليس الاسلوب اللفظة المفردة والجملة .. والخيال والعاطفة .. ان هذه أضعف شيء فيه ، انه هذه زائدا شيئاً آخر أهم منها بألف مرة ..

انه الجانب الاصيل الذي يرتفع بالنص الى مستوى الروائع الخوالد . والذي يميز صاحبه عمن سواه ومن هنا نعلم ان هذا « الشيء الآخر » اهم ما في الامر .

وليست المواد هي المهم .. ان توفرها .. ودراستها ليس بالامر الصعب انما الصعب .. والمهم .. ان تبحث عن سر الاسرار .. عما جعل الاديب اديباً .. عن الذي جعل فلانا ينظم هذه القصيدة ، يؤلف تلك القصة .. الخطبة .. دون الاخرين ..

عندك مال اذن ، تستطيع ان تشتري ما تشاء من المواد الانشائية ، من جص وآجر واعمدة .. وعندك مال اذن تستطيع ان تكـري أكبر مهنـدس في العالم لوضـع الخارطة فهنا المطعم وهنا الحمـام .. وهنا المـرحاض .. والحديقة ..

ولكن هل تستطيع ان تحصل بذلك على عمارة ذات اسلوب ؟

أبـــدا .

وهناك ألوف من الناس يستطيعون رصف الحجارة الى جوار العمارة .. والغرفة ازاء الغرفة .. والطابق فوق الطابق .. ولكن الذين يعملون كل هذا باسلوب قليلون .

عندك قطعة من أفخر القماش وأخذ لك الخياط أدق القياس في طول البنطلون وعرض الكتف وحجم الياقة .. ويملك هذا الخياط أحدث مقص وأحدث ماكنة .

ولكن هل يكفي هذا لأن يجعل من بدلتك بدلة ذات اسلوب ؟

— ابـــدا .

ثم ، ان الذين يستطيعون خياطتها كثيرون وما أكثر من يرتدي السترة والبنطلون في هذا الناس .

ولكن بدلات قليلة تتأملها .. وتقارنها الى سواها .. فتعجب ،.. اجل .. انك ترى فيها شيئاً خاصاً .. غير المقص والمقاس .. وهذا السر الخاص هو الاسلوب ..

وفي عمل الكيك ..

المقادير معلومة .. كذا من الطحين وكذا من السكر وكذا من البيض .. الخ وحتى السعرات الحرارية محدودة .. والقوالب معدة .. ولكن هل تستطيع كل النساء (والرجال) عمل الكيك ؟ نعم . ولكن أيستطيع كل النساء عمل الكيك اللذيذ الذي يسرك مرآه ومخبره .. فتطرب له اسنانك ويطرب له انفك وتطرب له معدتك .. لا .. انهن قليلات جدا .. وهذا السر الذي يبرعن به هو الاسلوب .

هذا هو الاسلوب .

وكل ما في الامر اننا في الطبخ والنجارة والخياطة وما اليها نعزو التفوق الى المهارة بينما نعزوه في الشعر الى

الموهبة .

والناقد القدير هو الذي يستطيع ان يغوص وراء الاصالة ويبحث عن الموهبة متحدة في الأثر الأدبي ، ويتقصى ما سميناه « بالشيء الآخر » وهنا تكمن الصعوبة ..

والا ، فما أسهل ان يقال هذه لفظة غريبة وهذه استعارة .. وهذا حب .. وذاك تصوير - وما أسهله ، وهذا اخلاقي وذاك لا اخلاقي - ما أسهله .

ان « الشيء الاخر » أجدر كل شيء بالدراسة ، بل هو وحده مجال الدرس .

ومن هنا صح القول « بأن الادب دراسة الاساليب » لان الاساليب هي التي ميزت الاديب الحق من غيره ووسمت هذا الاديب الحق بهذه السمة ووسمت ذاك بغيرها .

وهذه الدراسة صعبة .

لانها « الاديب نفسه » ..

بل « الاديب » في أصدق ساعاته - ساعات الخلق والابداع التي يستطيع ان يعبّر خلالها - من غير تكلف - عن أعمق مشاعره ، وأعمق ما هو كائن في كل انسان .

هو صعب جدا .

ولا يستطيع احد ان يدعي التمكن منـه وبلوغ درجته العليا ـ وان كان الناس ـ اي النقاد ، درجات في الاقتراب من « هـذا الشيء الاخـر » ، وهـم يتفـاوتـون بنسبـة مـوهبتهم واستعدادهم في هذا الميدان ..

محاولة لدراسة
اللوحة في « الشـوقيـات »

لم تكن الدراسات التي صدرت عن شوقي قليلة ، وقد ساد هذه الدراسات الطابع التاريخي ، فهنا حياته بين ميلاده ووفاته ، وهنا بيئته ودمه ، وصلته بساسة زمانه ، وهنا مقابلة بينه وبين حافظ ، ومقابلة بينه وبين المتنبي ، وهناك وطنيتـه وعقيدته ، وهناك اغراضه في الرثاء والغزل والوصف والمديح ، الى آخره .

وقد الممت بشيء من هذا وذاك ، والممت بشيء من شعر شوقي ، وكلما بعد عهدي به .. قويت في نفسي خاطرة ، خاطرة خلاصتها ان التاريخ في الدراسات الشوقية غلب الفن وان ما حول النص منها اغرق النص .. وليس التاريخ فنا وليس الشعر تاريخا .

ويتباعد العهد ، وتقوى الخاطرة ، وتتوضح وتتبين : ان صفة شوقي الغالبة هي التصوير ، فهـو رسام ، وهـو يعمل بـالريشة أكثـر مما يكتب بـالقلم ، ولا يقف هذا عنـد غرض الوصف ، ولو كان ذلك ، لما كان صفة غالبة ، انما هو شأنه في أغلب اغراضه .

ثم تمر على وفاة شوقي ست وعشرون سنة ، وتفكر مصر في تخليد ذكراه ، وتطلب اليّ المشاركة ويحدد للتحضير ساعات محدودة ، لا تكاد تكفي لمحكوم عليه لان يدافع عن نفسه ، ذلك اننا لم نخبر بالمشاركة الا قبل المهرجان بأقل من اسبوع ، وكان علينا ان نهييء في هذه المدة الوجيزة ألف شيء وشيء ، وفي زحمة هذه الاشياء .. وزحمة ذلك الوقت .. عاودتني خاطرتي القديمة ، فعدت الى الشوقيات ، ورأيت - فيما رأيت :

ان غير قليل من صور شوقي قد اوهنته الايام ، وافقدته شيئاً من روائه ، وان شوقي كان يستعين بالمبالغة التي يتذوقها عصره ، فتشغله عن الصور نفسها ، او لا بأس - بعد ذلك لديه - ان تكون نتيجة للتعجب الارادي القصدي ، وان من هذه الصور ما اكتنفته النثرية ، فتقطع في سلك كلماتها تيار الوحي الصادق . وان وصف الطبيعة - انْ احتل مكانا من الديوان - فانه ليس على درجة عالية . فقد غلب عليه الجفاف ، وساورته النثرية ، وان كثيرا من لوحاته التي حاول ان يجمع على سطحها أكثر من منظر واحد ، أقرب الى الكليشة والفوتوغراف منها باللوحة ، اي انها لم تعن كثيرا بالاختيار ، وتراكمت فيها الاحصاءات ، ولم يميز فيها بين ما يؤخذ وما

يترك في التفصيلات . هذا ما بدا لي ، ولكن الكلام عليه يخرج قليلا عن مجال المهرجانات . ثم انه - ان كان صحيحا - لا يحول دون دراسة الصورة عند شوقي ولا يحول دون العثور على صور تستجاد وتستلمح مما يبرر الدراسة ، ويقف الناقد والقارىء على آثار نبيلة ، فيها براعة ، وفيها قوة .. وجدة وابتكار .. وتطرب الحاسة الفنية ، وتبعثها على الاعجاب بالاثر ، وعلى الاعجاب بالشاعر .

اجل ، ان الصفة الغالبة في شعر شوقي هي التصوير . وكان هم النقاد القدامى ينحصر بالجزء الصغير من الصورة مما ينطوي عليه البيت الواحد . وكأن أثر هؤلاء النقاد ظل قائما في دراستنا الحديثة ، فما رأينا عناية كافية بالصورة وباللوحة - وهما أوسع من التشبيه والاستعارة . ولا يعدم البلاغي ان يجد عند شوقي امثلة كثيرة . على مفردات بحثه ، بل انه ليستطيع ان يجد امثلة ناجحة وأكثر من ناجحة : ألم يكن شوقي هو القائل :

لله انت فما رأيت على الصفا
هذا الجلال ولا على الاوتاد

والقائل :

هذا فضاء تلم الريح خاشعة
به ويغشى عليه الدهر محتشما

والقائل :

فأعرض عن قواده الجند شاردا
وعلمه قواده كيف يهرب
يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى
ويقضم بعض الارض بعضا ويقضب

والقائل :

أقام على الشفاه بها غريبا
ومر على القلوب فما اقاما

والقائل :

جرى وصفق يلقانا بها بردى
كما تلقاك دون الخلد رضوان

والقائل :

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني اليه بالخلد نفسي

والقائل :

للحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق

لقد قال شوقي كل هذه الروائع ، ونترك للبلاغيين من أهل البيان والمعاني .. امر العناية بها .. ونسير ، فما كانت غرضنا الاول ـ مهما تدل هذه الجزيئات على المخيلة .

ان غرضنا الاول هو البحث عن اللوحة ، او بمعنى أدق ، عن اللوحة المختارة ـ اي الصورة التي لا تقف عند الجزء ، وانما تستقصي الاطراف وتلتفت الى دقائق التفصيلات ، عارضة وحدة ـ او وحدات صغيرة ـ رآها الشاعر حقيقة نابضة في مخيلته ، ويراها القارىء وحدة مستكملة الاعضاء ، منسجمة التلاوين ، فتثير فيه شعورا يشبه الشعور الذي يبعث « الرسام » على النظام والتجويد ، وتوحي اليه اشياء اخرى يضيفها عليها من نفسه ومن ظروفه ، ويقترب الاثنان كلما اقتربت المخيلة ، وكلما تقاربت الظروف النفسية .

ونستعرض حياة الشاعر ، ونستعرض شعره ، ونبحث عن اطوار النعيم ، وآثار حفلات الرقص والقصف ، وانعكاسات البلاط .. ونبحث في الذى نظمه ليسجل هذا الطور في حينه ، فلا نجده موفقا . وتسير في معرضه ، فلا يستوقفك

منه شيء ذو بال ، لانك لا ترى رواء ولا تحس ريا ، انما هو وصف ، ووضع الاسود الى جانب الابيض ، فتمر مر الكرام ، وتسير ، فتجتذبك صور اخرى هي غير تلك الصور ، او انها تلك ، او شيء منها ، عندما اصبحت ماضيا .. وباتت ذكريات ، فحفظ منها الزمن الاقوى الذي ادخر عاطفة زادها الموت حياة ، وجعل لها نفاذا من وراء اللفظ واشعاعا من خلف الالوان .. وظلالا لدى الاطار .

وكلنا يعلم ان شوقي عاش مدة في باريس ، وكانت له فيها اوطار واوطار . وكان غاب بولونيا من مسارح تلك الاطوار . ولكن شوقي لم يحدثنا عن الغاب ايام الغاب . ولم يصور لنا الاوطار ايام الاوطار والشباب ، عهد الشباب ، والهوى .. عهد الهوى .. لا ، فقد مر الزمان ، ولاذت الاحداث في زاوية من زوايا النسيان .. ثم « يرى » الشاعر الغاب ، فيستيقظ الوجدان ، ويخفق القلب ، ولولا ذاك ، لما بلغتنا عن ذلك الغاب على لسانه رواية ، ولما عرفنا ان له من قلبه مكانا ـ هذا المكان الذي يجلوه بقوله :

هلا ذكرت زمان كنا
والزمان كما نريد

نطوي اليك دجى الليا
لي ، والدجى عنا يذود
فنقول عندك ما نقول
وليس غيرك من يعيد
في كل ركن وقفة
وبكل زاوية قعود
نسقي ونسقى والهوى
ما بين أعيننا وليد
فمن القلوب تمائم
ومن الجنوب له مهود
حتى اذا دعت النوى
فتبدد الشمل النضيد
بتنا ومما بيننا
بحر ودون البحر بيد

أيام حلوة ، صافية ، زاهية ، مؤاتية تتخللها خطوط عنيفة من الهوى ، وهادئة من الرضى . ولكنها لم تصل الينا كما هي ، وكما كانت ، انما وصلت ذكرى ، ذكرى يكتنفها سواد الحسرات فيقلل من روائها وبهائها . وقد يكون هذا أكثر تأثيرا

في نفوسنا ـ ولكن الذي وقع وقع ، وهو ان الشاعر لم يصور الشباب في شبابه ، فيبدو وضاء وضاحا ويقف المشاهد ازاء هذه اللوحة ، فيصيبه من حاضر الرسام شظايا ، ومن كآبته كآبة . ولو وقف ازاءها يوم كانت حاضرا لغمره المرح والفرح ، وربما الغيظ والحسد . وتجتذبنا اللوحة ، فنجدها أكثر تأثيرا من مشهد ، فها هو ذا الرسام « ازاء مصدر وحيه » . وها هو ذا يرجع الى ماضيه شيئاً فشيئاً ، حتى ينقطع عما حوله تمام الانقطاع . وها هو ذا الماضي حاضر .. حي بين رواح ومجيء ، وقيام وقعود وهوى وصبابة .

ونعود من جديد ، ونعيد النظر بعين الممتحن المتفحص ، اكثر من عين المتأثر المأخوذ . فنرى الرسام ، انما نجح اول ما نجح ، فيما صور من اوطار قلب ، محب ، كانت له في « الغاب » ايام سعد وسعادة ، وما زالت هذه المشاهد عميقة في نفسه .. ولكنه عرضها عرض شاعر عربي لا يبدو انه تأثر بالشعر الغربي وبالرسام الغربي . اما حبيبته فلم نعرف عنها شيئاً ، ولم نتبين سماتها ، وانك لا تستطيع حتى ان تقول انها فرنسية .

ويحاول ان يعنى « بالوسط » الذي كانت تجري فيه مثل

هذه الاحداث ، فلا يطاوعه تيار الوحي كثيرا ، ولا يسايره في خطوطه ، وقد يفارقه في منتصف الخط ، فيظل النصف الثاني « مظلما » مثل « والرياح به هجود » ومثل « والناس نامت الوجود » او يفارقه في الخط كله فيأتي ناشزا ، ومثل :

فنبيت في الايناس يغبطنا بها النجم الوحيد

والغصن يسجد في الفضاء وحبذا منه السجود

وليست هذه الاحيائية التي سكبها على الطبيعة ، احيائية الرومانتيكيين انما هي احيائية البلاغيين العرب في امثلتهم في الاستعارة المكنية – وشتان .

ولو سار شوقي في احيائيته على نهج : « نطوي .. فنقول .. » ، لكان للوحة شأن آخر ، لان المهم في اللوحة ، ما وراء خطوطها من قوة وحياة .

ثم ان الاطار الذي تعرض داخله مهم ايضا ، ويشترط في هذا الاطار ان يكون جزءا لا يتجزأ من الصورة ، وان يكون له من الحياة ما لها ، وعليه من الظلال ما عليها ، ولكن ، اين غاب بولونيا وهو مسرح تلك الاوطار ومسراها ؟ تبحث عنه .. فلا

تجد له اثرا البتة . اين « البحيرتان » ؟ اين الاحبة في الزوارق .. وبين حنايا الشجر .. متعانقين ، ولدى مسارب الدروب .. متخاصرين ، واين البواسق واين الزحمة .. واين اين . تقول انه لا يريد ان يرسم منظرا « واقعيا » فليكن ذلك ، ولكنه لم يرسم شيئا من غاب بولونيا ، ولعله رسم اشياء غريبة عن الغاب .. استعارها له ، من بساتين مصر مثلا . ولئن كان ذلك .. وليكن .. فلم يقصر الشاعر في رسم اوطار القلب ، كما بقيت « قائمة بين الضلوع » .

تلك وقفته في غاب بولونيا وله وقفة اخرى .. في زحلة[٢] . ويتساءل المرء ، هذه هي زحلة ؟ ويجيب كل من رآها : لا .. ثم اين هو شوقي وراء الكلمات والسطور ؟ لا تجد منه شيئا . انما هي مبالغات تكاد تكون تعليمية ، فهي اوصاف عامة ، جاهزة ، فان كان الشاعر قد وصف الوادي قبل ان يراه .. فان الابيات مقبولة في مكانها ، وان كان قد اراد ان يرسم ما يرى ماثلا امامه ، ففي الابيات مصداق لما قلناه من انه لا يجيد رسم المناظر الطبيعية التي تقع عليها عينه ، وانه لا يستطيع ان يرسم الحاضر .

---

(٢) الشوقيات ٢ : ١٧٧ ـ ١٨٠ .

ولكن الذي يستوقف المشاهد من « زحلة » شيء غير زحلة ، تستوقفه ذكريات الشاعر ، اي حاضره الذي كان ماضيا .

شيعت احلامي بقلب باكي
ولمحت من طرق الملاح شباكي
ورجعت أدراج الشباب ووردة
أمشي مكانهما على الاشواك
وبجانبي واه كأن خفوقه
- لما تلفت - جهشة المتباكي
شاكي السلاح اذا خلا بضلوعه
فاذا أهيب به فليس بشاكي
قد راعه اني طويت حبائلي
من بعد طول تناول وفكاك
ويح ابن جنبي : كل غاية لذة
بعد الشباب عزيزة الادراك
لم تبق منا يا فؤاد بقية
لفتوة او فضلة لعراك

كـنـا اذا صـفـقـت نـسـتـبـق الـهـوى
ونـشـد شـد الـعـصـبـة الفـتـاك
والـيـوم تـبـعـث فيَّ حـين تـهـزني
مـا يـبـعـث الـنـاقـوس في الـنـسـاك

هذه لوحة ، ولوحة جيدة ، تمثل شيخا ، كان لشبابه في الغرام صولات وجـولات ، ولقلبه معـارك وانتصارات ، وقـد تكون مبالغا فيها ، ولكنها هكذا تبدو ، وهكذا يحسها ربها .

وتمر الايام ، ويمضي الشبـاب ، ويخلف هيكلا ، يضم داخله شيئا كان في يوم ما قلبـا . ويحاول ان يغـالط نفسه ، فيتعرض للمرأة .. وهيهات ، فما لمرأة فيه طمع . وما عليه الا ان ينسحب ، حزينا كاسف البال ، يروح ويجيء في باطنه شيء يابس ، فقد لباقته وطاقته ولم تبق فيه الا اطياف ماض تقض حاضره . وما أشد الانسجام في لوحة التقى فيهـا الهيكل .. الباهت بهذه الالياف اليابسة ، التقيا وكان رابطهما الماضي ، بل ذكرى الماضي الماضي ، بـل الاسى عليه ، والاسى عـلى ذكراه . ويـودع الهيكل صاحبه الذي يسميه قلبا على سبيل التجوز ، ويعترف بالحقيقة المرة ، ان لم تبق لهما بقية لفتوة ، او فضلة لعراك .

كل شيء منسجم في هذه اللوحة ، والحسرة تنعكس من ثناياها ، وهذه الحسرة الصادقة هي التي وهبتها هذه القوة ، وهذه الحياة ، وبعدت بها عن الرصف التعليمي . على ان نتذكر ان ليست لها اية صلة بزحلة ، وانها ثمرة من ثمار الماضي لم تقتطف في حينها .

وتسير في القصيدة فترى لوحة اخرى ، هي لوحة « جارة الوادي » وفيها جودة دون ان تكون ذات صلة مباشرة بزحلة ، ولكن ، لها الصلة كلها فيما نحن فيه من ان شوقي يجيد استعادة الماضي واستحضاره واحياءه :

لم أدر ما طيب العناق على الهوى
حتى ترفق ساعدي فطواك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
عينيّ في لغة الهوى عيناك
ومحوت كل لبانة من خاطري
ونسيت كل تعاتب وتشاكي
لا أمس من عمر الزمان ولا غد
جمع الزمان فكان يوم لقاك

ولم تصل الينا هذه اللوحة بألوانها الحمر الشديدة

الحمـرة ، السود الشـديدة السـواد ، انما جـاءت في ظلال الحسرات ، وأطلّت من وراء الاسى .

وصحيح ان الذكريات مهمة في دنيا الرسامـين ، وغير الرسامين ، والرومانتيكيين خاصة . وانها رصيد غزير يأخذ طريقه الى حاضرهم من حيث لا يشعرون ولكن من الرسامين ، من اذا وقف ليرسم منظرا ، شغله الحاضر ، فعرضه بشكل يقرب من الشكل الذي تراه انت ، دون ان تستطيع الاعراب عن رؤيتك ، ولم يكن شوقي ـ كما رأينا ـ من هؤلاء ، انه لا يرسم حاضره ، او بمعنى ادق ، انه لا يجيد رسم حاضره الا عندما يصبح ماضيا ، او عندما يكون ذا صلة بالماضي .

ولا تقف هذه الظاهرة ـ ظاهرة سيادة الماضي ، عند حياة شوقي الشخصية ، انما تتعداها الى حياة مصر كلها .. فقد قال كثيرا في حاضرها الذي عاشه . عـلى اختلاف القـول ، وعلى اختلاف الاحداث والأعلام ، ولكن اللوحات القيمة التي بقيت ماثلة ؛ هي لوحات من المـاضي . ولعلك شهدت لوحـة « انس الوجود »[3] .

---

(٣) الشوقيات ٢ : ٥٦ ـ ٥٨ .

ايـهـا المـنـتـحـي « بـأسـوان » دارا
كـالـثـريـا تـريـد ان تـنـقـضّـا
اخـلـع الـنـعـل واخـفـض الطرف واخـشـع
لا تـحـاول مـن آيـة الدهـر غـضـا
قـف بـتـلـك «الـقـصـور» في الـيـم غـرقـى
مـمسـكـا بعـضـهـا مـن الذعـر بعـضـا
كـعـذارى أخـفـين في المـاء بـضـا
سـابـحـات بـه ، وأبـديـن بـضـا
مـشـرفـات عـلى الزوال وكـانـت
مـشـرفـات عـلى الكـواكـب نـهـضـا
شـاب مـن حـولهـا الزمـان وشـابـت
وشـبـاب الفـنـون مـا زال غـضـا ...

والشاعر في « انس الوجود » رسام يحاول ان يرسم ما يرى . او ان يظهر للمشاهد بانه يرسم ما يرى ، فلقد احتوت اللوحة تلك القصور من مخلفات عهود سالفة بعيدة ، ولكنها لم تحوها كما يبدو لعامة الناس : قصورا متقاربة ، متلاصقة ، اغرقها النيل ، وقد اختفى جزء وظهر جزء لأن ذلك اغراق في الواقع ، وليس من الفن في شيء ، وهو تعليم وجغرافية وتاريخ ،

والرسام غير المعلم .. وصحيح انه يعرض ما يرى ، وما يراه الناس ، ولكنه يعرض اعجابه ايضا ، وقد فعل ذلك شوقي ؛ فقد نقل اعجابه الى المشاهدين ، وجعلهم يرون في تلك القصور البيض أكثر مما كانوا يرون ، وجعلهم يرونها احياء ، مذعورة . ومصدر اعجاب شوقي هو التاريخ ، وكون المنظر تاريخيا ، وان هذه القصور - على بعد الزمان بها - ما زالت حية حاضرة ، وكان للاعجاب شريك آخر في اثارة الشاعر ، هو الاسى على ما تعانيه هذه القصور من عوامل التلف .

وما كان بين شوقي وبين النجاح التام في كل اجزاء اللوحة الا السيطرة التامة على اصباغه ، فلقد اندس بينها ما يمكن ان يكدر الانسجام ، ولا ادري لِمَ اختار شوقي « الضاد » قافية ، واكبر الظن انه اختارها اصطناعا ، ليدل على « روزفلت » بلغة الضاد . ومع هذا تظل « انس الوجود » رائعة يرى القارىء فيها - على البعد - ما رأى شوقي ويتأثر بما تأثر به شوقي .

هذا الماضي - الماضي المصري - يظهر اكثر ما يظهر ، ويبدو أوضح ما يبدو ، عندما يقف شوقي ليصور ابا الهول[4] ،

(٤) الشوقيات ١ : ١٥٨ - ١٧٠ .

فلا يصور التمثال نفسه ، وانما يصور التمثال ، الاثر والاثار التي يتركها في الاخرين . ثم لا يلبث هذا « الاب » ان يثير شتى الاسئلة ، ذات الصلة بشوقي ، آنذاك ، فلقد بدا متشائما ، وبدا ضجرا ، حائرا .. وبدا طالبا للعبرة :

ابا الهول ويحك لا يستقل
مع الدهر شيء ولا يحتقر
تهزأت دهرا بديك الصباح
فنقر عينيك فيما نقر
اسال البياض وسل السواد
وأوغل منقاره في الحفر
فعدت كأنك ذو المحبسين
، قطيع القيام ، سليب البصر
كأن الرمال على جانبيك
، وبين يديك ، ذنوب البشر

فعرض صورة لذلك الجبار المتشامخ الذي سخر من الزمن ، وسخر من الدهر ثم لم يلبث ان استسلم فشاهت خلقته ، وغارت قوته ، ومسخ عنفوانه .

واللوحة تريك ابا الهول مجسما : فهذا جبروته ، وهذا البياض وهذا السواد .. وهذه الرمال على جانبيه .

ولكن ، لا تعتقد انك رأيت ابا الهول خلال هذه الصورة ، لانها صورة شوقي أكثر منها صورة ابي الهول ، وهي تختلف عن رؤيتك اياه قبل ان تقرأ هذه الابيات . اما وقد قرأتها ، فان اول ما ستعمله حين تتطلع في تمثال ابي الهول انك تطيل النظر الى عيونه فتبحث عن السواد والبياض ، وعن آثار المنقار .

ان شوقي يرسم ما في نفسه ، وما يوحيه فيها ابو الهول ، وما يسكبه هو عليه .

ولا غرو فهو شاعر يطاوع مقتضيات الشعر الغنائي في فطرته الاولى . واثر موحيات ابي الهول في نفس الشاعر متنوعة الصفحات . ففي كل لحظة صورة لا تتصل كثيرا بالصورة السابقة .

بسطت ذراعيك من آدم
ووليت وجهك شطر الزمر

تطل على عالم يهـ
ـل وتوفي على عالم يحتضر
فعين الى من بدا للوجو
د ، وأخرى مشبعة من عبر
فحدّث فقد يهتدى بالحديث
وخبّر فقد يؤتسي بالخبر ..

وهكذا يسكب شوقي ما في نفسه على التمثال ، دون ان يحاول ان يجلوله صورة واقعية . والملاحظ ان شوقي لا يجيد كثيرا اذا اراد ان يرسم الشيء كما هو امامه ، واذا اجاد ، فلا يطول نفسه ، واذا طال مع الاجادة فاعلم انه لا يرسم اشياء وقعت ، وانما ، اشياء تصورها . فليست اللوحة عنده عرضا للعرض ، انما هي عاطفة شوقي التي تطل من وراء المرئيات ، عاطفته ، او قل حزنه من الدهر ، وألمه من فعلاته .

وعلى هذا لا يصح ان يتخذ شوقي في الجيد من شعره مصدرا للتاريخ ، لانه انما يتحدث عن بنات تخيله ، او عن الماضي كما صورته اليه كلمة واحدة وردت في تاريخ ،

او كما صورته بقية عاشت بعد اهلها .

نفهم من كل هذا ، ان شوقي في جياد لوحاته ، لا يحلق اذا اراد ان يرسم الاشياء كما هي وكما تبدو ازاءه وازاء الآخرين . ومن هذا انه لا يجيد اذا اراد ان يصور الحاضر والقريب ، حتى اذا اصبح الحاضر ماضيا ، والقريب بعيدا اجاد واحسن ووهب الصورة حياة وقوة يهبها من نفسه وشخصه .

هذا شأنه في حياته الخاصة ، وقد رأينا بولونيا وزحلة ، وهو شأنه مع التاريخ ، وقد وقفنا عند ابي الهول وانس الوجود . واذن ، فالجياد من لوحاته التاريخية لا تمثل التاريخ وانما تمثل شوقي ، او التاريخ كما رآه شوقي في شكواه وتشاؤمه من الحياة وتفكيره في مصيرها ، فتعكس هذه الشكوى على الرائي ، وتعمل على ان تثير فيه انطباعات متشابهة .

وشوقي في مجمل هذه اللوحات أقرب الى الشقاء منه الى النعيم ، وأقرب الى الحزن منه الى المرح ، مما يدل على انه في اعماقه غير ما يريد ان يبدو للناس ، وغير ما اراد

الناس ان يروا فيه ، بعد ان علموا صلته الشديدة بالبلاطات .

هذا ما تمليه علينا جياد اللوحات .. وللمرء ان يذكر في تعليل هذه الظاهرة ـ ظاهرة التأثر بالماضي ، وغلبة هذا التأثر عند الاجادة في الكلام على الحاضر ـ اقول للمرء ان يذكر أكثر من سبب . وبامكانه ان يرد ما تعلق منها بحياته الخاصة ، الى ان الشاعر لم يستطع ان ينصرف كله الى تصويرها ايام وقوعها ، لانه كان يخشى القالة ، ويفكر بنقد الاخرين وسخطهم على سلوكه الشخصي .. حتى اذا بعد الزمن ، وباتت ـ هي ـ ذكرى ، وبات ـ هو ـ شيخا ، انصرف اليها كله ، يعرضها ويعرض أعنف لحظاتها ، وهو يعتقد ان مثل ذلك الماضي لا يمكن ان يسيء اليه والى حاضره .

اما ما تعلق منها بماضي مصر فبامكان المرء ان يرده الى ما هو شائع ذائع من ظروف شوقي ، شوقي الذي نشأ بلاطيا وظلت البلاطية جزءا من شخصيته ونفسه مهما

تختلف به شؤون الحياة ، وشوقي الذي عاش في مصر في زمن بدأت تكون فيه للشعب كلمة ، وكلمة ذات بال . يريد الشاعر ان يرضي هذا ، ويريد ان يرضي ذاك ، والتوفيق امر غير ممكن لرجل لم تتعدد شخصيته ولم تزدوج في مثل هذه المواقف ـ في الاقل .

ولهذا ، فانه ، حين يصف البلاط يعلم في نفسه انه يغضب الطرف الاخر وحينما يصف الشعب يحذر من وقوع العكس ، فلا يستطيع ان ينصرف كله الى طرف ويهبه كل ذاته .

اما الماضي فهو جنة ، وهو سند ينصرف اليه وهو يعلم انه يرضي بذلك كبرياء الشعب ، وكبرياء البلاط ، كما يرضي نفسه ايضا ، لأن الماضي الذي عرضه شوقي في عرضه هو امر ذاتي ، لا يكاد يزيد نصيبه من الموضوعية على عدد قليل من المواد الخام .

وعلى هذا ، يمكن القول انه لو مد الله في عمر شوقي او لو انه عاش في عصر جمهوري ، توحدت فيه حاجات

الشعب وحاجات الحكومة وتوحدت فيه اهداف الشعب واهداف الحكومة ، وتوحدت فيه امجاد الشعب وامجاد الحكومة .. اقول لو عاش شوقي مثل هذا العهد المبارك لكان ممكنا ان يجلوه في لوحات جياد لا يعوق ريشته -وهي تخط وتلون وتظلل - خوف من امر خارج عن طبيعة الصورة .

ان هذا يومك يا شوقي ، وبأمتنا حاجة الى موهبتك ولغتك .. ولوحاتك .. ورحمة الله عليك .

القي في مهرجان شوقي بالقاهرة

الآداب ١٩٥٨

الفهرست

٩٢٨
م ٦٢٦ المطبعي ، حميد
الدكتور علي جواد الطاهر / تأليف حميد المطبعي . ـ
بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٩٤ .
جـ (ص٣٢٠) ؛ ٢٤ سم . (موسوعة المفكرين والادباء
العراقيين) .
١ ـ الطاهر ، علي جواد (كاتب وآديب)
آ . العنوان ب . السلسلة
م . و
٨٧ / ١٩٩٤

المكتبة الوطنية (الفهرسة آثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق
ببغداد ٨٧ لسنة

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
١٩٩٤

السعر : ١٥ ديناراً
طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة